عمرو
عبد الكريم

فريق
متميزون
E-BOOK

الرؤيوان

قصص قصيرة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الرؤيوان

(قصص قصيرة)

عمرو عبد الكريم

عن الكتاب..

تخيّل أرضاً لم تعد تشرق شمسها في الصباح، بل تُسَرِّب ومضاتٍ شحيحة من نورها. ما رد فعل سكّانها شعباً وحكومات؟ ...

كتاب "الرُّؤْيوان"، هو مجموعة قصص قصيرة صادرة حديثاً عن "شركة المطبوعات للتوزيع والنشر/ بيروت الجناح، شارع زاهية سلمان مبنى مجموعة تحسين الخياط، وفي طبعة أولى 2019".
ويضم هذا الكتاب عشرين قصة قصيرة، وهي مسبوقة بمدخلٍ ومقدِّمة بقلم المؤلِّف.
ويُخاطب ناشرُ الكتاب القارئ، بقوله في الكلمة التالية التي يحملها الغلاف الأخير: تخيَّل أرضاً لم تعد تشرق شمسها في الصباح، بل تُسَرّب ومضات شحيحة من نورها. ما رد فعل سكّانها شعباً وحكومات؟

ما حدث هناك إنهم لم يتمرّدوا ولم يثوروا ولم يتساءلوا عن سرّ ذلك التعتيم، ولم يطالبوا باسترجاع ما فقدوه. كل ما في الأمر أنهم اقتتلوا على نثارات الضوء!

قصص تغطي عالماً غريباً يشبه تلك الأرض، وقد أعيد تشكيله، عالماً موازياً للحيّز المعتم من الإنسانية، الذي تخيّم فيه الخيبة ويعتمل الحزن في القلوب، والذي لا يمكن التعبير عنه إلاّ بالفن واللغة والخيال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرؤيـوان

قالت الأعراق آمنَّا

إلى مَن أرسلهم الله كي يذكّروا الناس أنْ ليس بينه وبينهم أحد..

{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ}

المدثر/ 31

{وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ}

الشعراء/ 95

«الخيل معقود في نواصيها الخير»

حديث شريف

السيفُ أَصْدَقُ إنباءً من الكتبِ

في حدّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعبِ

أبو تمَّام

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المدخل

الشعوب التي تُباد كالجراد والآفات، لا تعود حقوقها بالطاولات الدبلوماسية.

ملوك الشعوب التي تباد كالجراد والآفات، يحبُّون الطاولات الدبلوماسية، تثيرهم المداعبات الخفية الماجنة للأعداء، تعوّدت أعصابهم الحسَّاسة حركات الأصابع.

الشعوب التي تُباد كالجراد والآفات، يجب ألّا تدافع عن نفسها، لديها مكان واحد للصراخ: الطاولات الدبلوماسية!

الشعوب التي تُباد كالجراد والآفات، لو قررت أن تستخدم المبيدات ذاتها ضد أعدائها، لسُمّيت إرهابًا وقتلة على الطاولات الدبلوماسية.

يتعهَّد ملوك الشعوب التي تُباد كالجراد والآفات على الطاولات الدبلوماسية، أن يتخلَّصوا ممَّن يستخدم المبيدات ضدَّ الأعداء؛ لأنهم يحبُّون السلام الذي يَمُدُّهم بتمسيدات محترفة للبروستاتا والمستقيم.

يضحك رجل وحيد من الشعوب التي تُباد كالجراد والآفات وهو يموت، يقول إنَّ الموت نظيف وطاهر؛ لأنه خالٍ من الطاولات الدبلوماسية، والشعوب والجراد والآفات، والملوك والأعداء.

تفتح الأرض كلَّ يوم ألف فم لتبتلع آلاف الشعوب التي أُبيدت كالجراد والآفات، تتألَّم من فتق في بطنها، يبدو عند طرف الأفق، حديديًّا، تدعوه السجن.

المطر هطل مُجبراً كي يطعم قطيعًا منظَّمًا من البقر.

مات أحد الملوك التي تُباد شعوبها كالجراد والآفات، فأوصى أن تُحَنَّط جثَّته؛ لأن الأرضة لا تأكل أجساد القدّيسين، فحنَّطوه بعد أن استأصلوا مستقيمه الذي تعفَّن.

بكى الحانوتي، وهو الرجل الذي يُطعِم الأرض بالجثث، وقال لقد شبعت الأرض، ويمرُّ الوقت فوق الجثث التي أُبيدت كالجراد والآفات لتتفسَّخ، يبكي لأنه لا يقوى على مقاومة الوقت، والأرض شبعت.

شاهد طفل من الشعوب التي تُباد كالجراد والآفات طائرةً ورقية، فخاف وبكى وقال للّه: أريد أن أموت، فمات.

تجمَّعت الثعابين عند ملك الأفاعي الكبير، وقرَّرت أن تنسحب إلى الأبد تحت الأرض، قالت: ما الذي أشركنا في صراع الناس والجنّ؟ نحن زواحف.

الأعداء يأكلون الفاكهة، ويشربون النبيذ، ويلعبون مع أطفالهم، ويمهّدون الطرق الخضراء، ويحتسون اللبن والعسل، ويتبادلون في الأعياد لعبة أطفال جديدة، طائرة معدنية تشبه عبوَّة مبيد الحشرات.

النوم أصابه الملل؛ فقرَّر أن يوقظ الشمس قليلًا، لكنَّ شيئاً آخر استيقظ على صوت تثاؤبها.. ملك الجراد.

الحرب رجل مسكين، لا يتحرَّك إلا للضرورة، مشكلته الوحيدة أنه مصاب بالفصام، والأعداء يستغلُّون ذلك.

غشى الشعوب التي تُباد كالجراد والآفات جيش الجراد العظيم، فأعلن الملوك الحرب عليه، لكنَّ الشعب صُدِم عندما سقطت جثث الجراد كالمطر، وأشار طفل ناحية جرادة تسقط من بعيد، وسأل: هل هذا أخي؟!

سمع الحانوتي نقرًا من الأرض، حيث دفن ألف جثة، فتح خائفًا، فخرج رجل أسود يُسمّى الثأر، وقال له: سأنام للحظة، وأيقظني، إنَّ لي رحلة طويلة.

يقف ملَك الموت حول العالم ويتنهَّد، يتذكَّر وجه آدم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقدمة

ظهر مصطلح الرؤيوان أول ما ظهر في كتاب الأستاذ الشهيد مالك أسد، «تخافُت السباع»، وكان يقصد به، كما أجمع النقاد، حالة الاستثناء، أو كما تُعرف في بعض البلدان بالأحكام العرفية، أو حالة الطوارئ. لكن بعد بحث مطوَّل في التراث، وجدنا أنَّ المصطلح له معانٍ أخرى؛ ففي الأساطير العربية، هو غول برأس فرس أو سبع، وفي علوم السحر هو ما يطلق عليه بالمُسْتَطْلِع. لكن أدقّ معنى قد توصَّلت إليه في بحوثي كان في قول الفيلسوف العربي أبي الحكيم المنصور في سلسلة رسائله الأصعب: «تقاليد الزمان في تقاليب المكان»، حيث عرض بوضوح مصطلح الرؤيوان على أنه حالة الخراب التي تأتي في نهاية عصر ما، وتبدأ في عصر جديد بعده. وأظنُّ هذا الذي دفع السيّد الشهيد مالك أسد إلى استعمال مصطلح الرؤيوان على أنه حالة الطوارئ التي فُرضت قبل إعدامه.

أما المباحث اللُّغوية، فتعطينا تأويلات أخرى، فالرؤيوان من الرؤية/الرؤى أو ما قد يسميه البعض: النبوءة! وهذا الأصل اللُّغوي يُسبِغ على المصطلح ظلًّا مقدَّساً، يَنْحَى ببعض الباحثين أن يتطرَّفوا في التأويل، ويربطوا الرؤيوان بالكتب المقدَّسة، وبعضهم يصفه بالقدّيس مار يعقوب! (Gregor et al. 2008 .(Theo. Mytho. Acta

إذًا نحن أمام مصطلح حَرِج، مُريب، ولا أبالغ لو قلت: مخيف وغامض؛ فقد عَهِد المتخصّصون أن تَظهر لهم صور الخرائب والحروب مع الرؤيوان. أما هذا الكتاب، فيحوي مشاهدات واقعية قد تفسّر هذا المصطلح الغامض، مع العلم أنَّ كلَّ الحكايات نُقِلَت نصًّا من مخطوطات وكتب، وأحياناً من ألسنة شهود لتلك الوقائع. وعسى أن تقدّم هذه المرويات مداخل جديدة لإعادة البحث في موضوع (الرؤيوان) الذي لم يتطرَّق إليه أحد منذ عقود بعد إعدام الشهيد مالك أسد.

المؤلّف

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب

الشمس لم تشرق اليوم، عادي عادي، لن أذهب إلى العمل، إنَّ الليل سبات، ولو كان اليوم عطلة للشمس، فلماذا أذهب أنا إلى العمل؟! استلقيت على الوسائد، أريع وسائد على الأرض كأنها فراش في الصالة أمام التلفاز، تمددت وفتحت التلفاز، والستارة تَرِفُّ مع نسمة هواء، وفي السماء زَنَّة لا تتوقَّف. قلَّبت المحطَّات ويراودني برد طفيف، لن أقوم رغم ذلك لآتي باللحاف. لوَّحت بقدمي من الجذل، لن أذهب إلى العمل! على المرء أن يحبَّ ظهره وأعصابه قليلًا، ويفضّلهما على الجدران المطليَّة بفضلات الزملاء والمدير العامّ. سأشاهد الكارتون، وأمتّع شرودي في القطط التي تتزوَّج الأرانب، من دون أن تنجب كائنات مهجَّنة، فقط تلد قططًا وأرانب، لن تلد شيئًا يُسمّى قِرْنَب مثلًا، أو أَرْوَطَّة، بل أرانب وقططًا، وردية وزرقاء، سخيفة ومسرحية؛ سخيفة لتضحكك، ومسرحية لتضحكك، تعيش في مدينة منظَّمة كالعادة، لكنها لا تَفْسَد، حتى لو ارتُكِبَت فيها أبشع الحماقات، حتى لو ضُربت بقنابل نووية، لن تزول المدينة، ستبقى، ستبقى المدينة المنظَّمة، ولن تفسد أبدًا. أقلِّب المحطَّات، وشدَّ بصري لطخات كألوان زيتية على لوح ورق، وجه وردي مصفرّ، به سجحات زرقاء أو قرمزية، والملامح منتفخة وغير متناسقة، العين قد تعلو على الحاجب، والشَّفَة قد تخفي أختها، والشعر عُشُّ عصفور ميت. قناة ثقافية؟ تجري على الأشرطة الإخبارية أسفلها: بورصة، وأحوال الجو، وانهيارات أرضية، وعواصف، وبركان، وزلازل، وتوقُّعات بطوفان قريب، وبعض أخبار الفنّ، لماذا لا يوجد أخبار عن القطط الزرقاء والأرانب الوردية؟ شريط أحمر في الوسط مكتوب فيه: عاجل: القبض على الإرهابي محسن الداوودي - الحكم بالإعدام الليلة!

وقف شعر قفاي «محسن؟! محسن الداوودي مَن؟!». دقَّقت في الوجه السُّريالي، هل هذا وجه مضروب؟ هذا وجه محسن مضروبًا، بل مسحوقًا! «ما الذي وضع صورة صديق الطفولة على الشاشة؟!». هذه انتفاخات غير منطقية! مستحيل أن يكون هناك نعل بشري يستطيع أن يسحق وجهًا بهذه الطريقة! قالت المذيعة: «حصريًّا على قناة الجبت اليوم، القبض على الإرهابي محسن أبو بكر عزت الداوودي».. وقف شعر ظهري، لا يحمل هذا الاسمَ اثنان! ماذا يفعل على التلفاز؟! هذا وجهه؟ ما نوع الحذاء؟ أو مِمَّ صنع النعل أصلًا؟ لقد كان معي أول أمس، واتفقنا أن نذهب إلى الملاهي الأسبوع القادم، حجزت التذكِرَة بالفعل، كيف سيذهب إذن؟ إعدام؟! مستحيل! شريط أحمر عريض: عاجل: القبض على الإرهابي محسن الداوودي - الحكم بالإعدام الليلة! قرَّرنا أن نذهب إلى ملاهي العاصمة (بؤسمانيا)، هي هي ملاهي رحلات المدارس، أردنا أن نستعيد الأيام فقط، المدرسة، الهروب من المدرسة،

تنورات الفتيات، مَسْمَط العِجْل، الخناقات في فِناء المدرسة، كلّ هذا اتفقنا عليه هنا، على هذه الطاولة، وقد غلبني في دور الدومينو، وقال بعظمة لسانه: «سنذهب الأسبوع القادم إلى الملاهي!». إذا كان يخطّط لعملية إرهابية، فلماذا أعطاني ميعادًا للذهاب إلى مَلَاهٍ؟ هناك خطأ، هناك خطأ!

ارتديت ملابسي. لا بدَّ من أن تفهم المذيعة، وصاحب القناة، وصاحب التلفاز، والشركة التي اشتريت منها التلفاز، ووزير الإعلام، والرئيس؛ أنَّ معي تذكرتين للملاهي، واحدة منهما لمحسن، تأكَّدت أنَّ بطاقة الهُوِيَّة معي، ومفاتيح السيارة، نظرت من النافذة قبل أن أذهب، الجوُّ بارد، والشمس لم تشرق بعد، «حرام، الساعة صارت الثامنة صباحًا! حرام واللّه!» وهرولت أخرج، لكنَّ الباب لم يُفتَح، والتَّرَابِيس ليست مُوصَدة، جرَّبت المفاتيح، ليست موصدة، أفتح الباب، لا يُفتَح! «هذا ليس وقته، لن أسمح لك أن تَتْلَف الآن! لديَّ صديق في ورطة، لا بدَّ أن أنقذه!». لا يفتح! أضربه بكلتا يديَّ وأصيح: «افتح، افتح يا أخي!»، ولا يهمُّني ما سيقوله أيُّ جار من الجيران! «افتح بقول لك!».

فتنهَّد الباب وقال بصوت عميق: «أين تذهب؟»

قلت: «أذهب!» وشعرت أنّني أُشبه قطّاً أزرق سخيفًا في مدينة منظَّمة كارتونية، تأمَّلت أركان الباب، وشردت في مُفصَّلاته، هل الصوت خرج منها؟

قال: «أين تذهب إذًا؟!».

قطُّة زرقاء سخيفة تزوَّجت أرنبًا ورديًّا كسولًا سخيفًا، فأنجبا قطّاً أزرق سخيفًا وأرنبة وردية ذكية، وتبنَّيا سمكة زينة سخيفة، وعلّماها أن تسير على قدمين! عاجل: القبض على الإرهابي محسن الداوودي - الحكم بالإعدام الليلة! رسم سُريالي لوجه سحقه حذاء لم يُخلَق لبشر، حذاء أسود يشخر ويَبْصُق، سيُعدِم صاحبي الذي علَّمني أن آكل من المَسْمَط ولا أقول لأمي، سيقطّعه إرْبًا إرْبًا، ويطعمه للكلاب، لن تصلّي عليه، أو تسير في جنازته، لن تشيّعه. سأموت يومًا ما على الوسائد أمام التلفاز وأنا أشاهد القطط والأرانب الوردية والزرقاء، ولن يعرف أحد إلا من رائحة تفسخي. خائن! الليلةَ سيُعدِمونه، ودليل براءته في جيبك، تَذْكِرة مَلاهٍ للأسبوع القادم، كما اتَّفقنا بعد دور الدومينو، تُضيّع الوقت كقطّ أزرق سخيف وهو يحاور الباب! هدَّدته بسبَّابتي، وأنا أحدّق إلى عينه الوحيدة السحرية: «اسمع، أنا متأخّر عن موعد مهمّ جدًّا! افتح، افتح أقول!».

«نعم نعم، أين ستذهب؟!». الأبواب لا تتكلَّم مطلقًا، أنت تَهْذِي، هل أذهب وأنام قليلًا حتى أستطيع أن أثبت لرئيس التلفاز والمذيعة أنَّ محسن بريء؟!

ذهبت إلى الغرفة، لكنَّ الباب ناداني: «أين تذهب؟ ألستُ أتكلّم معك؟! تعال هنا!».

عدت، أنا مرهق وأريد أن أبكي: «ماذا تريد؟».

قال صراحةً: «أتريد أن تذهب لتنقذ صديقك؟!».

الأبواب تقرأ الأفكار! قطّ أزرق سخيف، افتح يا سمسم، نظرت إلى عينه الوحيدة الزجاجية، ولم أجادل. «سيقتلونه، سيقتلون محسنًا وقد اتَّفقنا أن نذهب معًا إلى الملاهي الأسبوع القادم، ألم تسمعنا؟ أوَّلَ أمس! ألا تذكر؟!»

«أين ستذهب إذًا؟!».

«أنقذه!».

«تنقذه؟ كيف تنقذه؟!».

«أخرج أولًا، منك أعني، وأقول لهم إنه مظلوم! والدليل هذه التذكِرَة، اتَّفقنا معًا أن نذهب إلى الملاهي!».

«الملاهي؟! هل سيصدّقونك؟ إنهم سيُعدِمونه الليلة! ما داموا عزموا على إعدامه الليلة، فلا جدوى ممَّا تقول!».

«لعلمك، محسن يعرف نجَّارًا جيّدًا، سنأتي به معنا في العودة!».

«إنهم سيُعدِمونه الليلة! ما داموا عزموا على إعدامه الليلة، فلا جدوى ممَّا تقول!».

صرخت: «وما الحلُّ إذًا؟! أتمدَّد على الأرض أشاهد القطط والأرانب الزرقاء والوردية؟ لا بدَّ من أن أنقذه!».

«إلى أين ستذهب إذًا؟!».

«يووووه! إلى التلفاز! إلى الصحافة! إلى الإذاعة! إلى الرئيس! إلى شركة الكهرباء! إلى أيّ مكان!».

«لن تخرج من دون سلاح يحميك!».

البشر يُجَنُّون؛ فلا مشكلة! أما الأبواب فتُجَنّ؟! تمتمت: «سلاح؟! ما.. ما..».

«أنا هنا باب! ووظيفتي الكونية أن أحميك من الأخطار خارجَ هذا البيت! اقرأ التاريخ الشامل للأبواب وستفهمني!».

«أرجوك، دعني أذهب! سيقتلونه!». صراحةً، لم أَقْوَ على الجدال، ووجه محسن المسحوق بحذاء لم يَرِد على قدم بشر أَجَاشَ قلبي، ودمعت عيناي:

«أرجوك دعني، سيموت!».

«لكن لو قلتَ إنك صديقه سيقتلونك أيضًا!».

بكيت: «أريد أن أذهب، سيموت!».

«كيف ستنقذه، ومن دون سلاح؟!».

«الملاهي! معي تذكرته، ها هي! لقد اتَّفقنا...».

«سيُعدِمونك معه!».

أخرجت من جيبي شريط الذكريات الرفيع، ولَفَفْته حول عنقي، أسير خلف محسن في المدرسة، في الفِناء، في الملعب، في الشارع، في المَسْمَط، في السينما، في المقهى، خلف تَنُّورات الفتيات، الملاهي، السجن، مِنَصَّة الإعدام، المِقْصَلة، المِشْنَقة، تَبَّة الرماية، بندقية في وجه كلّ منا، بندقية تشبه بندقيات الرَّشّ التي في الملاهي، التذكِرَة معي. بندقية بعينين تتنفَّس النار، شريط الذكريات خنقني، وعيناي كرتان من الألومنيوم تكادان تقفزان إلى الخارج، سألته: «هل تدعني لو ذهبت إلى الملاهي أشتري بندقية رشّ، أو بندقيتين، واحدة لي وواحدة له، كي أنقذه؟!».

«البندقيات لا تَرُشّ، البندقيات هي التي تقتل!».

«ولماذا أقتل كي أنقذ محسنًا؟!».

نخرت صواميل الباب، وقال: «إذن سيُعدِمونه! اذهب اغسل وجهك، وحاول أن تنام!».

صِحْت: «دعني! سأصرخ! سأصرخ في الشوارع أقول إنه لا يريد أن يفعل شيئًا في الأسبوع القادم سوى أن يذهب إلى الملاهي! سأصرخ وأُسْمِع كلَّ الناس!».

«إذن يقتلك الناس، سيقولون ثورة تمشي في الشارع، ويقتلونك قبل أن ترى صاحبك يموت!».

صِحْت: «افتح!» قَرْقَع، وفتح!

قابلني هواء بارد، لففت شريط الذكريات جيّدًا حول رقبتي كي أدفأ قليلًا. سأذهب إلى القسم، لا لا، المديرية، لكنَّ حذاءً مثل الذي سحق وجهه، من المؤكد أنني سأجده في الأمن الخاصّ! أذهب أبحث عنه في الأمن الخاصّ، أم المحكمة؟ إلى أين أذهب؟ إلى التلفاز؟ إلى السيّدة المذيعة! نعم، هي مَن ستقول للعالم بشأن التذكِرَة! ليس هناك إرهابي على الأرض لديه القدرة على التزلّجُ والتأرجُح والصراخ الحماسي وسط الصارخين! هل أذهب إلى

الناس في البيوت؟ إلى التلفاز؟ انتهى الدَّرَج، وقفت خلف البوابة، مُوَارَبَة قليلًا، وبين مِصْراعيها أكياس بلاستيكية شفَّافة تلهو قليلًا. نظرت من الشّقّ المُوَارَب، وجدت دبَّابة سوداء تنظر ناحية أوَّل الشارع، وجنديَّين مستندين إلى جانبه الآخر يتحدَّثان ببؤس، ويدخّنان، أغلقت البوَّابة، وصَعِدت إلى الشقَّة مرة أخرى.

قال الباب: «عدتَ بسرعة!» البرودة قارصة، والساعة التاسعة صباحًا، ولم تشرق الشمس بعد، إننا نعيش في ثلَّاجة، ولا أحد يريد أن يفتح الباب، إنني أرنب وردي في طبق غَوِيط، لا أنتظر سوى ماء ساخن حَمِيم، كي أُمتّع العالم بحَسائي الغني الجميل، الساعة التاسعة ودقيقة واحدة، من الآن فصاعدًا، سيتحرَّك الوقت ببطء شديد، ففي عالم الثلاجة كلُّ شيء خاضع للفِرْيُون، يحرّكه ببطء. البرودة تعني البطء، وعلينا تقبُّل الواقع الجديد، التاريخ يُحكَم بنواميس قاسية لا تتبدَّل، الثلاجة لديها السُّلطة الشاملة، والأرانب الوردية والقطط الزرقاء تَقْبَع في الصحون الغَوِيطَة، إنه كما قال الأستاذ سامي الحفني قديمًا في درس التاريخ، كنت أجلس جوارَ محسن: «كلَّ مئة عام يأتي وجه جديد للتاريخ، وفي نهاية كلّ وجه تظهر حالة خاصَّة مضطربة تُسمّى الرؤيوان، ينهار فيها وجه، وينشأ وجه جديد، وحينَها يَقْلِب التاريخ صفحة جديدة، ويختار كلُّ إنسان موضعه الجديد الذي سيحيا عليه في الأعوام المئة الجديدة»، وأنا قِطّ أزرق في صحن ملوخية خضراء. نِمْتُ على الأرض أمام التلفاز.

استيقظتُ الساعة العاشرة مساءً على صوت احتفالاتٍ في التلفاز، بشر يَعْتَلُون سيارات ومركبات، يزحفون ببطء جماعاتٍ وكتلًا بشرية، يصفّقون، يرقصون، يُلَوّحون بالأعلام، يصيحون في ميدان الحرية، والشريط الأحمر: عاجل: إعدام محسن الداوودي! صورة مربعة في أسفل الشاشة، كلاب تَنْهَش في جثَّة، وتضحك المذيعة وبعض الضيوف في الخلفية، أغلقت التلفاز. بكيت. نظرت من النافذة، تجمَّع الجليد على الدبَّابة، وغطَّى الأسفلتَ بطبقة بيضاء بلورية. انتظرت حتى الحادية عشرة، ارتديت عباءة أمي رحمها اللّه، خرجت، وقف الليل عملاقًا في آخر الشارع، يتنهَّد في تعب بعد أن اغتصب الأرض، وحولَه يلهو البرد بسِياطِه وزَوَابِعه، حتى الجنود أجبرهم على الاتّقاء في الدبَّابات والمُصَفَّحات. حظر تجوُّل من الجليد.

وصلت إلى ميدان الحرية، لم يكن هناك سوى القمامة ورائحة البول والدم، قشر الذرة، البسكوت، البطاطس المقلية، الحوائط مسودَّة كأنها صدئة، لم يكن هناك رجل واحد، مجرَّد ظِلَال دبَّابات وسط الصقيع، تُخرِج دخانًا له رائحة جوارب الجنود. قِطَع من دُمًى حملت صور محسن أُلقيت في كلّ الأطراف، بحثت عن رائحة الكلاب، وبدأت بالبحث داخل فضلاتها مسرعًا قبل أن يُتِمَّ

الضباب هبوطه على الأرض. جمعت ما استطعت من الفضلات الساخنة الثقيلة، أضعها في كيس أسود بلاستيكي كبير. وجدت بعض عظام محسن، فوضعتها أيضًا، وبكيت، بعض اللحم، الشعر، امتلأ الكيس، فحملته على كتفي، تلفّتُّ في خوف، وذهبت سريعاً إلى المقابر، لا أدري، هل تصعد الشمس اليوم؟ لا أحد يعرف لها حال!

أخرجت من ثنايا الجلباب كفنًا أبيض، فرشته على الأرض، وضعت فوقه جثة محسن المهروسة، المهضومة، داخل الكيس الأسود. لففت الكفن، وبكيت، نظّفت يدي بالتراب، صلّيت عليه وحدي، وبكيت. دفنته، وذهبت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السعفور

لا أحد يجرؤ على النظر ناحيةَ الشرق. الموضوع قديم، فالناس لا ينظرون إليه من سنين بعيدة، وكثير منهم لا يعرفون لماذا، فقط يتلقَّف المرء عينيه قبل أن تقعا على بيت الحاجّ بكر أبو إسماعيل؛ أن تختلس النظر إلى جاراتك من خلف النوافذ أهون من أن تنظر إلى بيت أبو إسماعيل! أن تتزوَّج غازية من الغَجَر أفضل لك من أن تُسَوّل لك نفسك أن تمرَّ من هناك. وإذا ذهب ولدك ناحية حقوله، فأقم المآتم، ولو لم يمت، فلن تراه مرة أخرى. وإذا رأيته فردّد الشهادة أو اهرب، فسيقبض روحك والعياذ باللّه!

الحكاية وما فيها أنَّ البلد كانت تزرع القمح بوفرة، حتى قيل إننا كنا نزرعه طوال العام، ونصدّره إلى بلاد الخارج، لنحصد أموالًا وعزًّا وفيرًا، كانت البلد تُسمّى (أرض الدهب) أو (كَفْر أبو الدهب) من وفرة القمح واتّساع غِيطانه، حتى قيل إنَّ الطائرات الجِرْمَانية عندما حلَّقت فوق حقولنا، لم تستطع أن تضربنا؛ الشمس سطعت على القمح، فأعمت طيَّاريهم، وظلَّت البلدة مطمئنَّة دهرًا، حتى عاد مِحِمِد أفندي أسعد، ابن أبا الحاجّ أسعد أبو سليمان. كان أفنديًّا كُبَّارة متعلمًا في بلاد الخواجات، وكان يدرس محاصيل الفاكهة وأمراضها. فلما عاد أعطاه الحاجُّ والده فَدَّانَيْ أرض كي يزرعهما كيف يشاء، ويتعلم على ثمرته، وقيل إنه كان يدرس خصوصًا فضلة خيركم اليوسفي والنارنج، فكانت العيال تسرق غيطه، فيطلق خلفهم الغَفِير، السيّد أبو عبد القوي، فيضربهم أو يمنعهم، ولو طلبت النساوين قشور المحصول للتخليل، لم يكن يردُّ علينا، إذا اشتكيناه إلى الحاج أسعد، يضحك، ويطيّب خواطرنا: «أصل حضرة الدُّكتور مِحِمِد ابني عالِم، والقشرة والبذرة دولي كنز زي الدهب بالنسبة له».. فكنا ندعو له بالتفوق الدائم، وترقّبنا طويلًا هذا الذهب الذي يأتي من بذور اليوسفي وقشوره.

في يوم حارّ، نادى الخَفِير محمود أبو رمضان في الناس أن يجتمعوا عند دار العمدة، وتنقَّل بين الآذان خبر أنَّ الدكتور مِحِمِد أبو أسعد هناك مع الحاجّ والده، ومعهم أفندية مهمُّون من المركز، فكنا نخطف الطريق كالعيال، قلوبنا ترجف في نشوة تدفع الأرواح لتقفز فوق الطرقات، وتسبقنا إلى العمدة.

كان العمدة جالسًا مبتسمًا وسط باحة الدار، شاربه الأسود العريض يهتزُّ مع كلّ كلمة يقولها للدكتور مِحِمِد عن يمينه، عيناه خطَّان أسودان صغيران، كلما ضحك فتح فمه بطيبة لا تخفي البلاهة، أما عن يساره فجلس الحاجُّ أسعد أبو سليمان، والحاجُّ بكر أبو إسماعيل، وهو رجل نحيل، أسمر، في عينه صفار مرض أو عَجْز، يتابع الدكتور مِحِمِد ويستقرؤه، ينقل بصره بغموض قلق بينه وبين زملائه الأفندية.

انتظر العمدة كثيرًا حتى تجمع الناس، حاول إسكاتهم مرات لكن الفلاحين غجر ساعة الفرح، همج، يتلاسنون، يتصايحون، يتكاذبون، ينتَشون بكلّ هذا في التجمُّعات المميزة مثل هذا المقام، فيحيطون حواراتهم بأوهام تفصلهم عما حولهم؛ فلا يسمعون سوى ما يريدون! بعد نصف ساعة أو أكثر، أمر العمدة بضرب طلقتين في الهواء، فسكتنا، ابتسم: «اللهم صلّ ع النبي العدنان، متجمّعين عنده حَرَمًا يا أحباب، واللّه النهاردِه الدَّكتور مِحِمِد إجه يستسمحنا في طلب عزيز، وآني ما دريتش أقول له إيه غير لما أرجع ليكم، فاسمعوا منه كِدِه ربنا يجعل في كلامه القبول!».. نظر بعضنا إلى بعض، وطالعنا الأفندية في قلق، كانوا جلوسًا في صفّ منتظم خلف سي الدكتور مِحِمِد أفندي، غمغم مصباح غاضبًا، بينما قال العمدة: «الدَّكتور مِحِمِد اللّه يحرسه، بيستسمح أهل البلد أننا نزرع الأرض سعفور!»

صاح الحاجُّ بكر: «دي إيه دي؟!» وسط همهمات غير الفاهمين والذين لم يسمعوا! كرَّر العمدة: «السعفور، السعفور يا إخوانَّا! ديه محصول جديد جاي من بلادة برَّة، مِحِمِد أفندي بيقول إنه دارسه كويس، وبيأكّد لي أنه يبيع عن القمح!». صاح الحاجُّ بكر: «سعفور إيه دي يا عمدة؟!». يومئ إلى الأمام برأسه متكئًا على عصاه، عيناه جاحظتان كأنهما ستَنْدَلِقان من وجهه، يهزُّ كتفيه بعصبية: «سعفور إيه دي يا عمدة؟!» فيشير إليه العمدة برفق أن يتريَّث، ويقول لنا: «يا إخوانَّا، السعفور داهوَّن نبتة شبه النارنج، بس ف نفس ذات الوقت، بذرته تشبه القمح، وكماني يتغزل منه زي القطن!»

انقسمت الهمهمات بين منبهر ومستنكر، قال أبا الحاجّ مرزوق: «ديه إيه يا اخواتي ديه؟! نارنج وقمح وقطن في زرعِة واحدِة! العمدة جرى لمخّه حاجة يا اولاد!» فصاح العمدة: «يا إخوانّه! اسمعوني مش كِدِه! الوقتي بدل ما نِزرعِهه قمح والسلام، أدينا نِزرعِهه نارنج وقمح وقطن في زرعة واحدة!»، واستدار لسي الدكتور مِحِمِد أفندي: «ما تقول حاجة يا دَكتور!»، وأشاح لنا بذراعه. هزَّ أبا الحاجّ بكر أبو إسماعيل جذعه إلى الأمام والخلف: «يقول إيه؟ يقول إيه يا عمدة؟ عسفور إيه وغراب إيه وزبالة إيه مَلَاطِيش؟»، زجره العمدة بعيون غضب، لكنَّ سي الدكتور مِحِمِد أفندي تدخَّل: «سعفور.. سعفور يا حاجّ بكر، يا إخوان، أنا عارف طبعًا أنكم لا يمكن أن تزرعوا الأرض إلا بالنبتة اللي أنتم ألفتوها؛ لكن السعفور، وهو من فصيلة (الدرمكيات) ويُنطَق Zafori واسمه العلمي: Zafoirkus Drakimata وهو نبات جذري، يشبه كرنبة صغيرة، لكن مطاول قليلًا، كأنه بيضة كبيرة، لونه بتنجاني فاتح، وله فصوص طرية شبه البرتقان، أما بذوره لا تختلف أبدًا عن القمح! ولحمه صالح للأكل عادي، أو ممكن يُحوَّل إلى نسيج زيّ القطن!». عدَّل طربوشه فوق رأسه البيضوي، مَسَّد شاربه الدقيق، ومسح كلًّا منا بنظرة ثقيلة، بهدوء لا يأبه لعصبية الحاجّ بكر، الذي كان يفرك في جلسته ويضرب الأرض بعصاه من حين إلى آخر.

أكمل: «فوائد النبتة أنها توفّر المجهود والوقت، وما ترهقش التربة زي القمح والقطن! إنما بتعطي فرصة للفلَّاح إنه يزرع الأرض طول السنة، وهذا يا إخواني كلام موجود في المراجع العلمية ومطبق في المعامل والحقول».

بدأ البعض في المصمصة إعجابًا بالكلام، بينما صمت معظمنا يحاول فهم ما يُقال. أكمل: «الأهمّ في الموضوع -وقد أُخطِر العمدة- أنّ الحكومة قرَّرت أنّ السعفور هيكون النبتة القومية للبلد!».. ابتسم ووضع سبَّابته أفقية على شفتيه، «حتى أنّ هناك مطالب بوضعه على العَلَم!» صاح الحاجّ بكر: «عَلَم البلد؟ أنت انضرب نافوخك يا وله؟ يحطّوا فجلة ع العَلَم؟!».. ضحكنا، وقال الحاجُّ مرزوق: «اللّه يجازيك يا حاجّ بكر!»، صاح العمدة: «جرى إيه يا بكر؟ ما تتلمّ يا أخي، هو ما حدش عاجبك؟!».

فانتفض أبا الحاج بكر: «احترم ذاتك يا عمدة، وبُصّ لحالك أنت، عاوز تسلّم الأرض للأفندية يخربوها؟!».

«وأنت إيش دَرَّاك يا بكر؟ دول أفندية زُرَّاع، متعلّمين الزراعة أحسن مني ومنك!».

قام الحاجّ بكر يضرب الأرض بالعصا: «لاءا! لاءا يا عمدة، الأرض ما يزرعهاشي إلا فلَّاح ابن فلَّاح! أمَّا اللفندية دولي.. جاتكم وَكْسَة!»

صاح العمدة: «يا بكر يا أبو إسماعيل...».

«بلا بكر بلا نيلة.. وبعدين فين النيلة الحكومة اللي ناوية تزرع بوز الغراب ديه؟!»

فقام الدكتور مِحِمد أبو أسعد ثانية وأشار إلى صفّ الأفندية: «الأساتذة أصدقائي من المحلّيات ووزارة الزراعة، وهيأكّدوا كلّ كلامي يا حاج بكر».. شجَّعناهم على أن يقوموا ويؤكّدوا الكلام، فقام أحدهم، أفندي قصير، نحيف، بذلته واسعة، ويضع نظّارة دائرية، قال: «أنا مَحمد أفندي عبد الحليم، مندوب وزارة الزراعة بمركز سرمنت الكلوك، وحاضر هنا في كفر أبو الدهب لأؤكّد كلّ ما قاله الدَّكتور مَحمد أسعد، وأؤكّد أنّ الحكومة ستدعمكم مئة في المئة!».

صاح أحد الفلَّاحين: «يعني الحكومة هتشتري محصول الزعفوري ديه؟!».

ابتسم عبد الحليم أفندي: «طبعًا طبعًا طبعًا، نصف المحصول تصدير، والنصف الآخر اكتفاء ذاتي، وبأعلى سعر في السوق: اتناشر جنيه للطّنّ!». هلَّل الفلَّاحون وأنا معهم: «اللّه أكبر، اللهم صلّ على النبي، تحيا السعفور، يحيا الدَّكتور مِحِمد أبو أسعد!». مَن يشتري بهذا السعر؟ طُنُّ القمح بخمسة جنيهات، والنارنج قد يصل إلى سبعة جنيهات في الموسم، والقطن أربعة

ونصف! هذا المحصول كنز! ضحك العمدة، وابتسم الأفندية، وصافح الحاجُّ أسعد أبو سليمان العمدة، وربت على كتف ولده. وهلَّلنا.

وقف الحاجُّ بكر أبو إسماعيل مذهولًا، لا يصدّق أنَّ الفلَّاحين يرقصون أمامه ويهزُّون أَلْيَاتِهم، وتزغرد نساؤهم، اصفرَّ وجهه؛ بهذه السرعة وافق الفلَّاحون؟ نظر طويلًا إلى الحقول محنيَّ الظهر، ثم دار فجأةً وذهب.

تسلَّمنا البذرة، صغيرة تشبه القمحة، أو أكبر قليلًا، زرعناها، كلُّ القرية زرعتها، بدأ الموضوع تدريجيًّا، لكننا كلَّنا زرعناها، أما الحاجُّ بكر فقد زرعها قمحًا، وزرع حول غِيطَانه بنادق طويلة، إذ تنغرز كلُّ واحدة من دِبْشِكها العريض في الطين، فتنتصب نحو السماء سُودًا يَشُوبُها حَمَار صدئ خفيف. بعد حين، تحوَّلت غيطان الفلاحين إلى اللون القرمزي، نبتت شتلات قرمزية، أوراق طويلة مثلَّثة مرخية إلى الخارج، جوار بعضها البعض، كلُّ حزمة من الأوراق تشبه أوراق الفجل، لكن قرمزية، قال الأفندية إنَّ تحت كلّ حزمة أوراق ثمرة تامَّة كاملة من السعفور.

خرجت أول ثمرة من غيط الحاجّ توفيق أبو شعبان، كانت تشبه قُلْقَاسَة قرمزية نحيفة، لها رائحة الذرة، شَقَّها أمامنا بسكين البطّيخ، فكانت كالبيضة المسلوقة من الداخل؛ بياض كثيف، وصفار في المنتصف يشبه الليمون، أكلنا، وكانت أحلى بكثير من اليوسفي والنارنج، كانت كالشهد.

اشترت الحكومة المحصول، وغرقنا في المال، وظلَّ الحاجّ بكر أبو إسماعيل يبيع القمح في أسواقه من دون خسائر، وظلَّت الأرض تعطي سعفورًا طَوال العام، والموسم لا يستغرق شهرين حتى يبدأ من جديد من دون توقُّف. وأَلِفْنا لون الأرض القرمزي، وشاحنات الحكومة العملاقة، والأفندية الكثيرين الذين جاؤوا من كلّ المدن يدرسون المحصول ويراعون التربة. بعد ذلك عندما انقضى العام، ظهر الماحور!

بعد الدورة السادسة من المحصول، بعد حوالي عام، خرج الحاجُّ توفيق أبو شعبان يصرخ، يولول كالنساء عند رأس غيطه، تجمَّعنا حوله، وقد أقبلت من حقوله رائحة جبن عفنة. وجدنا أرضه مكسوَّة بطبقة صفراء متجلّطة تشبه المحارة الخشنة، صرخ: «صحيت الصبحية لقيتها عفّنت وضربت! يا خراب بيتك يا توفيق! أرضك راحت يا حزين!». وصل المسؤولون من الوزارة، عاينوا الأرض، وقالوا إنه مرض عُضَال قد ضربها، ثم اشتروها من الحاجّ توفيق بمبلغ كبير، ورغم ذلك رقد في بيته مريضًا. حاطوا أرضه بسور من الطوب، وانصرفنا نحمد اللّه على العافية.

يومًا بعد آخر، انتشر العفن الأصفر، أَسْمَوْه الماحور، أرض بعد أرض، والحكومة تعوّض الفلاحين، وتُسَوّر أراضيهم، تعالجها كما يقولون، لكن بعد

حين، فقدناها. غطّى الماحور أرض مِيت أبو الدهب، حتى وصل إلى البنادق حول حقل الحاج بكر - التي نمت وتدلَّت من فروعها فُوَّهات معدنية تهدّد صامتةً - وتوقَّف. ظلَّ القمح يهتزُّ دون قلق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخرائط

- غبار أسود حملته الرياح الغربية بمناسبة الخريف هذه المرة، «كل عام وأنت بخير يا والدي». كنا في السيارة، عالقين منذ يوم تقريبًا في العاصفة، خرجنا من الوكالة معًا، ومن حينها نبحث عن المنزل. كان شاحبًا، ضجرًا، يراقب الذرَّات السود تنقر الزجاج بوقع مربك، كآلاف النمل تطرق أبواب مدينة فارغة..

- شباب هذه الأيام شباب بارد، لا يأبه لأيّ شيء على الإطلاق، خنازير متبلّدة، الدنيا تنقلب على بطنها أمامه، سالمة مستسلمة، فيهرش ظهره بدلًا من أن يأتيها ويقول: «أنا مش فاضي، ورايا مصالح!». ولو ظللتَ تفكر أيّ مصلحة تشغله، لن تجد سوى قصبة نارجيلة يمصُّها، أو بنت تلفانة يلاعبها بكلامه، أو لوحة زرائر يظلُّ يصبعها كالمأبون، وشاشة تسحب عمره خلفها كالبهيمة. وكالعادة، الأب منَّا قلبه خَرِع، يورد نفسه المهالك إذا اعتمد على ابنه أو بنته. الدنيا مضطربة من البارحة، وغضب اللّه يطرق العالم منذ أسبوع، وأحذّره، وألِحُّ عليه، وأعيد وأزيد، وأسبُّه، وأصايحه، «يا بني اخلص عاوزين نروح، لو تأخَّرنا هنبيَّت في الشارع!»، وهو يماطل، أنصحه وأحكي له كيف أني أُعِدُّ لكلّ شيء عُدَّته قبلها بوقت مناسب: «يا بني دا أنا بحضَّر فطاري قبلما أنام. يا بني دا أنا بمسح مداسي كل ليلة. يا بني دا أنا بحضَّر هدمة الصبح قبلما أركع العشا». وأضرب له الأمثال، وهو يماطل: «حاضر يا والدي. حاضر يا والدي».. وها أنت أهلكت والدك.

- لم يعد الجوُّ يناسب الناس أصلًا. لذلك فإنهم يرتحلون إلى العالم الجديد، يقولون: هناك كل شيء مريح، لكننا دائمًا نسمع من أيّ أحد يرتحل إلى أيّ حي أو مدينة الكلمة نفسها: «هناك كل شيء مريح!»، وكأنَّ الناس يكتشفون فجأةً أنهم غرباء عن مدنهم وأحيائهم وشوارعهم التي وُلدوا فيها، وأنَّ الوطن أسماء جديدة تلمع في الإعلانات، وعلى أوراق الدعاية المقوَّاة الملوَّنة بمخطَّطات مدن جديدة، كلُّ شوارعها متشابهة، وكلُّ بناياتها متشابهة، لأنَّ من سيقطنها أناس متشابهون. لكن الميزة الوحيدة التي أراها في موضوع العالم الجديد هذا هو الهواء النظيف، فالنهر، أطال اللّه عمره، ماؤه من بولنا، وماؤنا من بوله! والطعام، يسدُّ الجوع والحمد للّه، أما الهواء! فالإنسان يحتاج إلى الهواء قبل كلّ شيء كي يعيش، وغريب أنَّ أيَّ حكومة تدع العواصف تضربنا كلَّ حين وآخر، فتكتم أنفاسنا، وتخفي البيوت، وتمحو الطرق، فلا نستطيع أن نقصد مصالحنا أبدًا، وها هو شيخ جالس في البرد والعواصف، ينتظر أن نجد أي معلم يرشدنا إلى المنزل. تُراه ضجر من البرد، أم مِن تقلُّصات ظهره، أم من حَصْر البول، أم من أيّ شيء؟ «كل عام وأنت بخير يا والدي»..

- لم تكن سوى أرطال من كلّ صنف خضروات؛ رطل بطاطس، رطل طماطم، رطل خيار، رطلَيْ كوسى وهكذا. قديمًا، كنت أذهب لأشتري كلَّ تلك الأشياء من السوق في ربع ساعة، وبربع جنيه أيضًا، أما الآن! فلا بدَّ أن نسافر إلى السوق قبلها بيوم، ونعود بعدها بيوم، وهذه الريح العقيم لا تدع أحدًا في حاله، إنها تقتلنا، كلَّ حين، تأتي، فتقبض الألوف بذات الرئة، ثم تكسو المدن، فلا تدري أين يصبح بيتك غدًا، ثم تأتي النوبة التي تليها، فتَرُدُّ الكَرَّة، ويصبح البيت في حي جديد، أو مدينة جديدة، تجبرنا كلَّ مرة أن نتعرَّف إلى ناس جددٍ، جيران أحطّ ممَّن سبقوهم، وإلى شوارع جديدة، أكثر قمامة وروثًا، وموظَّفي حيّ جددٍ، وإتاوات جديدة، ونظم جديدة، وأيام غير منضبطة، العلج فيها رئيس، والحرُّ فيها تعيس، حتى هذا المخروب لا يفيد في توجيهنا، يكرّر، يسارًا بعد مئة متر، ثم يمينًا، ثم يسار اليسار، فنجد أنفسنا في محلَّة الوكيل، أي أربع ساعات سفر من منزلنا! وكان هذا كلُّه سينتهي لو أنه استمع إليَّ ونزل معي مبكرًا لنشتري الخضر، لَكُنَّا الآن نأكل مع أمه وامرأته، لكنَّه «معلقوز» أصيل لا يسمع الكلام. ها نحن وسط العاصفة، لا ندري أليل هو أم نهار، أم أين نحن من العالم، ولا كيف سيكون العالم بعد العاصفة، وأيَّ مدينة سيصبح فيها بيتنا، وأيَّ حكومة سنتبعها، وأيَّ قوانين سنسير عليها!

- هل تراه غضبان؟ حقُّه واللّه! مَن منَّا لم يغضب حتى مات غضبه؟! لكن ليس لهذا الغضب أيُّ شأن في النهاية، إننا نغضب كي يحترم مَن حولنا مشاعرنا فقط، أما بمقدور أي شيءٍ أن يغيّر أي شيء؛ فلا أعتقد، هذا زمن انقضى، هذا زمن المأوى، مَن حفظ موضع البيت، ومَن امتلك أحدث الخرائط، فهو الناجي الوحيد، هو الملك! نعم، هو الملك ولا ريب، فمن غير الملك معه كلُّ الخرائط، قبل وبعد أيّ عاصفة، من يوزّع الشرطة والأحياء والبلديات؟ الملك ولا أحد غيره، وكلُّ ملك يتبادل مع الآخر الخرائط عندما تتغيَّر الأرض بعد العواصف، والأقوى هو من يستحوذ عليها جميعًا، فلا يحتاج من الآخرين إلى شيء، بل يضمُّ ما يشاء كيف شاء، والآخرون يراقبون الأرض تتآكل منهم، فلا يعرفون كيف يفعلون، ويرفعون أكفَّهم بالدعاء أحيانًا، استجلابًا للعاصفة، كي تغيّر الخرائط، وتبدأ الكَرَّة من جديد، لعبة، لعبة أوراق ممتعة، يربح أحدهم تارة، ويلفُّ الربح والخسارة بينهم، ويفوزون جميعًا بالمتعة، ونفوز نحن بالتيه والجدب وذات الرئة! يبدو أنه غاضب جدًّا.. «يا والدي يا والدي»..

- «خير خير، عاوز إيه ع الخرابة اللي احنا فيها دي؟ يا والدي يا والدي يا والدي، ماليش بزّ أنا عشان أرضّعك»..

- أضحك، إنه غاضب جدًّا..

- «مانت لو كنت سمعت الكلام ونزلنا بدري، كان زمانا رجعنا البيت، وكانت أمك رضعتك ولا مراتك...» يضحك البارد..

- أضحك، «آسف، آسف يا حاجّ، كلّ دا بسببي؟! ظنّيت أنّ الجو هو السبب!»..

- أنا أنجبت «خوازًا» باردًا ليس إلّا! «الجوّ؟ أيّ جوّ يا بني؟ أيّ جوّ، ما هو البلا الأزرق دا إحنا فيه من زمن، إنما قل لي هنروح إزاي؟ بقى لنا يوم راكنين في الشارع وسط العفرة دي!»..

- أنظر من الزجاج، والظلمة لا تكشف هل سوادها من الليل أم من الغبار؟ وتَغيّظ الريح ونقر الذرى يُطبِقان فوق الظلمة ظلمة، «يا والدي، هتهدا، هتهدا الآن»..

- أسوأ ما في هذا الجيل، هذه الإجابات المسكنة، حاضر، نعم، ربنا يسهّل.. إلخ، استسهال، جيل غير مفطوم.. «يا بني من امبارح وأنت بتقول هتهدا، ولا هديت ولا نيلة.. ولو هديت، هتلاقيها ليّلت، والعساكر مالية الشوارع تلمّ فينا!»..

- وهذا أسوأ ما في الأمر؛ أن تنفجر قنبلة في نواحي باريزوم، فتقبض الشرطة هنا على بعض الجبتيين شكًّا فيهم، وتملُّقًا لملك الفرنجة. يُطيح انقلاب بالسلطان التركي، فيُعتقَل الجبتيون نكاية في السلطان وأتباعه. يخفق الانقلاب، يُعتقَل الجبتيون الذين عارضوا اعتقال الذين من قبلهم وغيظًا من نجاة السلطان، تنفجر نصف، ما كان قبل العواصف يُسمّى حيّ جبت القديمة، ويموت مئات الجبتيون، فيقبضون على رجل صغير، ويقولون دبَّرها بنفسه، والناس يأكلون المخلَّل ويعيشون، ولا أحد سيفكّر، المهمُّ أن تجد طريقة لتصل إلى المنزل، وجدته في نواحي لوندرة، نواحي بون، نواحي ليبيريا، أينما تجده فلا فرق، ستفقده اليوم التالي للعاصفة التالية، وسيحكمك ملك جديد مثل الذي قبله، بشرطة جديدة كالتي قبلها، إنه كما يقول هذا الشيخ: «عالم واحد وسخ!».

- «ما بتسمعش كلام غير كلام الستّ بتاعتك، روخر أنت نايم دايماً ما تفوقش أبدًا!»..

- أضحك. زوجتي!؟ كثيراً ما سألت نفسي، ألم يكن خطأ كبيراً أن أتزوج في مثل هذا الوقت؟ أيام الخطوبة كنت أنظر إليها في إشفاق، فأحبتني لأنها ظنت أنني ملهم بها من نظراتي تلك، كنت أقول في نفسي: ماذا لو تحوَّلت الأرض وصار بيتنا في الشام؟ من يحميها من طغاتهم أو طغاة المجوس؟ من يحميني أنا لو ألقاني الطاغوت الجبتي في الجُبّ؟! ومن لها بعد أن أذهب؟ النساء هي المدن الوحيدة الآن اللاتي لا يتيه أحد كي يصل إليها! يكفي الجنديَّ الواحد أن يجد الواحدة فيعتقلها، هذه هي خريطتها، وليستطعْ أحد منا أن يصرخ! فما أبخس الأرواح، وما أبخس الرصاص!

- «أيام ما يعلم بيها إلا ربنا.. كان الواحد يقوم من النسيمية عشان يلحق قطر الساعة تمانية، وتلاقيه في جبت الساعة عشرة، تنقضي المصلحة، ونرجع البيت على الضهرية.. أمَّا العيشة السودة دي، خربتوا الدنيا، وربنا نزّل غضبه علينا بسببكوا.. جيل فقر..».

- أضحك، حتى أشجّعه فقط على الكلام؛ فالجدل لن يفيد، وكلامه هذا لو سمعه بَصَّاص؛ سيوصي له بمكافأة، فما دمنا نحن سبب العاصفة فالكلُّ آمن، رغم أنهم يعرفون جيّدًا أنَّ اللّه لم يغرقنا بطوفان الرمال كلَّ حين بسببنا، إننا ولدنا عندما كانت الرياح تنقل بيوتنا بين مدينتين فقط، أما ما يحكيه أبي وكلُّ الآباء الكرام أن كلّ بيت كان في مدينة، وكلّ مدينة لها موقع؛ فهذا أغرب من الخيال! أنا لم أصدقه رغم أنهم ذكروه لنا في كتب الدراسة، ومن يصدق كتب الدراسة؟ لقد كانوا يذكرون أننا هزمنا الروم يومًا ما، كذب في كذب، لا يجد الواحد منا طعامه ولا بيته، ثم يقولون هزمنا الروم! عندما يتعسَّر على ملك الروم الوصول إلى مدينة، يجمع حكّامنا جميعًا، ويأخذ منهم ما يشاء من الخرائط التي يريد، ومن يستطيع منهم أن يعترض؟! فما أبخس ملوكنا، وما أبخس أرواحنا والرصاص! «يعني يا والدي، كل دا عقاب ربنا؟!».

- «ويكون إيه غير كده، شوف! إحنا الوقتي عاملين زي بني إسرائيل؛ لما خالفوا النبي، تاهوا، وأدينا مش عارفين نوصل حتى بيوتنا، مش الأرض المقدَّسة، وده معناته إيه؟ أنت عارف؟».

- أبتسم، «إيه؟».

- «معناته إننا كلاب ولا نسوى، لما بني إسرائيل يتوهوا عن الأرض المقدَّسة، وإحنا والبشرية كلها داك الحين مش عارفين نروح بيوتنا، معناته إن العالم كله بقى في وساخة بني إسرائيل، شفت خيبة أسخم من كده؟! ربنا يعفو عنَّا!».

- أبتسم، وأضيء مصابيح السيارة الداخلية والخارجية، وأستمع إلى صراخ الريح في الخارج، وأتخيَّل ملائكة عماليق، يحملون الجواريف ويُهيلون الرمال علينا، يدفنوننا أحياء، أو يدفنوننا، فلا فرق الآن بين ميت وحيّ؛ كلها أجساد كالبيادق، كلها أجساد صرعى، ونحن نمشي جماعاتٍ وفرادى، نضيء الخرائط بالكشَّافات، ونحاول أن نقرأ منها شيئًا، والرمال السود تنهال علينا من كلّ ناحية، تَخِز وجوهنا وعيوننا، فنتوه من العمى، ونتوه من تشوُّه الطرق، المصابيح الأمامية لا تفعل شيئًا سوى أنها تحيل الثرى الأسود إلى أشباح غاضبة، تصرخ للتبرُّؤ منا، أحسبها تقول: «إننا لا نمتُّ إلى البشر بشيء، ما دامت الحفنة منا قد تحوّلت إلى واحد منهم، فلم نعد نعرفه، إنه خائن، من الأرض ومزْق الأرض»، ثم تنوح، تنوح بصفيرها المعروف المرعب.

- يشرد! تراه تضايق مني؟ إنه مخطئ، ولا بدَّ أن يفيق من غفلته تلك، إنه مسؤول الآن، وأنا رجل كبير، هممم، «عارف يا وله؟ صفيرة الهوا دوكها، بترجّعني أربعين، خمسين سنة ورا، كنا نتلفّ جنب الفرن، والسبارتيا وَسطينا، يقوم بقى الواحد يسرح مع كركبة الهوا دوكها، وكان هوا شديد بس نضيف، وكانت ستَّك اللّه يرحمها تقعد تضحك وتهزّر معانا، وأبويا اللّه يرحمه ممدّد ع الكنبة ومتلكفت بلحافين، وهاتك يا ضحك على نكت أمي وتريقتها علينا، كانت أيام! كنا فقرا وعزّنا في أرضنا وبس، الوقتي زيّ ما انت شايف؛ لا عارفين ناكل، ولا عارفين ننام، اللّه يسترها معاكو يا بْني».. ربت على فخذه، لعلي أخفّف عنه، صحيح أنه معلقوز، لكن قلبي كذلك، وليسترها اللّه معنا جميعًا.

- أبتسم، وأفكر: من أربعين عامًا أو خمسين كان الناس يعيشون في بيوت ثابتة، داخل قرًى ثابتة، حول مدن ثابتة، تابعة لدول وحكومات ثابتة، وكانوا يضحكون، ويأكلون ويشربون الشاي، ورغم ذلك أقاموا حروبًا، وقتلوا كلَّ هذه الأشياء، ثم استهلكوا كلَّ ما تبقى من العالم، وتركوا لنا الآن الرمل والغبار والثرى والعواصف السود! وعالمًا لا حدود فيه بين البشر، والأرض كتلة من الحُمَم، تتشكَّل كلَّ يوم كيفما تشاء، ونظلُّ حائرين، نظرت إليه: «أنت مش شايف يا والدي لو بقينا جميعًا، البشر كلّنا يعني، تبع حكومة واحدة، وملك واحد، بما أن يعني الأرض ما عادش لها شكل ثابت، فاللي للحبش اليوم بكرة يكون للجبت، اللي للجبت اليوم يكون بكرة للبربر وهكذا، أنت مش شايف لو حكمنا راجل واحد، بحكم واحد، مش نرتاح برضه؟!».

- هذه الأجيال تقول دائمًا كلامًا غير مفهوم، وتتخيّل أوهامًا تصيبها بالبلاهة، وتصيبنا بالضغط والسكري! «ملك واحد إزاي يعني؟ ملك الروم مثلًا ولا القوزاق ولا الفرس؟ أمَّا عجيب أمرك واللّه يا أخي!» أدمغة خربانة بنت كلب.. «إذا كان ميتين حكومة مش عارفين يمشُّوا الدنيا، هتيجي حكومة واحدة تلمّهم؟!».

- «طيب، والحلّ يا والدي؟».

- «الحلّ؟ وهو أنا ولا أنت مين عشان نحلّ؟! دوكها الملوك قاعدين معاهم الخرايط ولا عارفين يمشُّوها ولا نيلة! الموضوع خرج من إيدين البني آدمين يا بني! تعرف لو مَسَّكناها لحمار، جايز ربنا يرحمنا بطيبة الحمار داهون؛ لأن الحمار هيراعي ربنا فينا، وهيبقى عارف شغله! لكن الأسخم من كده، إنّ الحمار، اللي هو حمار، مش هيرضى يمسكها، ولا بكنوز الدنيا؛ عشان إحنا اللي بهايم، وهو اللي بيفهم!».

- «نعم».. وشردت في الرمال الدوَّارة مرة أخرى، وتخيَّلت إنسانًا عملاقًا برأس حمار، يسير وسط الأرض متكئًا على عصًا طويلة، ينقر بها الأرض بتُؤَدَة

وانتظام، وتتردَّد النقرات في صدًى مَهِيب وسط زمجرة الرياح، فتصمت البشرية كلُّها وترفع الرؤوس لا ترى سوى جلبابه العظيم، يخرق الذرى، والعيون رغم ذلك مندهشة، النقرات وسط الرياح، مرعب، وعيناه السوداوان تنظران إلى الخلائق، فتستفزُّه حسرتهم وخوفهم، فينهق نهيقًا طويلًا، عميقًا، فيرتجفون، وتتحلَّل الأرض من تحتهم، فتفرُّ الرمال المشتاقة إلى باطن الأرض، ونغرق في الرمال، هكذا تكون الرمال المتحرّكة، وتتعالى الصرخات: «ها نحن نغرق في الرمال بعد الظلمات، قد كانت الأرض واحدة، نسعى فيها كيف نشاء، لكننا فضَّلنا الحواجز، وبعث لنا اللّه الرؤيوان، وأغرقنا بالرمال فأعادها واحدة كما كانت، لكن على الصورة التي نكره!».. نُقِر على الزجاج، فانتفضت، وصاح أبي:

- «إيه ديه؟ هو في حد خبَّط ع الإزاز؟!».

- أشرت إليه كي يهدأ، وأنصت، فنُقِر مرة أخرى..

- «إياك تفتح، شيطان مين يخبّط الساعة دي؟!».

- «لكن يا والدي، لو كان عسكري وما فتحناش، هيضربونا بالرصاص».

- «حيرة إيه دي يا ربي؟!».

- أغلقت النور الداخلي، والنقر لا يتوقَّف، أنزلت الزجاج برفق، بينما غطُّى أبي وجهه بالشال، اندفعت الرمال كالرَّصاص، والريح زفرت في السيارة كأنها لا تجد متَّسعًا لها في السماء والعالم، صاح أبي، وصحت: «من أنت؟!» فجاءتني تمتمة لا تبين..

- «مين؟ مين اللي بيخبّط؟ اقفل الإزاز، اقفل اقفل!».

- صحت: «أنت مين؟ أنت مين؟!» ولم أعد أرى شيئًا، وبدأ أبي بالسعال، والذرى ينقر على الزجاج ومعدن السيارة من الداخل «أنت مين؟!» فظهر صوت ضعيف: «افتح، افتح».. فأغلقت الزجاج، وفتحت قفل الباب الخلفي»..

- «أنت بتعمل إيه يا بن الهبلة؟!».

- وما إن رفعت القفل إلى أعلى، حتى فُتِح الباب، وانزلق في المقعد الخلفي شخص ما، أغلق الباب بسرعة، شهق، ثم زفر، ثم شهق وزفر من دون أن يردَّ على صياحنا: «أنت مين يا حضرت؟!». فتحت النور، وأبي مصفرُّ الوجه من القلق والاستعداد للعراك، فوجدت رجلًا ملثَّمًا، وله أذنا حمار، تجمَّدت، وجلست في المقعد، يداي متصلّبتان على عجلة القيادة.

- «ده إيه دي؟! دا باينه واحد مخبول يا وله، يا حول اللّه! أنت مين يا بني؟ وأنت عامل في نفسك كده ليه؟! أنت مين ومنين؟!» أنظر إلى الولد: «هو ما

له يا بْني، شوف مين ده، خلصنا قاعد متسمّر كده ليه؟!»

- «ودانه؟!» همست.

- «ودنه؟ ما لها ودانه؟! دي طاقية يا عبيط!».

- «لا يا والدي، دا الحمار اللي كنت بتتكلّم عنه من شوية؟! دا الملك الجديد، ملك العالم، وهيغرّقنا في التراب بصوته؟!».

- الحقيقة، لقد فزعت، هو رغم كلّ شيء ولدي الوحيد. وأن يقول مثل هذه التُّرَّهات، في هذا الوقت بخاصة، شيء يقلقني، بل يخيفني، صحيح أنه يهذي كثيرًا، لكن في المعقول وليس هكذا كالمجاذيب، سألت الرجل: «أنت مين يا بني وعاوز إيه؟ خلّصنا وحياة أمّك». فتنفَّس من فمه مرتين، وقال في نشاط عجيب: «أبيع فَلَّايات مناديل ليف قصَّافات مقصَّات صابون مكن حلاقة...»، نظرت إلى الولد، وجدته متسمّرًا وجبينه عرقان، ضحكت: «شفت الأهبل، طلع بيَّاع فَلَّايات ونتَّافات ومقصَّات»..

- تنفَّس من فمه مرتين قبل أن يقول: «كانت الأرض دائمًا كرة واحدة في يد الخالق، ماؤها وعشبها ولحم بهائمها وفير، انتظر كلُّ شيء الإنسان، فلما هبط، واستقام له كلُّ شيء، تجبَّر بكلّ حماقة وصلافة، كسر الشجر، وأحرق البيت، وحجز النهر عن أخيه، وبنى الحواجز، وحاز الأرض يمنع ويطلق فيها كيف يشاء، حتى بات العالم دُوَلًا بأسوار، يمتنع أحفاد نوح فيها عن زيارة أبناء أعمامهم إلا بالأذون، ولا يجتمعون سوى في الوديان كي يستردَّ أبناء القتيل الأول الأرض من أبناء القاتل الأول. ولما بات العالم غارات، قضى الخالق أن يرسل عليهم نَوَّات الرؤيوان؛ تُنبئهم أنَّ الأرض له وحده! وأنهم مهما عرفوها، فإنه كتب عليهم فيها التّيه العظيم، الذي يجبر الناس على النوم في الطرقات، حيث الطين والتراب والسَّبَخة، حيث أصلهم، وممَّا يخرجون!» نظرت إلى أبي، وكان يضحك..

- «ما لك يا وله خلقتك اصفرّت ليه؟ ها؟ أجيب لك فَلَّاية، ولا خِلَّة تسلّك بها أسنانك بعدما تاكل الخضار البايظ اللي جبناه م السوق؟».. أضحك وأسأل البائع الجوَّال: «قل لي يا بلدينا، أنت اسمك إيه؟» فتثاءب، وقال: «سيّد يا حاجّ، هتشتري حاجة؟ ورايا شغل ياما، وعاوز أروّح قبل ما الليل يحضر!».. نظرت إلى الولد، كان يحدّق إليَّ مصدومًا، سألت السيّد: «يا سيّد، أنت عارف إحنا فين؟ قل لي أنت منين صحيح؟!» فتثاءب مرتين وقال: «من محلّة كفر عبده، وإحنا الوقتي في صَحْرة السلوم».. يا نهار أسود! ضربت الولد على كتفه: «سمعت؟! سمعت يا بن الفالحة قال إحنا فين؟! يا منجي م المهالك يا ربّ! إحنا في السلوم يا عالم!».. وضع السيّد وجهه في نافذته وردَّد: «أبيع فَلَّايات مقصَّات قَصَّافات ليف...».

- نظر من نافذته وقال: «حان الوقت يا بن آدم الأخير، أن تحمل التَّرِكة وتأتي إلى الخالق من دون تأخير، فأرضُك دمَّرتها، وسماؤك غبار، ولا مقام لك سوى أرض البعث!».. كان أبي يصرخ ويسألني هل سمعته، فقلت: «آه.. سمعته أنت؟».

- لطمت من همّي، وقال أبي: «سمعته يا حبيب أمّك، سمعته.. إحنا في السلوم»..

- «لا يا والدي، إحنا في أرض البعث»..

- «آي.. قلبي.. قلبي!».. ألم في صدري شديد، هذا الولد سيقتلني، هذا الولد..

- «أبي، أبي».. نظرت إلى الرجل، سألته وقلبي ينخلع «يا.. يا.. يا.. ممكن تساعدنا؟ الراجل مريض!»، فقال: «لكلّ أجل كتاب، فإذا جاء أجلُهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».. ارتجفت، وبكيت..

- «ها ها ها.. يوه يا سيّد، يقول لك ساعدنا، تقول له أبيع فَلَّايات ومناديل؟! يا واد شوف لنا شربة زنجبيل ينوبك صواب!».

- بكيت.. سكرات الموت.. هذيان الموت.. «فَلَّايات؟ فَلَّايات»..

- «آه بتقول له ساعدنا قام قال لك فلايات هاهاها... يخزي شيطانك يا سيّد»، فضحك السيّد، وأخرج أمشاطًا ومقصَّات وقوارير عطور، وأقمشة بيضًا..

- بكيت: «أنت حانوتي؟»..

- «هاهاهاها.. تصدّق أنّ لسّه فيك عقل يا وله؟ صحيح عدَّة حانوتي دي يا سيّد مش بضاعة سريح زي حالاتك.. هاهاها.. اوعى يا واد عني أنا بقيت كويس».. جلست..

- نظر إليّ، وجهه ملفوف بقماش أسود لا يظهر شيء منه، أذنا حمار فقط من أعلى رأسه، قال: «هذه أمانتكم عندي، هذا ما تبقَّى لكم».. ثم نهق! فصرخت..

- «جرى إيه يا بني بتصرخ ليه؟ الراجل بيقول لك اشتري منه فَلَّايتين وهيدّيك واحدة هدية ومعاها توب أبيض ومسك من الحرم! جرى إيه يا بني ما لك؟!».

- عاد يهذي، سكرات الموت مراحل، ينقطع هذيانها ثم يعود، أمسكت بيده، شعرت أنه شعر بخوفي من الحمار أخيرًا، فمدَّ ذراعه وسألني بوجل:

- «ما لك يا وله؟ أنت بترتعش كدم ليه؟!» كان باردًا، باردًا مثل برودة كفّ أبي اللّه يرحمه! «أنت تعبان يا وله ولّا مالك؟!».. جسست رأسه، عرقان وبارد، سألت سيّد: «معاك أي برشامة يسفّها؟ شكله عيّان!»، فقال لي: «أبيع

فَلّايات مقصَّات مناديل.. حد عاوز مناديل؟»، فصرخت فيه: «يا جدع بقول لك برشام برشام..» لكن الولد قام فجأة، ونظر إلى سيّد، وقال:

- «طب نروح للعالم الجديد منين؟ ليَّ ابن خالة في أفروديتا، هتّصل بيه يسهّل لي الأمور»..

- «يا وله أنت انهبلت؟! ابن خالتك مين؟ دا عيل سلبيان...».

- «وعندي صديق في زاراتيشا.. قل لي، إيه رأيك؟».. فنهق، ونقر على النافذة..

- «إيه ده يا وله؟ دا عاوز يمشي ولا إيه؟ جرى إيه يا سيّد؟ هتروح فين يا ولدي؟ محلّة كفر عبده فين والسلوم فين؟!».

- نقر، وفتح الباب، فضرب الذرى وجوهنا، فانكمشنا داخل الكراسي، رؤوسنا نحميها في ظهورها، قال قبل أن يخرج: «بيتكم بعد الناصية اليمنى، الزموه ولا تخرجوا، لن تتوقَّف العواصف بعد الآن، والرمال ستدفن الجميع، وتتشكَّل الأرض مرة أخرى بلا حدود، ستعود الأرض بِكْرًا، لن يلوّثها لغط الإنسان وكذبه، فليست قرية صغيرة يقتسمها الناس بالدروع والحواجز والبارود كما يدَّعي، بل عالم كبير، فيه كلُّ الحياة.. أبيع فَلَّايات قَصَّافات مقصَّات أكفان وعنبر»، وخرج وأغلق الباب..

- «.. قال إيه يا وله؟ ما سمعتش؟».

- «ما قالشي، تقريبًا زيّ ما انت قلت، فَلَّايات ومقصَّات».. ثم أدرت السيارة..

- «إيه ديه؟ إحنا هنمشي في الوحلة دي؟».

- «إحنا وصلنا يا والدي.. إحنا مش شايفين بس من التراب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التَّنابُت

لا يعرف.. لا.. لا يعرف أحد هنا الوقت، سوى.. سوى من دقَّات العقارب في العظم المنـ... منـ... منخور. آه يا عظامي، البر... البرد، والرطوبة، استعارتان عن فصول الجوّ، فهما ما تبـ... تبقَّى تبقَّى من الشعور، فالجَرَب والقمل والجَلْد والفَلـ... الفَلَكة، هي ما تبقَّى من الشعور، بل هي هي المشاعر كلها. وأحبُّ سماع النسيم بين الحشا... الحشائش في الخارج، هو من ذكريات الجو الجو، لمَّا كان يبرد ويسخن. وكنا - كما أذكر - نقول إنه أربعة فصول، الشتاء والشتاء، والصيف والصيف، والساعة تزيد في الصيف عن الشتـ... الشتاء اثنتي عشرة ساعة كما كما أذكر بالضبط، أنا أنا شاطر، مثل الشهور، ينبض في النخاع الجافّ الآن - آه يا عظامي - الظهر والركبة وأصا... أصابعي، تدقُّ ببطء، تك تك تك، ولا تنتهي، ولا تمرّ، طويلة كخرزانة خرزانة الصول زغـ... زغلول، طويلة ولا تتوقَّف عن الألم - آه يا عظامي، الركب! تمرُّ كسنة، ونجدها - ويا للخيبة - ما تعدَّت نصف ساعة، طويلة، لا تتحرَّك، ثم إذ لحظة واحدة نجد... نجد الساعة لا تدقُّ، لأنها تصبح نتيجة تقويم، بألف يوم أو ألفين أو ثلاثة، ولا يصبح منا في المرآة سوى المراثي، لو وجدنا... وجدنا مرآة. وقد مرَّ، أعني عليَّ، تقويمات كثـ... كثيرة، وأنا أصبحت أفضّل الجلوس جوار الحائط، وحد... وحدي، تحت فتحته الضيّقة، أستمع إلى ما تبقَّى من الهواء النذل الذي لم يعد يمرُّ على الحشائش، النذل يخـ... يخـ... يخـ... يخاف يخاف من الحشائش المسكينة، ويجري بعيدًا عند حقول الفلَّاحين، ويرنو فقط ناحية الحشـ... الحشائش، كأنه يستطلع أخبارها، كأنه يرائيها وكأنه سيزورها، لكـ... لكنَّ الحشائش تجفُّ، تجفّ، آه يا عظامي، وتتكسَّر، وتسامحه لو مرَّ بها نسيم قلقان. ولأني جالس من وقت طويل، يا ظهـ... ظهري، فالهواء كان يمرُّ كثيرًا، قبل أن يطرده الحرس! لم لم يطردوه كما طردوا أبي وأخي في الزيا... الزيارة السابقة، لكن جعلوا يقصُّون الحشائش أمام عينـ... عينه، المناجل صو... صو... صو... صوتها مريع. ولما رأى هذا، كان يعصف ويزمجر، وطارت الحشائش المتقصّفة، ثم أمطرت، ولم يعد مرة أخرى، تمامًا مثل أبي عندما بكى. وبكيت وارتـ... ارتـ... ارتعشت، فقالت خرزانة الصول زغـ... زغلول: لا تحزن، إنَّ هذا كان قطاع نظافة! الحشائش شكلها قبيح خارج السور! طويلة، ومؤلمة، وصوت المناجل في جذورها كان طويلًا ومؤلمًا، كنت أجلس أستمع وأبكي، وأعدّ، لا أعرف أعدُّ الجذور أم الدقائق أم أوراق النتيجة أم المقصوف في الهواء، لكن، ولصدمتي، صمتت المناجل بعد نصف سا... ساعة فقط، وكنت أحسبها عامًا وأربعة أشهر! ففهمت أنني لا أحسن العدَّ هنا! ففهمت أنَّ... أنَّ ما تبقَّى هنا من الوقت هو البرد والرطوبة أيضًا! لذا فنحن نسعل هنا، والسعال فيه عقرب ساعة طويل أيضًا كخر... كخرزانة الصول زغـ... زغلول، يظهر لما يحشرج السعال في الصدر، فيحتفل المصدور ويقول

سأخرج عمَّا قريب، ولم أستطع يومًا أن أحصي المقصوف من الحشائش يوم طردوا الهواء. النذل الذي لم يعد يطمئن، أشـ... أشتاق إليه، حينما أشتهي الوقوف، آه يا عظامي، أقلب سطل البول وأشرئبُّ إلى فتحة الحائط، وأبكي، وأنا أعاتبه: «إخص عليك إخص عليك إخص عليك!»، فيربّت على رأسي فأسامحه، وماذا أبغي سوى أن يربّت على رأسي؟ فأبي لم يعد يأتي، وأخي يأتي كلَّ شهر أو شهـ... شهرين تقريبًا، وليس معي سوى اثنين؛ رؤوف، وهو نائم أو يبكي؛ وقاسم صامت طَو... طَوال الوقت، أما الباقون فلا أعرفهم! فلو حدث وتكلَّموا فأنا أنظر إليهم وأبتسم، فلم يعد يربّت على رأسي سواه إن عاتبته! وأحيانًا يجلدونني ويدعونني في زنزانة وحدي، فأجلس أعيد العدَّ من اليوم الأول، حتى أنام، أو أكتشف خطأ في العدّ، فأعيـ... أعيده، وأخطئ، وأعيد وأخطئ؛ لأنني كلما عددتُ، تتداخل الأحداث في رأسي، وأتوهَّم؛ فأنسى إلى أيّ يوم وصـ... وصلت، فيتهيَّأ لي مثلًا أنَّ الخر... الخرزانة الطويلة تقف تربّت على رأسي، رغم أنني عددت أنها ضربتني آلاف المرات، فيبدو لي أنَّ الصول زغلول يربّت على... على رأسي! فأعدُّ من الأول، من وقت أن استقبلَنا في الاحتفالية الأولى، فأفهم أنني لم أعدْ أُحسِن العدَّ، لأن ما تبقَّى من العدّ هو البرد والرطوبة. آه يا عظامي. وليس فيها من ميزة أن تمكث فيها وحدك، إلا أن تستمع إلى الفئران والصراصير وأحيانًا النمل، الذيول والشوارب الصغيرة وهي تدخل وتخرج بلا قيد، تزقزق: نحن أحرار لأننا لسنا آدميين! وتضحك! فأتجاهلهما وأعدُّ وأنا أبتسم، فأر، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمـ... خمسة، تقول: ليس عندنا بيوت مضاءة حتى نكتئب إذا أُلقي بنا هنا! ستة، سبعة، ثمانية، تسعـ... تسعة، ولو حُصِرنا، حفرنا ووجدنا طريقًا، فأضحك، وأُخبرها أنَّ حسن الهلالي كان كذبًا محضًا، وأنَّ الملاعق لا تحفر، وأنَّ الهروب ليس بسيطًا كما تظنّ، فتصرخ: نحن نتكلَّم عن أنفسنا! فأعدُّ وأقول: وما الفرق؟ عشرة، أحد عشر، اثنا عشر، الساعة الآن الـ ... الـ... الـ...، لا يهمّ هنا كم تكون الساعة، ولا أيّ يوم هو اليوم، المهمُّ ما ستخبره المرآة عمَّا مرَّ من أعـ... أعوام، آه يا ظهري. أحيانًا عندما أكون وحدي في زنزانة، يأتي الصول زغـ... زغلول، ويسند الخرزانة إلى الحائط، ويجلس يرشف الشاي ويتكلَّم، ينصح، يعتذر، يطمئنّ، يَضحك، يُضحك، يقول إنه يرتاح معي في الكلام؛ لأنّني لا أتكلَّم كثيرًا، فلا أقاطعه، ولا أكشف سرَّه، يقول: الرجل مثلنا لا يحبُّ أن يعرف أحد أبدًا عن طموحاته العملية! فهو يريد أن يصير ضابطًا، ولا بدَّ من أن يخدم في... في أكبر عدد من السجـ... السجـ... السجون، يقول: كم أتمنى يا ولد يا شاكر أن أخدم في سجن الجمص البحري! إنه سجن جديد وقريب من البلدة، وفرصتي في التميُّز والترقية كبيرة، ويا سلام إذا التحقت بسجن القنطرة، ثم سجن العموم، ثم سجن الدفاع، دورة واحدة من هذه، وأصبح ضابطًا بثلاث نجوم! فأعدُّ في رأسي عدد الشرائط على ذراعه، وعدد النجوم المأمولة على كتفه، ثم عدد

السجون، والمساجين، والسجحات، والضربات، والخرزانات، والمناجل، والكُوَّات الصغيرة التي يعبر منها الهواء، ثم أسأله كلَّ حين: أتخرجني إذا ترقَّيت؟ فيضحك، ويربت على كتفي، فأعدُّ من اليوم الأول، وهو يقول: لو بيدي يا بُني لفعلت، أنت نبت طيّب، وصالح، لكن قدرك يا ولدي قدرك، اصبر. فأجلس جوار الحائط أصبر، وأنام قليلًا حتى ينتهي الصبر وأخرج، وأستمع إلى ما قد يمرُّ من الهواء، وأبكي قليلًا، وأعدّ، الاثنا عشر، الفئران، النجوم، ضربات الخرزانة، واسأل العمّ زغـ... زغلول يومًا: هل صرت ضابطًا؟ فيبتسم، لكن الضابط يسمعني، فيأمره أن يضر... يضربني، فيدفعني أمامه، ويَسْلُخ ظهري بالخرزانة، فأعدُّ من اليوم الأول، وأجد أنني لم أخطئ يومًا في العدّ، لأن الخطأ لم يتبقَّ منه سوى البرد والرطوبة، ثم أتمدَّد على ظهري، وأعدُّ مع يد المطبّب عدد الجروح، والتأوُّهات، وأفكّر كيف أحافظ على خطوتي يوم الزيارة، حتى لا يعي أحد أنني مضروب، لكن لا يأتي أحد، فأملأ زجاجة الماء خلسةً، وأسقي بها الحشائش خلسةً، أتلفَّت، أحاول بأيّ طريقة أن أخفي يدي وهي تنثر الماء من الزجاجة، عسى ما نجا من حدّ المنا... مناجل يعيش، فلا ييأس النسيم من الهبوب، لكنَّ الماء ملعون، يجد المهرب ما إنْ يلمس الأرض، يصدر صوتًا كالفحيح، كأنه يقول: انْجُ سعد، فأشعر بالحقد الحقد، وأقضي الليل أُهْرِق الماء على أرض الزنزانة كي أفهم كيف يهرب الماكر، لكن لحظّه المشؤوم، لا يهرب من أرضية الزنزانة! ففهمت أنهم يقصُّون الحشائش حتى لا تهرب، بدلًا من أن يسجنوها معنا في الزنازين! فيشتكي مني زميل: إنك تُغرِق الأرض، وسنُصاب بالبرد، أو ننزلق! فأجفّفها، وكأنه يهرب في الخِرْقة! فأضع كلَّ ملابسي على السرير، وأدفن نفسي، لكنني أجد زميلي الشكّاء يهزُّني ويقول: قم يا صديقي، قم، لا تحزن، وليس هذا البرد الذي قصدت، حتى تنام تحت كلّ هذه الخِرَق والملابس، فأوضح له أنني لست بر... بردان، أنا فقط رأيت الماء يهرب في الخرقة كما هرب في التراب ذلك الصباح! فقا... فقال إننا كلّنا نهرب في التراب يومًا ما! وابتأس! لكنه أكمل: إذا شئت أن تهرب مثل الماء في التراب، فلا بدَّ من أن تصبح مثله مَرِنًا ماكرًا، أو أن تكون في حجم حبَّة بازلّاء صغيرة. فكَّرت بسرعة، وعزمت أن أفـ... أفهم منه، رغم خوفي من أن تفوتني الزيارة القادمة، قال: في كلّ سجن يضع اللّه قدرة خاصة لبعض المحابيس، دائمًا يجعل المظلومين مثلنا، في حجم حبَّة البازلّاء، فما إن يتدحرجوا على الرمل، حتى يغرقوا في الأرض، كالماء، لكنهم ينزلقون بين الذرى والرمال والصخور، حتى يصلوا إلى الجوهر المنصهر، وتتقابل هناك كلُّ الحبوب، وما بعد ذلك، لا أعرفه؛ إذ لم يحدث من قبل أن التقت البذور معًا، فسألته من دون تردُّد: شجرة بازلّاء، ممكن؟ وفكَّرت لو أنَّ هذه الحشائش كانت شجر بازلّاء، لجاء الهواء يزورها كلَّ ساعة! ولم يأتِ أخي أو أبي، فذهبت إلى المطبخ، وسرقت قرن بازلّاء، وشِققته، أكلت حبَّتين، ودفنت واحدة خلف إحدى البنايات، وعزمت أن أسقيها

كلّ يوم ساعة التريُّض، وبقي معي ثلاث حبات في الزنزانة، وبدأت أعدّ، وأتابع الهواء بمكر؛ هل يختلس النظر ناحية مبذري؟ سمَّيت الحبَّة الأولى فهمي، على اسم أبي، والثانية عصام، والثالثة مريم، وصرت أعدها: لو خرج إخوتك من الأرض يومًا ما سأبذركِ لتهربي! لكن لا تنسيني مثل أبي وأخي. وأعطاني الصول زغـ... زغلول قطعة حلاوة ونجمة ذهبية تبرق على كتفه، فهمست في أذنه وأنا أبارك له: «يتبقَّى إذ... إذن يا عمّ زغـ... زغلول نجمتان حتى أخرج!»، فيبتسم، وكأنه لم يفهم شيئًا، فأغافلهم في احتفالهم به، لأطمئنَّ على سعفان ووائل، أصبحا برعمين أخضر... أخضرين وسط الرمل والجدران الصفراء، فبكيت وأنا أودّع فهمي وعصام ومريم، وأقول: «هاها أنا أفي بوعدي وأطلق سراحكِ، اذكري صديقكِ!»، فربّتت على أنملتي، وتدحرجت في الرمل، فأسندت ظهري إلى الجدار قربها، أنظر إليهم وأنتظر الزيا... الزيارة، لكن لم يأتِ أحد، فتسلَّلت إلى المطبخ، لكن فات الوقت. كانوا يعذّبون ما تبقَّى من البازلّاء في أزَانات ألمونيوم عظيمة، فبِتُّ ليلتي بين أرق وكوا... كوابيس، فبدأت أعدُّ صرخات المساجين الصغار في الحميم، وتحت الفَلَكة، والمتدلّين، والمنقـ... المنقلبين، فأتوا بطبيب في الصبح، قال للضابط: «صدمة عصبية، سنُّه كبيرة، لكن الراحة والأدوية مطلوبة»، فسألتهم: «كبيرة؟ كم سنة لديّ؟!»، فضحكوا بهدوء، حتى الضا... الضابط قال في هدوء: «خمستاشر سنة يا حاجّ شاكر!»، فلم أردَّ عليه، وأغمضت عيني وبدأت العدَّ في رأسي، فوجدت أنه يكذب. لقد أتيت إلى هنا وأنا في السابعة والعشرين، فعزمت على عدّ السنين التي تليها بدقَّة، لكنّني نمت في منتصف العدّ، فـ... فاستأنفت العدَّ عندما صحوت. لكن دخل الشاويش وقا... قال: زيارة، لكن لم أردَّ عليه، فكرَّر، زيارة، فسألته مَن؟ فقال لي تعالَ وستعرف، لكنه لم يبتسم! ومررت بالأولاد فوجدتهم شجيراتٍ خمسًا يُدا... يُداعبها الهواء، فقلت لها: مرحى! لقد أتتني زيارة أنا أيضًا! فغمغم الشاويش وكان يصحبني إلى الاستـ... استقبال، ماذا قلت؟ فقلت له كم الساعة؟ فقال: لا لا يعرف أحد هنا الوقت. فأومأت، ووجدت رجلًا شابًّا في انتظاري، فتساءلت بوجـ... بوجهي، فابتسم: «كيف حالك يا عمّي شاكر؟» واحتضنني، لم أفهم ماذا قصد بعمّي! بكيت لأن أحداً لم يحضنّي سوى ساقَيَّ في الزنزانة الانفرادية، لم ينتظر سؤ... سؤالي، فقال: أنا محمود عصام، ابن أخيك! فقلت له: أخي غير متزوج، وإنه ككـ... كلـ... كلب لم يأتِ لزيارتي من أربعة أشهر أو تسعة، لا أذكر، فبدأت أعدُّ في رأسي، وأمسح ما تبقَّى من دموعي، فاصفرَّ وجهه قليلًا وقال: «هو لم يأتِ لك من زمن طويل يا عمي لأنه هاجر منذ زمن بعيد إلى أفروديتسا! وأوصاني أن أعودك إذا عدت للوطن!». لم أردَّ عليه لأنني كنت مشغولًا بالعدّ، فقال لي كلامه مرة أخرى، فطلبت منه السكوت حتى أستطيع أن أحسب منذ متى لم يأتِ لزيارتي، فطأطأ رأسه كأنني عمُّه حقًّا، وقا... قال: «ولماذا لا نعدُّ منذ متى وأنت هنا؟»، إنه ذكي حقًّا، لكنني عددت هذا ألف

مرة، لكـ... لكن لم أقل له هذا حتى يشفق علي. ربَّت على كتفي، وهمس بعيون دامعة: «أبي مات في أفروديتسا، وأنت اليوم أبي!» تاه مني العدّ، وصرخت فيه: أبوك هذا كلب ونـ... نـ... نذل، هاجر من دون أن يخبرني، وأنجبـ... بـ... ـبك من دون أن يخبرني، ومات من دون أن يخبرني! فناح دون أن يتكلَّم، لكنه مثل أبي، جـ... جـ... جدّك، جافٌّ قاسٍ، تركني هو الآخر وكأنه بلا ابن في العالم، والتفتُّ إليه وقلت بقسوة: «أم إنه سافر مع أبيك، ومات أيضًا؟»، فأومأ، فأومأت: «أعرف، هي عا... عا... عائلة بنت كلب! اذهب يا بُني!» وقمت. وقبل أن أرحل، وقبل أن يسألني، قلت له: كم الساعة؟ نظر في يده وقال: الثانية عشرة، فأومأت. وقبل أن أمشي سألته: «واليوم؟»، قال الجمعة، الثلاثون من الشهر السادس، تأفَّفت: «والسـ... سـ... سنة؟!» قال 2053! بدأت أعدّ، لكن هذه المرة على أصابعي، حتى وجدت الرقـ... الرقم يكبر، ويصبح بعيدًا، فشتمته: اخرج من هنا يا كذَّاب! وصرخت في الشاويش: «لماذا لا تحـ... تحبسون الكذَّابين؟!» فهُرِع إليَّ، وقال: «ما لك يا حاجّ شاكر؟» والولد يبـ... يبـ... يبكي بلا انقطاع! «هذا الكذَّاب، احبسوه!» فقال: «وهل نحبس أيَّ شخص يا عمّ؟!»، فصحت فيه: «أنا أيُّ شخص مثل أيّ شخص، فلماذا حبسـ... حبستموني وأنا أيُّ شخص؟!»، فتأمَّلني ونظر إلى الولد الذي قام وحاول عناقي لكنني رفضت، ثم بكيت، استسلامًا للحضن، وقال لي إنه سيذهب، ولو احتجت إلى شيء عليَّ أن أخـ... أخبره، فقلت له أن يأتي بالبازلّاء معه، لو نوى أن يزورني يو... يومًا ما! وخرجت، وطلبت من الشاويش أن... أن يتركني قليلًا عند الشجيرات، وجلست. فلمَّا ذهب، قلت لها بحنا... بحنان إنني سأخبرها حقيقة أخفيتها عنها، أنني قد أكلت إخـ... إخوة لها قبل أن أبذرها! اثنين صغار، وقلت في نفسي يومها إنني قد أصبح مدوَّرًا وأخضر مثلهما، مَرِنًا وماكرًا أهرب وسط التر... التراب! لكن كلّ شيء يأخذ وقته! وتمدَّدت وأنا أغمغم أنَّ ابن أخي يكذب، فسمعتها تهمس: «لا عليك!» وربَّت فهمي على رأسي فبكيت، ثم نمت، وجعلت أشعر أني أخضر، وأنزلق وسط التراب، وأتفسخ تحـ... تحته، فصحت: «أين الطريق إلى جوهر الأرض المصهور؟»، فسمعت أحداً تحت الأرض يقول: «أما علمت يا شاكر أنه لم يتبقَّ من الهروب سوى البرد والرطوبة؟!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشتات

الشوام؟ وهل تظنُّ حقًّا أنك قد تستطيع أن تقابل أحدًا منهم؟ يا بني ابحث عن جبْتي، ابحث عن تركي، ابحث عن زنجي، أو حتى باصقي! لكن لا تدع دماغك يُهيّئ لك أن تمرَّ عبر شامي! إنهم يتعاملون فقط مع الكبار، أقصد هذه الشعوب الكبيرة مثل الجرمان والفايكنج والروم! أما شعوب مثلنا فلا! هل تدري منذ متى يعملون في هذه المهنة؟ سنين! سنين طويلة أكثر بكثير مما عشناه أنا وأنت مجتمعَيْن! تعقَّل! وركّز حتى نستطيع أن نجد لك حلًّا مناسبًا. ولا تخفْ، كلُّ شيء له حلّ! اشرب الشاي، اشرب اشرب. صحيح طعمه حبر، لكن هذا ما يوزّعونه في هيئات الإغاثة! وليس لنا إلا أن نرضى، الحمد للّه أننا نشربه من الأساس! وكلُّ الناس يشربون من هذا الشاي، خصوصًا بعد أن ضاعت الهند! لم يعد المرء يهنأ بكوب شاي طبيعي، خسارة؛ كانت بلادًا جميلة! كنا نشاهد قديمًا أفلامهم بالأربع ساعات! أربع ساعات في فيلم واحد! هل تتخيَّل؟ لم تعاصر أنت هذه الأفلام على ما أعتقد! كانت تنقل المرء يا أخي إلى عالم آخر. شعبًا عظيمًا كان، يظلُّ يمثّل أربع ساعات متواصلة! أما الآن! يا حسرة! كما ترى، يحتلّون المربع الشمالي من مخيَّم المحيط الهادئ الجنوبي! اللّه يخرب بيت الحرب! ما إن يحضر الرؤيوان حتى ننسى حياتنا القديمة، ونفكّر كيف سنحيا! نحيا فقط! ننجو أقصد! اللّه يخرب بيت الحرب يا أخي! عكرة مزاج! هاه، اشرب، اشرب، الجو بارد، ولا تقلق، سنجد لك مرشدًا منغوليًّا، دعك من الجبتيين واستغلالهم، سينهبونك، ويلقونك لأول مشترٍ. أعرف صديقًا بعث أحد أولاده إلى كيوبيديا عبر هذا المهرب المنغولي، إنه ماهر، جنّي! ورغم ذلك لم يدفع له سوى ألف عرصون رومي، ناس عندهم ذمَّة وضمير، هؤلاء المنغول! قلت لي معك كم؟ ثلاثة تقريبًا، نعم ثلاثة! لا تقلق، لا تقلق، سنجد لك حلًّا، سيأخذ ألفًا، وحافظ على الباقي في رحلتك، العرصون الواحد له قيمة كالحياة، العرصون الواحد، صدقني، يساوي حياة إنسان بأكملها، وأقول لك، تعالَ، اقترب مني، لا أريد أحدًا أن يسمع. خذ حذرك جيّدًا من رفاق الرحلة عامَّةً؛ لو جاعوا أكلوك، أيًّا تكن أعراقهم، سيأكلونك، الحرب دمَّرت كل شيء، وأنت في مقتبل العمر، وستعلّمك الأيام أنَّ الإنسان هذه الأيام قنبلة تنفجر كلَّ خمس دقائق، تأكل كلَّ شيء! نعم، أنت نفسك، ألا تشعر بالجوع أحيانًا؟ أنت لم تأكل أليس كذلك؟! عندي علب تونة من بواقي الروم، الولد ابن أخي سرقها من مراكبهم عندما كانوا يهربون إلى أفروديتسا، أكلنا منها أمس، آه، واللّه كانت أحلى من السمك البوري لو تذكره، آه! تخيّل، الروم الذين أثقلوا أنفاس شعوب كالنمل، يهربون مثلما نهرب تمامًا في قوارب من العظام والجماجم! تجدهم في المخيَّمات، كما تجد الجبتي والزنجي والغالي والحبشي، تجدهم في الزوارق كما تجد الأمازيغ والمغول والهنود، لا فرق اليوم! كلُّنا في التيه الأكبر! أتعرف التيه الأكبر؟!

يخرب بيت الحرب، الولد ابن أختي حكى لي أنَّ ثلاثين لاجئًا روميًّا اتَّفقوا مع مرشد شامي، قال لهم إنه شامي، لكن اصبر إلى النهاية، قال لهم إنه شامي، واتَّفقوا أن يهرّبهم إلى الولايات الشمالية في زاراتيسا، وأخذ من كل واحد ألفي عرصون عدًّا ونقدًا! تخيَّل! ألفي عرصون رومي! إنهم يحبُّون الحياة، ويرونها لا تُقدَّر بثمن! لكن انظر ما حدث! سار بهم في عرض البحر، يسحب خلفهم قاربًا صغيرًا، قال لهم إنه قارب نجاة، أنت تعرف أنهم يؤمّنون عملاءهم، يوفّرون لهم الراحة والأمان أثناء الهروب! لقد ذاقوا هذا الوبال قبل كلّ الناس، ورغم ذلك يساعدون! غيرهم كان لينكّل وينتقم، ومع الوقت احترفوا الهروب وحفظوا مسالك الأرض. المهمّ، ابتسم الروم مطمئنّين، وقبل الفجر بساعتين، أيقظهم! أمرهم بالقفز، أمرهم بالقفز واللّه! فاعترض الرجال، فقتلهم! قتلهم ورمى جثثهم في البحر، ثم ألقى بعدها النساء والعيال! هكذا، ألقاهم! وهرب في قارب النجاة! لكن أنت تعرف جيّدًا، لن يسكت الروم! ثلاثون إنسانًا! أطفال ونساء، ولأنهم يعرفون أنه لا يزال لهم بعض شيء من المهابة، أعني هذه الضوضاء والثرثرة التي يشغلون بها العالم، والتي تبقَّت معهم بعد الحرب؛ ذهبوا إلى كبير المرشدين الشوام، المعلّم أبي الوليد الحمصي، اشتكوا، وهدَّدوا بدعاية سلبية تُفسِد عمل الشوام! تخيَّل معي لو جاءك خبر أنَّ الشوام يلقون عملاءهم اللاجئين في البحر، أو يقتلونهم، هل تأمن لهم؟! لن تفعل، ولا أحد سيفعل، المهمّ، ذهب المعلم أبو الوليد، وقال لرجاله أن يبحثوا عن هذا المرشد، فلم يجدوه باسمه، بل بأوصافه! واكتشفوا أنه ليس شاميًّا! بل آشوري أسمر من بابل، أراد أن يثأر من الروم، الروم أفسدوا بابل كما تعرف! بالطبع المعلّم أبو الوليد عاقبه، لكن لا أحد يعرف كيف! أتعرف؟! بيني وبينك، يقول الولد ابن ابن عمي إنَّ المعلم أبا الوليد لم يقتل البابلي كما يتقوَّل البعض، المعلم رجل شهم، يقول إنه أخفاه مدَّةً عن العيون، ثم أعطاه جواز سفر شاميًّا، تخيَّل! جواز سفر شامياً! جوازاً شرعيًّا يذهب به إلى العالم الجديد؛ هيرمستا، زاراتيشا، أفروديتسا، كما يشاء! يقول ابن ابن عمي إنَّ المعلم قال له: «تسلم ها الذراع! واللّه عم يستحقّها أهل الشام أكتر ما يستحقّها أهل بابل!»، وعاد الآشوري إلى المهنة رغم ذلك، يعمل كالقرد، ونسي الناس ما حدث، يقال على ما حدث نخوة العدادنة! تعرف، قديمًا كان يقال إنَّ الشام والجبت كانوا بلدًا واحدًا! تخيَّل! بلداً واحداً برئيس واحد وعلم واحد! تخيَّل معي الآن لو ظلَّا بلدًا واحدًا، كيف سيكون حالنا نحن الجبت المساكين؟ واللّه ما يجرؤ أحد على أن يعبث بمخيَّماتنا، ولا سرقة حصاة من أمامها! هل رأيت أحداً يجرؤ على المرور جوار مساكن الشوام من دون إذن؟! واللّه قتلوه لو فعل! لكن ماذا نقول؟ أنت عارف أننا حمقى، ونضيع الفرص من أيدينا! مثل نهرنا القديم لو تسمع عنه؛ يضيع، ولا نلاحظ أنَّ شيئًا يضيع، أو أننا نضيع! مساطيل واللّه يا أخي! ِوها هو شاب فيِ عمر الورد، متعلّم وعاقل، يركض فِي الأرض يمينًا

وشمالًا ليجد نجاة في أيّ شبر في العالم الجديد! تخيَّل لو أنَّ الوحدة بيننا وبين الشوام كانت كما هي! ألن تجد ألف مرشد يوصلونك إلى البقعة التي تريدها في العالم الجديد؟ ألن يكون معنا مفاتيح العالم الجديد وخرائطه؟ ليس هذا فقط! بل ومن دون مال! مجانًا! وهناك، هناك تعمل ما تشاء! إنَّ الشوام يعملون هناك كلَّ شيء، بداية من الكنَّاسين وحتى الوزراء! نعم! وزراء، نصف مدن العالم الجديد بُنيت على أيدي الشوام! الشوام هم المستقبل يا بني واللّه! لكن كيف تصل إلى أحد منهم؟ لا يهربون سوى مع العالم النظيفة! الروم، الجرمان، الفايكنج! ولعلمك، هل تظنُّ أنهم يبقون هنا في العالم القديم حبًّا فيه؟! لا! لا يا حبيبي! هم فقط يعلمون أنَّ العالم الجديد بوَّابته هنا! هنا في هذه الخرابة التي تسمى العالم القديم، هنا مخزن البشرية، حظائر البشر! ينمو المرء هنا، ويعاصر الشقاء، فمن يقرر أنه يريد أن يحيا، فسيهرب إلى العالم الجديد، ويستسلم لكلّ قوانينه، بداية من قانون القارب، الوسيلة الوحيدة إلى العالم الجديد؛ ونهاية بقانون الوفَيات هناك. إنهم يسيطرون على بوَّابة العالم الجديد بسيطرتهم على سوق تهريب البشر من العالم القديم. ولو كان الروم عقلاء، لوضعوا كلَّ الطرق إلى العالم الجديد تحت أيديهم، لكنهم انشغلوا بالحرب، وأفسدوا العالم، وشرَّدوا البشر، وتشرَّدوا. توكَّل على اللّه، ولو كتب اللّه لك النجاة، فتزوَّج منهم، من الشوام، واحصل على جواز السفر، أو اقتل روميًّا! خذ هذه، ولو سألك عنها شرطي، قل له إنك تقطع بها الطعام! ثم إنَّ المرشد المنغولي سيسلك بك بعيدًا عن أيّ شرطة تبقَّت في هذه الخرابة، هيَّا اشرب، اشرب الشاي! إنك تنعس! طيّب مدّد! ياه، لقد نام يا إيهاب، نام تمامًا، طيّب، هيَّا بسرعة، أخرج الآلاف الثلاثة من جيوبه، وهاتِ حقيبته، ثم نادِ سلامة يتصرَّف فيه، يبيعه لأيّ أحد في السوق، ولا يضحك عليه أحد، سلامة غبي أنت تعرف، هذا الولد جبتي وثمنه لا يقلُّ عن عشرين ألف عرصون، هيَّا بسرعة! فأنا ذاهب لأصلّي وأمرَّ على الأحزان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المساقط

لم أستيقظ طَوال الصباح رغم صراخ المنبّه، أطفئه ثم أنام، أنظر فيه، ثم أحاول استيعاب أرقامه الكاذبة وسط حُلْكَة الليل، ثم أنام، يقول: الثامنة صباحًا! فأطفئه وأنام! إنه منتصف الليل يا تالف! والنوم يطبق على رأسي، لا أقدر أن أفتح عيني، فقط أغمغم له، ثم أطفئه وأنام، حتى تأتي أمي، وتكرّر: «قم هيَّا، الثامنة والنصف!» ما الذي أيقظها الساعة؟! يا أمي الليل طويل، ارحميني! فتتمصمص: «ليل؟! أيُّ ليل؟! اصْحُ، الشمس غضبانة، ولم تعد توزّع النور!»، ضحكت، لا أَحْكُم الضحك، فالنوم لم يزل يخدّرني. «تضحك؟!» تقول وتضربني بوشاحها! «قم، اخرج مع إخوانك ابحثوا عن مسقط للنور!». مسقط نور؟! ماذا جرى يا امرأة؟ تلف عقلها! «ماذا تقولين؟!»، «قم! اخرج ابحث معهم عن نور الشمس!»، أضحك، وأدفن رأسي تحت الوسادة، تضربني مرةً أخرى بالوشاح، تصرخ هذه المرة: «انهض، قبل أن يشغل الناس مساقط الشمس، فنهلك!»، انتفضت جالسًا غَضِبًا! «ماذا تريدين في نصف الليل يا ستّ؟!»، نظرت إلى سقف الغرفة: «يا حزني على أيامي!»، وصرختْ حَنِقَة: «أيُّ نصف ليل يا بن الحرام؟! انظر!»، فتحَت النافذة! لم يكن هناك شيء سوى ظلمة الليل، ولهيب يخرج من القمر! ما هذا؟! القمر يحترق! لا! إنها الشمس! قالت: «طلعت السماء دون أن تشرق، تزمجر كما ترى من دون أن توزّع النور، كأنها تخاصمنا، أفّ! أستغفر اللّه العظيم، لا ضوء ولا دفء، كلّ حين فقط تضرب الضوء على شارع ما، كأنها كشّاف! فسمَّى الناس هذه النقاط التي تنيرها مساقط! فاخرج ابحث مع إخوتك عن مسقط، كي نعزل فيه، هيَّا، هيَّا يا بن أمّك!».

المرأة تهذي، حاولت الخروج من رأسي كي أفيق من الحلم، لكن الشمس تحرَّكت، بالضبط كعين، وسقطت منها حزمة ضوء على نقطة بعيدة من الأرض التي لم يظهر منها شيء غير أشباح البيوت التي تقبض النفس وهي تتهيَّأ للسقوط، أو ترفع في استجداءٍ الرؤوسَ إلى السماء المظلمة.

خرجت، قالت لي إنهم خرجوا منذ ساعة، ولم أعرف، هل أبحث عنهم، أم عن مسقط للشمس، أم أهرب وأبحث عن سرير؟ وظلَّ غيظ يلعب في صدري لمَّا ذكرت أنَّ هذا النوم المبتور كان له أن يمتدَّ مِلء الجفون والرؤوس إلى وقت غير معلوم، لولا قلق هذه المرأة! الشوارع ساكنة، تضيئُها المصابيح ضوءًا خافتًا، والشمس لها زمجرة وسط السكون، بين الفينة والأخرى، تحوّل حزمة نورها العريض إلى جهة ما! بحثت في الحارات عن رصيف نظيف أتمدَّد عليه، فلم أرَ شيئًا، المصابيح تَخْفُت في خشوع، وكأنَّ الشمس تفرض عليها الخُفُوت، ماءت قطة ولم تُسْرِجْ عينيها، مجرَّد لمعة ضعيفة، عين إنسان عارٍ أكثر من عين قطّ جائع، نوافذ البيوت على اتّساعها، والشمع لهبه أزرق رفيع،

النجوم صَعِدت إلى سموات عليا، أو انسحبت في بطن الشمس. حككت ظهري، واتَّكأت على رصيف، فصاحت المرأة: «قم يا ولد، فِزّ، العيال ينتظرونك عند مجلس البلد، اجرِ!». كيف تراني وسط هذه العتمة؟! امرأة حَيْزَبُون صحيح! لم أردَّ عليها، بالتأكيد النسوان مثلها يدلين رؤوسهنَّ من النوافذ. النسوة يحببن النوافذ، قمت.

لم تختلف الشوارع بعضها عن بعض. الظلام يحبسها جميعًا، وبرودة حلوة تداعب صدري، والنوافذ كلُّها في كلّ مكان مُشْرَعة، تستدعي، كما أظنُّ، أيَّ مقدار من النور، كعين الإنسان في الظلام! عين الإنسان في الظلام؟! لم يعد بعد شكل عين الإنسان في النور كما هو أصلًا، حتى تكون هناك عين إنسان في الظلام!

وصلت إلى ميدان مجلس البلدية، الزحام البشري في الصياح، والسباب، وبخار يصعد من بين الأيدي المرفوعة، يُقال: هي خلاص مش هتنزّل علينا شوية نور تاني؟!

شوف بتزوم إزاي؟! إلهي تزومي ف جهنم يا بعيدة!

كنا ناقصينها هي كمان! مش كفاية الرز بقى بـ7 عرزون؟!

الحكومة بتحاول تحصر عدد المساقط، عشان تنظّم الوضع!

يعني هو حد عارف لها حال؟ ما هي بتنزّله علينا على كيفها!

يعني الحكومة تركبنا، والشغل ينفخنا، وتيجي بسلامتها تعمل كده..

حد كان يصدّق نقف طوابير لأجل النور؟!

الصبر يا ربّ!

بس شوف يا أخي سبحان اللّه، الجوامع كلها منوّرة!

جامع السلطان ما نوَّرش!

ما هو لأجل الشيخ جمعة الخمورجي.

يا عمّ اتّقِ ربنا..

القيامة بتقوم يا ولاد..

هم الناس دي زعلانة ليه؟! ما لها الضلمة؟! هعهعهعهع

أحلى دنيا في السهر يابا..

الليلة خمر ونساء.. ده لما كانت ليلة واحدة كلّ يوم، شوف بقى كام مرة وكام خمرة في الليل الطويل الأبدي هع هع هع..

ضربت العيونَ قبضة نور، غطُّيت بصري، وخضار غزا رأسي، صداع، نبض، في حين تركَّزت دائرة النور عند بيت متهالك جوار مكتب البريد، صرخ الوقوفُ أمامه، وسقطوا يصرخون: عيني عيني! بينما هاج مَن كانوا في الظلمة، وتراكبوا، حتى امتلأ صحن النور، يعضُّون، يسبُّون، يَشُجُّون بعضهم بعضاً، والدم زَخَّاتٍ وسَفْحًا، وصراخ غضب واستغاثة، وزمجرة الشمس تدوي في أذني، طنين من غليان صدر غول، كأنها تقتات من غضبهم وخوفهم، ولم تمرَّ الدقائق الثلاث حتى انقبض الضوء كما جاء.

يا شعب يا رمَّة.

هي بتلاعبنا ليه؟

لا حول ولا قوة إلا باللّه، شوف كام نفس ماتت!

زعّلتوا الشمس يا أنجاس! وهي توزّع لنا نور ليه يا كلاب؟!

الناس في التجمُّع لمُّوا بعض وعملوا سلاسل بشرية حوالين المساقط عندهم، حاجة محترمة..

يا عمّ وهي الشمس هتروح هناك أصلًا؟! دول عالم متجوزش عليهم رحمة ربنا!

هم أصلًا يحتاجوا شمس ليه؟!

هي الحكومة هتظبّط كلّ حاجة إن شاء اللّه!

والناس اللي ماتت؟!

الناس بتموت من أوّل سيدنا آدم!

وجدت إخوتي، هم وجدوني، رآني سامي في ضربة النور: «ماذا يحدث؟!»، يضغط برهان بخرقة على جبهته المصابة: «انتهى كلُّ شيء يا أخي! سنموت! إمَّا من البرد، أو قتلًا! الناس يتصارعون على نور الشمس!»، «وكيف حدث كلُّ هذا؟!»، ضحكوا: «لا أحد يعرف طبعًا!»، «والحكومة؟!»، «الحكومة تلفُّ بعربات سود عملاقة، تستولي على المساقط، ومن يقترب يقتلوه!»، «والعلماء؟»، «لا تفسير! قرَّروا فقط أن ينبشوا قبور فايسرشتاين وغيره إذا أضاءت مرة أخرى»، «مع أحدكم وسادة؟»، «ماذا قلت يا سليم؟!»، «لا لا، أبدًا.. أتثاءب أتثاءب».. نخر عبَّاس: «ستنام يا ولد يا سليم، ستنام، وتحلم، وتحتلم، وتأكل أرز اللبن مع الملائكة، ولن يوقظك أحد!». حدَّقت إليه ثم إلى

الشمس: «أباللّه؟»، فضحك، وعوّج برهان وسامي وجهيهما مني، ضحكت محرجًا، وشردت في رصيف جانبي، يكنسه شيخ كالح، مادام النور ينقبض وينبسط بمقادير من الآن، فما يضير لو سلَّمنا بنومة الأرض؟! لقد نامت الجثث في أعجاز آبائهم، لما كانت الأرض المفترش والمستوى! لم تكن الفُرُش سوى مُلْكٍ لا يحلم به أجداد هؤلاء، وذلك كان في عهد يدعونه بالظلام. أمَّا وقد قبضت الشمس ما عندها وعاد عصر الظلام، فما الخجل لو تسلَّلت لأقيل قليلًا؟! كلَّنا سنفترشها حتمًا يومًا ما! صاح برهان: «يا سليم، إلى أين! ألا تصبر؟ نريد أن نلحق واحدًا!»، رفعت له السبَّابة مستأذنًا: «ثانية ثانية ثانية»، وابتسمت للكنَّاس: «اللّه ينوّر يا حاج! ونعم الإخلاص!»، تأجَّجت نقطتان فقط من طرف سيجارته، ولم يردّ.. «كنسة محترمة واللّه! وفي هذا الظلام؟ أنت قدّيس!»، لم يردّ، واستأنف الكنس! «لا لا لا، لست مضطرًّا إلى أن تُتعب نفسك في تلك الظلمة أكثر من ذلك! الرصيف ممتاز الآن! تستطيع أن تكمل الكنس في الرصيف الآخر!».. بصعوبة ظلَّ يسحب أنفاسًا كَيْلا تنطفئ منه السيجارة، لم يظهر وجهه قط، وإن بدا أنه يتأمَّلني! حشرج صوته: «عاوز إيه يا أخينا؟!»، لم أتوقع هذا الصوت، وسمعت عبَّاس ينادي، «لا أبدًا يا حاجّ! سأقيل فقط، لا أكثر، تستطيع أن تتابع عملك وأنا نائم!»، شخر! وبرهان ينادي مع العباس! ابتلعت ريقي، وأنا ضامن أنَّ الظلمة تخفيني كما تخفيه، «تنام فين بسلامتها؟ بقى أنا قاعد أكنس وأنضّف في أمّ المسقط، عشان حضرتك تيجي بطولك ده تاخده ع الجاهز؟! غور ياض العب بعيد!»، حدَّقت إلى الظلّ الشائخ، فَكٌّ بارز، وطرف قلنسوة منتصب على مؤخّرة رأسه لتبدو كجوزة كبيرة. زمجرت الشمس، ويبدو أنها أسقطت على موضع بعيد، إذ ارتفعت السبَّابات والرؤوس إليها، والتفت لها الكنَّاس المسنّ لحظتئذ، فلم أضيّع الفرصة، فقرعته على قفاه، فصاح من قلبه: «آاي!»، ففزعت من تأوُّهه الممدود أكثر من سبابه، فهُرِعت إلى إخواني خشية أن يهلك ويتَّهمني الناس بقتله. «أين كنت يا بن امرأة المعلقوز؟!»، ولكزني عباس! تذمَّرت: «كنت أبول!»، فتأفَّف برهان، وضحك عباس، وعلت الغمغمة بين الأصابع المرفوعة، قيل: تفتكروا (السمس) تضرب فين الوقتي؟

أظنُّ أنها تسقط على الحي السابع!

واللّه يا خوانا ما في حلّ عاد! أني رايح مقام سيدي الناجي! هناك النور ما يجطع!

مدد مدد مدد

لكن قل لي يا دكتور، هل الشمس مأمورة؟

مأمورة؟

يعني، من يأمرها سواه، جلّ في علاه؟

اللّه تقصد؟

نعم، نعم يا دكتور!

واللّه أنا غير مطُّلع بالتأكيد على الإرادة الإلهية، لكن يجوز أنه أمرها بهذا!

يعني ضعنا؟

أيوة! أنت لسه جاي تاخد بالك؟! ما هو من أعمالكم يا شعب!

وهي الشمس ما تصدق؟!

هو فين؟ هو فين ابن البيخوتة اللي ضربني على قفايا وجري؟

تحرَّكت قليلًا، لأكون بين العباس وبرهان، وسامي مندمج مع مَن ينعته بالدكتور: «لكن ربنا يحكم علينا هكذا بالاقتتال؟ أهو يرضى لنا هذا؟!»

«وجهة نظر، لكن لو على رضاه! فأنا غير مطُّلع على ما في نفسه عزَّ وجلَّ، إلّا أننا نستحقُّ على كلّ!».

مال العباس على أذني: «الدكتور هذا غير مطُّلع على أيّ شيء»، تثاءبت: «يا سيدي، كلّها ظلمة، ولا أحد يفهم أو يعرف أيّ شيء!» ضحك، ثم قال: «ماذا سنفعل؟! هل عثرت على شيء؟» نبَّهني لفكرة! ملت عليه: «آه، اسحب إخوانك، وتعالَ خلفي».. أشار إلى برهان أن يتبعني، بينما سحب سامي بالقوَّة ودفع برجل أمام الدكتور بدلًا منه، اقتربت من الرصيف وهم خلفي، تذمَّر سامي: «ما شأنكم؟»، تنهَّد برهان: «أخوك وجد شيئًا!»، فأشاح بيده: «وهل يسير عاقل خلف سليم؟!»، قلت: «سليم هذا آخر من وصل، وأوَّل من وجد!» رفعوا رؤوسهم إليّ! دقَّقت في ملامحهم، لا أكاد أراها! أشرت إلى الرصيف المكنوس: «هذا مسقط للشمس، سيأتي صاحبه بعد قليل، نتخلَّص منه ونستملكه!»، ضحك العباس، وتساءل برهان: «نتخلَّص منه كيف؟» قلت: «ليس شأننا! نضربه، نقتله، نقطع لسانه! هو رجل مُسِنٌّ ولن يقاوم على كلّ حال!»، صاح سامي: «قلت لكم لا يَسِرْ أحد خلف هذا العقوق! نقتل من؟!»، قلت: «الرجل المسنّ، أعني لو لزم الأمر!»، قال برهان حازمًا: «لا، لن يحدث»، قلت: «الدنيا ظلام، ولن يرانا أحد!»، ضحك العباس، سبَّني سامي: «يا بن الكلب! ألا تسمع كلام الدكتور أنَّ هذا يبدو عقابًا إلهيًّا؟! ألا تتَّقي اللّه؟!»، نظرت إلى ظلّ العباس: «يقول الدكتور! الدكتور المتخصّص في (غير مطَّلع على)»، كرَّر برهان: «لن يحدث»، تمتم العباس: «إذن نقطع لسانه!»، رفضت، وإنها واللّه لا رجعة فيها: «كلَّا! ما أدراكم ألَّا يكون معه ناس، فينتقموا له؟»، قال برهان: «إذًا، فهذا أدعى ألَّا نقتله!»، صاح سامي: «تخافون الناس

ولا تخافون اللّه؟! أنا ذاهب، لا أخا لكم!»، ضحكت، وقلت له بينما أنظر إلى عباس: «أمُّك ستعرف، وتلعنك، تعالَ!» أشاح بيده، وذهب. كرَّر برهان: «لن يحدث يا سليم! لن نقتل أحدًا»، تنهَّدت: «إذًا كيف نأخذ منه الرصيف؟! إنه مسقط ممتاز! مسقط في ميدان البلدية، أحسن من بيتكم!»، «ليس القتل يا سليم!»، «وما المشكلة يا برهان؟! ألم تُصَبْ في ضربة الشمس الفائتة؟! ألم يُقتَل الناس أمامكم بالتدافع فقط على المسقط؟! ما المشكلة يا برهان في أن يقتل الناس بعضهم بعضاً؟! هذه سنَّة الكون!»، تثاءبت: «هيَّا هيَّا، اجهزوا، الشيخ قادم»، «لا! لا يا سليم! لن نفعل!»، فوبَّخه العباس: «إذن اذهب يا بن امرأة المعلقوز خلف الجبان الآخر»، تبادلا النظرات وكاد برهان ينصرف، إلا أنَّ الكناس الماكر رفع عَقِيرته: «أنت هنا يا بن الفاجرة؟ تضربني على قفايا وتجري زي الصبيان؟!»، سألني عباس: «أهذا؟»، فضحكت: «نعم»، وضربت ظهر يد برهان بظهر يدي، وهمست له: «سَبَّ أمَّنا أمامك، اذهب وقل لها إنك تركت مسقط الشمس لأنَّ العمَّ الشيخ سبَّك!»، ضحكت والعباس، صرخ الرجل: «بتضحكوا على إيه يا ولاد... واللّه لو ما...»، لم نمهله، ضربناه، وتأوَّه من قلبه، «آآي!»، حتى سكن، حملناه، وألقي المشؤوم في مزبلة! أخرج العباس قدَّاحته، ولم يخرج منها سوى خيط أزرق. نظرت إلى السماء، حتى النار، صحت: «الرحمة يا صاحب الرحمة!». فانفجر من خلف الشمس سهم عظيم الرأس، همس برهان: «نيزك؟»، اتَّسعت رأسه في كرة لاهبة مضيئة، حتى صاح الناس من الفرحة لما أضاءت السماء قليلًا بضوء كالمغرب، ولكزني العباس: «هع، دعوتك يا شيخ سليم!»، فضحكت، وجلست على الرصيف أضرب براحتي التراب، وأحتفل، لكنَّ الأمر كان على غير ما فهمنا، إذ لما شع من النيزك قليل من الضوء، زمجرت الشمس، واستدار من أطرافها اللهب، وتطاوح في دوائر كالسياط، تروح وتعود لها، حتى خَبَا النيزك، واشتعل في بطنها، ثم اختفى.

صرخ الناس، وأمسك برهان بذراعي، وصَأْصَأ: «هذه رسالة لنا، لقد أهلكتنا!»، لم أردَّ عليه؛ إذ انشغلت بشرودي في الغول الكروي الملتهب، أتنفس ببطء وإرهاق، همس العباس: «ماذا سنفعل؟! سليم! سليم!»، نظرت إليه وقلت: «أريد أن أنام!»، شخرا، ضربني العباس في صدري: «والرجل الذي قتلناه؟!»، لم يكد يقولها حتى سمعنا السارينات. انبطحا، بينما أمسكت بولي بصعوبة، كانت الحكومة في سبع مدرعات سوداء، ومروحية، أضاؤوا العتمة قليلًا بمصابيح باهتة خافتة، صاح الميكروفون: «الرجاء من السادة المواطنين الابتعاد عن مساقط الشمس، الرجاء تسليم كلّ المساقط للحكومة، وعدم مقاومة السلطات!»، تصايح القوم، بينما رفعتهما عن الأرض، وقلت: «قوما، لم يأتوا لنا! قلت لكما إن القتل في هذه الظروف أمر طبيعي، قوما، نحن

بشر، قوما»، همس العباس: «أنترك لهم المسقط؟!»، دفعتهما أمامي: «قدَّامي يا مشابك!»، إلى رصيف قريب نترقَّب.

لم يرضَ الناس عمَّا يحدث، صاحوا في الجنود الذين دفعوهم، وقالوا: إحنا هنا من أول ما قبضت النور، وتيجوا تاخدوا مننا المساقط؟!

يرضي مين ده يا جدعان؟

حكومة بنت...!

تسقط تسقط الحكومة!

هتبقوا أنتوا والشمس علينا بروح أهاليكو مثلًا؟!

يا جماعة استهدوا باللّه! نسمع بس الرجالة بتقول إيه!

إلا الحكومة، إلا الحكومة!

كلُّه هياخد نور يا اخوانَّا، كلُّه هياخد!

النظام! النظام شوية!

هيَّا يا رجال، تمترسوا في سلاسل نمنع الطغاة!

اللّه أكبر!

ضُرِب البارود في الهواء، ثم في بعض الأجساد، وبُخَّ الغاز، وتفجَّر البلي في الوجوه، فتفرَّقوا صارخين! وأحاط الجنود، وفي صدورهم همهمة، ببعض الأرصفة والعمائر، ورفعوا عليها اللافتات: احذر الاقتراب! مساقط للشمس! وقف حكومي! ابتعد! لا اقتراب! لا تصوير!

وسكنت همهمة الجنود بعد قليل، وبقيت زمجرة الشمس! لكنهم لم يحيطوا برصيفنا! همس العباس: «ما يعني هذا؟»، أخرجت سيجارة، وأعطيتها لجندي: «قل لي يا زميل، لماذا تحيطون بهذه النقط؟»، ردَّ في قرف: «مساقط الشمس يا خويا، معاك ولعة؟ هعمل إيه بالسيجارة وحدها؟!»، أشعل له العباس سيجارته، سألته: «يعني كلُّ هذه مساقط؟!»، يسحب من السيجارة ملء صدره، ولا تشتعل، فيسبّ: «لا نور ولا نار! أيوة يا رايق! كل دي مساقط! وبعدين في شوارع بتُبقى فيها أكتر من كدا!»، سعلت: «أتعني لم يعد هناك مساقط في هذا الميدان؟!»، «لاء، وحلّ عن نافوخي عشان الظابط».

قبض برهان وعباس على كتفيَّ، وساقاني إلى رصيفنا، قال برهان: «قتلناه لأجل لا شيء!»، همس العباس متذمّرًا: «من قال إنه مسقط؟ خدعتنا! أم إنك أبله؟! صدق سامي، صدق سامي! اللّه يخرب بيتك!»، دفعت أيديهم عني،

ونظرت إلى الرصيف وتمدَّدت: «اذهبا إلى أمَّيكما وقولا لها سليم خدعنا ونام!»، أغلقت عيني، ونمت على زمجرة الشمس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهجرة

يتراصُّ الناس أمام ماكينات الكيماوي! كم عذَّبتني هذه الماكينات طَوال السنوات الخمس السابقة، كلَّ يوم أو كلَّ أسبوع بحسب نوع الجرعة، أقف من ربع ساعة إلى نصف ساعة أمامها، أصل محقني الخاصَّ بخرطوم الماكينة، ثم أضبط برنامج الجرعة، وأحقن ذراعي، ثم نوبات الاحتراق الداخلي! ياه! أيام! وأيام وأسافر إلى هيرمستا! نعم هيرمستا! جنَّة الأرض! يقول ابن عمي: «هنا لا أحد يموت، إنَّ هيرمستا هي جنة عدن التي هبط منها آدم!». أراقب أرصفة المدينة، وأتابع الرؤوس الصلعاء والوجوه المصفرَّة، كبار، صغار، رجال، نساء؛ كلٌّ يصل خرطوم الماكينة إلى ذراعه أو يفصله، ثم يسير مرتبكًا عائدًا إلى ما كان فيه، الأرض مبتلَّة بعد مطر، والسماء رمادية، البنايات تحمل إعلانات ضوئية كبيرة، للتذكير بمواعيد الوجبات الصحية: سلطة الطماطم، وجبة الأفوكادو، منقوع الجنسنج، قطع الشوكولاتة السوداء، أو إعلانات عن أجهزة جرعات منزلية أكثر أمانًا وراحة، رغم أنَّ الشوارع تكتظّ بماكينات الكيماوي، وفي الآونة الأخيرة، كابينات خاصَّة، فتجارة هذه الأجهزة المنزلية رائجة جدًّا. ابن عمي يعمل هناك في أكبر مصانع ماكينات الكيماوي، ماركة هيرموثيرابي، يقول إنَّ هذا المنتج الجديد حقق مكاسب بنسبة ثمانين في المئة في أول إطلاق له، الناس يحنّون إلى الرفاهية المنزلية القديمة، عندما كان كلُّ شيء يُقضَى في المنزل، وكلُّ شيء يأتي إلى المنزل بمكالمة هاتف أو ضغطة زرّ، ففكرة أن تأتي جرعات الكيماوي إلى المنزل كانت فكرة عظيمة، رغم اعتراضات الذين قالوا ما أصابنا المرض إلا بسبب الكسل ورغد العيش، وإنَّ المشي إلى أقرب كابينة في الشارع أو ماكينة يُعَدُّ رياضة تُعين الواحد منَّا على الأمل في الحياة، فرؤية الشوارع تصيب النفس بالرَّحابة التي تحرقها جرعة الكيماوي مثل أيّ شيء تحرقه!

وصلت إلى رصيف مكتظّ، ينتظر عليه الناس أدوارهم أمام الماكينة. فتحت علبة الشوكولاتة، وبدأت أوزّع عليهم: «تفضَّل شوكولاتة، الحمد للّه سأسافر!»، فراحوا يبتسمون، «الحمد للّه شُفِيت، وجاءتني تأشيرة من هيرمستا!»، فيفتحون أفواههم فرحًا وانبهارًا! «الحمد للّه أصبحت معافًى تمامًا، نعم هيرمستا، في العاصمة، أوتوليتكا!». يحتضنني أحدهم، ويصفّق أحدهم بودّ وحبّ، وتمسك النساء كتفي امتنانًا، تبرق عيونهنَّ فرحًا، ويلمسن رؤوس أبنائهنَّ الصلعاء، «خذوا شوكولاتة، خذوا، العقبى لكم، تُشْفَوْن وتَهْنَؤُون بالعافية قريبًا، وتلحقون بي في أوتوليتكا!»، فيقولون: «مبروك يا أستاذ، ربنا يدّيك الصحة»، «عقبى لنا يا رب، آمين»، «ادعي لنا بقى»، «ما تنسانا بتأشيرة أعزَّك اللّه!»، «أخي سبقك الأسبوع اللي فات، العقبى لنا جميعًا!»، فأدور بينهم، ولا أدقّق مَن يتكلّم ومَن يقول ماذا، كلُّها وجوه مرهقة

مبتسمة تهنّئُني، لا أرفع عيني في وجوههم، لأن ابن عمي نصحني وقال إنَّه ليس كلُّ الفرح يُفرح، فوجه الفرح على وجه صاحبه، إن كان صادقًا فصادق، وإن كان كاذبًا فكاذب، إن كان جبَّارًا فجبَّار، وإن كان مريضًا فمريض! وهذه الوجوه عندما تفرح ستَفْطِر قلبك! ابن عمي حكيم جدًّا، أحبُّه رغم أنّني لم أرَه إلا ثلاث مرات في حياتي؛ فقد ولد في هيرمستا، وتربَّى هناك، ولم يصبه أيُّ داء في عقله أو بدنه، إذ لم يختلط قطّ بثقافات وناس من هذا العالم المريض القديم، كلُّ سفره كان بين بلدان العالم الجديد؛ زاراتيسا، أفروديزا، أبولوماسكايا، وسواها.

درت على أكثر من رصيف، والناس يباركون، ويدعون لأنفسهم ولي، حتى وصلت إلى أحد الأرصفة، تقف عليه امرأة وابنها وكلبهما، أمام ماكينة واحدة تحقنهم بجرعات مختلفة، والطفل يبكي، في حين أن الكلب راقد يئنُّ، والأم تحتضن الولد. أخَّرت نفسي مع الناس نتحدَّث حتى أعطي الطفل وأمَّه بعض الشوكولاتة لأفرحهما، لكن طال الحديث قليلًا وضايقني رجل طويل عالي الصوت: «لكن ما الداعي من سفرك؟ سنموت في كلّ الأحوال! فمت في بلدك أكرم لك»، قلت: «لكن هيرمستا لا يموت فيها أحد!»، فهاج صوته: «كيف تقول ذلك؟! استغفر اللّه! الموت علينا حقّ!»، عبست، وشردت في صفوف الناس في الميدان على الأرصفة، ولمحت جسد طائرة عظيمًا يهبط بين بنايات قريبة، وفكَّرت أيُّ المطارات قريبة من هنا؟ وفكَّرت إلى متى سيظلُّ مِن الناس مَن يكفر بالعلم رغم أنه يشفيهم، العلم يمدُّهم بكلّ هذه الماكينات والجرعات والأدوية، لكنهم في النهاية يقلّلون من شأنه، استمرَّ يجعجع: «هل تحسب حقًّا أن وجودهم هناك في هيرموزا وصناعتهم الأدوية، سيجعلانهم يبرأون من الأمراض، أو يخلّدون؟!»، نظرت إليه في برود، وكرهت نفسي لأنني أتيت إلى رصيف عليه هذا الرجل! ردَّ عليه رجل هزيل: «أنت غريب، اسمح لي! كلُّ الناس يعرفون هذا الأمر! حماي مثلًا، سافر إلى هناك من ستين سنة، وقد كان مريضًا قبلها، سافر عندما كان عنده سبعون سنة، وهو الآن كالقرد، يتزوَّج كل عامين أو ثلاثة!»، وقالت امرأة: «نعم، هناك الناس خالدون، كيف تنكر هذا؟!»، فضرب الرجل كفًّا بكفّ، وصاح، حتى التفت الناس إلينا من الطرف الآخر من الميدان: «أستغفر اللّه! كلُّ من عليها فانٍ يا إخوان!»، وهزَّ ذراعيه في عصبية! فقال شابّ: «ماذا تريد؟ هذه سخافة يا حضرة! نحن نعيش على أمل أن نهاجر من هذا العالم المريض الساقط، ونهرب من الموت إلى الخلود هناك! وأنت تجعجع بكلام مريض مثلك ومثل هذه الأرض»، وبصق على الأرض! فأعطيته قطعة شوكولاتة كبيرة، وفتح الرجل الجعجاع فاه يصيح: «لا حول ولا قوَّة إلا باللّه!»، فنزعت الشكولاتة من يده: «هذا خطئي أنّني أوزّع على أمثالك حلوى!»، ثم أعطيت الشوكولاتة للشابّ الفاهم! فابتسم لي، وقضمها وهو يضحك! نظرت إلى الطفل وأمّه

والكلب، كانت عابسة، وجهها أحمر كأنها ضجرة من حرارة الجوّ، وابنها يبكي بهدوء ساندًا رأسه إلى خاصرتها، وهي تربّت على كتفه، والكلب يَنْهَج من الإعياء. قلت للرجل الجعجاع: «لو تريد أن تموت أنت فمت كما تشاء في الأرض التي تريد، لكن دع الناس يعيشوا كما يريدون، ويخلدون في أيّ أرض! إنها إرادة لو تدري! إرادة بشرية!»، فصاح وابتعد عني: «لا حول ولا قوَّة إلا باللّه! لا حول ولا قوَّة إلا باللّه!». ضحكنا، ووزَّعت الشوكولاتة على الناس مرة أخرى، وبدأت المرأة تفكُّ المحقن عن ذراعها، ثم ساعدت ابنها كذلك، وحضنته حتى هدأ، ثم الكلب الذي ارتجف بين يدي ولدها ونام. اقتربت منهم مادًّا علبة الشوكولاتة: «تفضَّـ...» فضربتها بظهر يدها صارخة: «وقح فظّ! اذهب إلى مصيبة!»، وتناثرت الشوكولاتة في كلّ جانب، ونزل بأدب بعض الناس يلتقطونها لي؛ لأنني كنت مذهولًا، جفَّ حلقي من الصدمة، والغضب، والإحراج! قالت امرأة أخرى: «إخص! قليلة الذوق!»، وصاح الشابُّ الفاهم: «هل أنتِ مجنونة؟!»، وتقدَّم ووقف جواري، فالتفتت إلينا، وابنها ظلَّ ممسكًا بيدها والكلب على ذراعه الأخرى، لكنه لم يعبأ بأيّ شيء، ظلَّ يحدّق بعيدًا مولينا ظهره، صاحت: «بل أنتم المجانين، مغفلون، حمقى، تساقون كالبهائم!»، لم يفهمها أحد، فصرف بعض الناس أبصارهم عنها، وغمغم آخرون استنكارًا، تشبه العفريت، عيناها على اتّساعهما، ولا شعرة وحيدة في وجهها أو رأسها، صفراء، رمادية، أنفها غارق في النمش، احتددت عليها: «هذا خطئي أنني أوزّع على أمثالك الحلوى!». وحاول الشاب الفاهم أن يسحبني بعيدًا عنها، فصاحت: «حلوى؟! حلوى؟! نموت كلَّ يوم في الشوارع مثل الكلاب، في الطوابير، كي نحيا نحن وأطفالنا، ثم تقول لي حلوى؟! حلوى ماذا؟! حلوى أنك عنصري؟! حلوى أنك تنضمُّ إلى عالم يحتقرنا ولا يتقبَّل منا إلا مَن يبرأ من المرض؟!»، فصاح الرجل الجعجاع: «إي واللّه هذا حقيقي! يروّجون الرفاهية في الهجرة لهم، ثم لا يقبلون منا إلا من أضاع ماله وحاله في شراء الأدوية والماكينات والأطعمة التي تُنتَج عندهم! لو يريدون فعلًا أن يضمُّونا إليهم، لأخذونا عالجونا عندهم!». وأشاح لي بذراعه، فوافقته المرأة بحزم: «بالضبط! لكن هؤلاء الكسالى يحبون الوهم يا أستاذ!»، فصاح الشاب الفاهم: «كيف يأخذوننا ليعالجونا عندهم؟! ترضى أنت أن تنفق على رجل لا تعرفه من دون أيّ علاقة بينكما؟!»، فصاحت المرأة: «لا، لكن لا تضحكوا علينا ولا على أنفسكم، إنهم يحتقروننا، ونحن نحتقر أنفسنا، رغم أنَّ مرضنا هذا لا يَعيبُنا في شيء كي نخجل منه!»، فصحت: «ومن قال لك إنَّ أحدًا يخجل من المرض؟!»، فقالت: «لماذا إذًا تريد أن تغادر هذه الأرض عندما تشفى؟ ولماذا يريد كلُّ واحد منكم أن يغادر بعد أن يُشفَى؟! إنكم تحتقرون أنفسكم!». ظلَّ ولدها شاردًا بشيء في السماء، بينما رخى كلبه أطرافه فتدلَّت من بين يديه، وكان الميدان يتابع تصايُحَنا، وقرقرة الماكينات لا تتوقَّف، والسماء تقطر في خفوت. صاحت امرأة بدينة في الخلف: «عندك حق يا أختي واللّه، زوجي

طلّقني وهاجر عندما بَرِئ، بعثت إليه امرأة أفروزية بتأشيرة لها، وتزوَّجها هناك، وترك لي المرض والعيال!»، فصاح الرجل الجعجاج: «سافل! رجل سافل نذل! سيندم، وكلٌّ من على شاكلته»، ورمقني: «سيندمون، لأنهم يتبعون أوهام الخلود التي يروّجها العالم الجديد!»، فأمسك به الشابُّ الفاهم من كتفه وصاح: «أنت رجل وسخ! تريد أن تحبطنا، وتقتل الأمل بتُرَّهاتك! لم يعد هناك موت، الموت هنا فقط لأمثالك، وأمثال تلك المرأة الساقطة، العالم الجديد بُنِي على العلم، والعلم وصل إلى الخلود، إنهم لا يموتون! وليس هناك أدلَّة أفضل من أعمارهم!»، صرخت المرأة وسقطت فجأة جوار ابنها، وصاح رجل: «كان عيبًا أن تسبَّها يا ولد!»، فارتبك الشابُّ الفاهم، ولم يتحرَّك، هُرِعت النساء لنجدتها، بينما لم يشعر ابنها بشيء، ظلَّ ينظر إلى أعلى، يحتضن الكلب بذراع، وذراعه الأخرى خلفه في يد أمّه التي سقطت، صار وجهها بلا لون، وشفتاها زرقاوين، وسال من فمها سائل أصفر. تقدم رجل مسنّ، وقاس النبض والضغط، وحنى رأسه، وربَّت على رأس الصبي، وذهب! صرخت النسوة، بينما ارتجف الشابُّ الفاهم، وبدأ يتراجع، ثم جرى يصرخ: «لا، لا، لن أموت! لا، لا، لن أموت!»، وسمعنا صوت سارينة الإسعاف من على طرف الميدان الآخر! بحثت حولي عن أيّ مكان لأشتري بعض الماء.. متى أذهب من هذا العالم؟! ضرب السماء رعد مرعب، وتضاربت السحب.. وصلت الإسعاف وحملت المرأة. أشار رجل يبكي إلى الطفل، فحاول أحد المسعفين أن يسحبه بحنان، فالتفت الطفل إلينا، وابتسم، ولمع فكّه الكبير، فكٌّ كامل كبير لا يناسب سنَّه، ثم أشار إلى الأعلى، فوجدنا القمر يقترب، وتنبعث منه برودة، ثم ضحك وصاح: «هناك، هناك»، فوجدنا على الأشجار بوماً عماليق يتبوّلون علينا من دون أن نشعر! ضحك الولد وصَعِد سيارة الإسعاف مع أمّه الميتة، بينما انزلق الكلب من يده ميتًا! نظرت إلى القمر فوجدته يضغط برفق على أسقف البنايات والأبراج، فتتفتَّت، واصطدمت به طائرات فانفجرت، وفجَّرت بنايات، صاح الناس في الميدان، وفزعت! أيُّ حظّ هذا؟! سأسافر خلال أيام إلى الخلود! ركضت وأنا أتَّصل بابن عمّي، لم يردّ، عاودت الاتصال، فلم يردَّ أيضًا، يهبط القمر بهدوء ويدعس البنايات، ويهرب الناس المرضى في كل اتّجاه، ولا يردُّ ابن عمّي، سأموت خرب اللّه دارك وعيالك! عاودت الاتصال فلم يحدث شيء. وصل القمر حتى لامس سطح الأرض، وجَمَّد كلَّ ما حوله من ناس وركام بنايات وماكينات كيماوي ومحالّ وشوارع، حتى أنَّ برودته وصلت إلى الحارة التي وصل بي الركض إليها، فاهتزَّت الأرض من التلامُس الرقيق، وصدر صوت وتر عظيم، ثم بدأ يصعد مرة أخرى بهدوء. وقفت وحدي في الحارة أراقب الضوء والبرودة ينقشعان، واهتزاز صوت الوتر العظيم يخالطه ركض الناس، وبكاؤهم ودعاؤهم. وما إن بلغ نصف المسافة إلى السماء، حتى رعدت مرة أخرى بشدة، ثم سقطت من السماء دماء هادئة، حمراء قانية لزجة، وتعالى من كلّ جوانبِ المدينة

الصراخ، ثم دقيقة، وسقطت أمامي جثّة، ثم جثّة، وفوق رأسي جثّة، تمطر جثثًا من كلّ اتّجاه! صرخت وركضت، وصوت تراكم الجثث يغالب صوت الصراخ في المدينة. رنَّ هاتفي، ابن عمّي، فرددت عليه وأنا تحت الجثث: «حرام عليك! أين كنت؟!»، فجاء صوت غريب: «البقاء للّه، مات ابن عمّك!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإنس

السماء تمطر عُشَّ الغراب، والقليل منه فقط ينفجر على أوراق الشجر، والعشب، والصخور أو البيوت، قليل من أطفال البشر يضحكون ويلقون الفطريات الصغيرة بعضهم على بعض، يرتدون جلابيب قصيرة لا تكاد تصل إلى ركبهم، الفتيات منهم يصرخن، وتصيح أمُّ أحدهم من بعيد: «احترز يا ولد يا ميمي، الفطر الأسود يفرقع يا ولد»، ويركض بعيدًا على التلّة الخضراء ذئبان، سماء الظهيرة وردية كالعلكة، وكتفي وترقوتي وألْيتي اليسرى تؤلمني، العريف شكرافيه الملعون لم يرضَ أن يوصلني إلى داخل البلدة، قرَّر أن يذهب إلى مدينة مجاورة، الصلصالة، ليقضي ليلته هناك، قلت له: يا عريف شكرافيه ألن توصلني إلى الداخل؟ هل ترضى أن أسير كلَّ هذا الطريق وعُشُّ الغراب يسقط على ظهري؟ فهزَّ رأسه في ضجر: يا عسكري، أوصلتك إلى قريتك، ماذا تريد إذًا؟ فقلت له: أسير وأنا متجسّد إلى الداخل كلَّ هذا الطريق! وماذا ستفعل في الصلصالة؟! فشتم وهاج. أوقف السيارة وعاد إلى جسده، وتطاير الشرر من عينه وملأ دخان صدره السيارة البيجاسوس، وشتمني وطردني، فهبطت مضطرًّا، ولوَّحت له بقبضتي، وصحت والبيجاسوس تتحرَّك: سأخبر العقيد بوزول أنك تذهب لتنام مع نساء البشر يا بن البيخوتة! وسرت صاعدًا ناحية البلدة!

بلدتي اسمها الرقطاء، استوطنَّاها في بداية الحرب، تقع في محافظة الذنيباء في أقصى الغرب من زاراتيشا الكبرى، وهلك جدود كثيرون حتى باتت لنا تقريبًا، لكنَّ البشر مؤذون ولا يرضون بهزيمة. بنوا قرية صغيرة خارج الرقطاء، وسمَّوْها أَمَة آدم، ليضايقونا مثلًا! بُلَهاء! ووضعوا مراصد لنا وذئابًا يحرسونها، فلو مرَّ منَّا أحد على طبيعته غير متجسّد؛ احترق. الأسبوع الفائت، احترق طفلان تسرَّبا من بيتيهما في لهوهما. لا أعرف ماذا يريدون، ملكوا الأرض آلاف القرون، ورتعوا، ما المشكلة لو شاركناهم؟ جشع! أفّ.. التقيُّد بجسد الإنسان شيء مرهق، لا أدري كيف يتحمَّلونه! هممممم.. بل كيف يفخرون به! صلصال متحرك، يكاد يتداعى وهم يركضون، خصوصًا في الحرب، هه! خرجت أرنب من حفرتها، وقضمت العشب وتنفَّست تتأمَّل عُشَّ غراب أحمر صغيرًا تتشقَّق مظلَّته المنقَّطة بهدوء، ليخرج منها فرخ أسود مرقَّش بالأزرق، يغرغر بسعادة! آه! جميل! لا أفهم ما يجعل هذه الغربان أقلَّ من الصَّلصال! جرت الأرنب، واحتضنت الغراب الصغير، وأخرجت ضَرْعًا صغيرًا وأرضعته، ابتسمْت، ولولا خوفي أن يتأذَّى لمسَّدت رأسه. وقبل المنعطف الثاني، خرج لي من حفرة أصأص الأفعوان!

قال: «همعانول سمعناول ابن شمير، ما أخَّرك يا صبي؟!»..

لفَّ نفسه في دوائر، واستقام حتى واجهني، ثعبان كبير كهذا لا يأتيني في أول الطريق إلا إذا كانت هناك مصيبة، يحرّك رأسه يمينًا ويسارًا ليتفادى الفطر المتساقط، ولسانه أسود يطرف منه بقلق، يحدّق إليّ بتركيز، بينما أتلفَّت ناحية الرُّبى لأرى هل ترصدنا الذئاب؟ أم ما تفعل؟ قرقعت السماء، وجرت سحب حمراء أمام قرص الشمس النبيذي، وارتفع نقر الفطر على الأرض، تن تن تن تن، وانتشرت فرقعات صغيرة من كلّ جانب، وصار أصأص يدور كإصبع كبيرة ويصيح: «هيَّا أسرع، ما أخَّرك؟! السماء ستكفُّ عن القصف الآن، وسيأتي البشر ليحصدوا الفطر والغربان!».

قلت له وأنا أضبط مظلَّتي: «العريف شكرافيه الملعون تركني عند أول الطريق ليذهب إلى بواغي الصلصالة، فاضطررت أن أسير كلَّ هذا الطريق!». اقترب مني قليلًا، وضمَّ جسده تحت المظلَّة، كانت شفَّافة وردية، تنتشر فوق سبعة فتكفيهم أيَّ مطر.

فَحَّ: «شكرافيه ابن السوافر، سأتتبَّعه وأبعث التقارير إلى بيرمودا كي يتصرَّفوا معه! المهم، قد جئت أحذّرك! البشر أمامك عند المنعطف القادم، وضعوا كمينًا! ولو لم يكن معك أوراق فسيرسلونك إلى المحاكمة! فارجع وتخلَّص من حقيبتك عند أول الطريق، ثم عد إلى جسدك ودر حول القرية من خارجها، أو اصعد قليلًا إلى السماء، ومرَّ من فوقها!»..

تلجلجت، وارتعشت المظلَّة في يدي: «لكن كيف؟! الحقيبة مهمَّة، لا أستطيع أن أتخلَّى عنها!».

«يا أحمق، القانون واضح؛ ساعة الحصار، كلُّ شيء رخيص في سبيل نجاة جِنّي واحد! قلت لك اهرب! هذا أمر!».

تذمَّرت: «لكن يا أصأص ليس لدي قدرة على الطيران فوق القرية والسماء تمطر كلَّ هذا الفطر! وساعة والغربان ستملأ الساحة!».

«إذن عد! عد ودر حول القرية!».

«بعد كلّ هذا المسير؟! كلَّا، كلَّا، هذا مستحيل! والذئاب تملأ الطريق! أنت ثعبان؛ تستطيع التملُّص منهم، أمَّا أنا فلو وقعت عين أحدهم علي لأصبت بالشلل!».

فَحَّ وضربني برأسه ثلاث ضربات: «عكراهم وسخ جِنّي جبان! جبان يا سمعانول، وسأكتب بك تقرير هروب وعصيان إلى بيرمودا، وسيحرقونك! قلت لك عد!». ضرب السماء صفير خاطف، ثم وقع انفجار عنيف بعيد، تردَّد صداه عميقًا مكتومًا، فارتجَّت الأرض! صحت: «ما هذا؟!».

تنفَّس يتأمَّل السماء من تحت المظلّة، وهمس: «غبي! قلت لك إنك أحمق وستضيع اليوم! هذا شهاب! الجوُّ اليوم مخيف!»، وسمعنا زغاريد من البيوت والمزارع، فقال: «ها؟ هل تريدهم أن يزغردوا على جثَّتك يا سمعانول؟ هيَّا يا جندي، عد ودر من حول القرية!».

«طيب! سأقول لك شيئًا، سأتجسَّد حمارًا أو حصانًا و...».

قاطعني: «عكراهم والطاووس الحي، عكراهم غبي لا تفلح! لو رآك طفل بشري في صورة حمار أو حصان، سيجرُّك خلفه! هل رأيت حمارًا قطّ يسير وحده وسط قرى البشر، ويحمل حقيبة جنود مثل هذه؟!»، نطحني في صدري! «لولا أنك ابن عمي لعقرتك وتخلَّصت من غبائك!».

توهَّج رأسي من الإحراج، ضحكت: «طيب ذئب؟».

صاح: «يا أخي قغرا! ذئب؟! أنت تريد أن تموت اليوم! الذئاب تشمُّ بعضها بعضاً وتفهم بعضها بعضاً من دون كلام، فلو مررت بجوار أحدها لعرفتْ ما أنت وقتلتْك فورًا!».

«نعم نعم، هذا صحيح! طيب.. سأقول لك!». تحمَّست: «البشر هنا من الجبت! والجبت يحبُّون السَّيَّاح؛ سأتجسَّد في صورة رحَّالة رومي! وسيكرمونني ويجعلونني أمرُّ! لقد لاحظتُ هذا فيهم! أليس كذلك؟!».

ضيَّق عينيه، وراقب السماء والأرض من حولنا، الفطر قلَّ، والسماء بدأت تعود إلى زرقتها، «إذن هيَّا بسرعة، هيَّا قبل أن يخرج العيال، أو يفقس الفطر! الغربان التي تخرج من الفطر الكبير لن ترحمك لو لمحت ذيلك!». لا أعرف لماذا يكره الغربان! دقَّق بي قليلًا: «لكن سأدع لك فرصة أخرى قبل أن أبعث بتقريري إلى بيرمودا! لقد أحببت فكرة الرومي تلك.. سأذهب!». وانسحب إلى حفرته بسرعة، وقبل أن يختفي التقط أرنبًا رماديًّا. تنهَّدت، وتخيَّلت روميًّا طويلًا أشقر لفحته شمس السفر، وغبار ملتصق على جبهته، ثم تحوَّلت!

هدأت أمطار الفطر تمامًا، وملأت رائحة الملح الطريق، وتكسَّر عُشُّ الغراب من كلّ جانب. سرت لا أتلفَّت حولي وأصوات الرجال تأتي من كلّ حَدَب، سيجمعون الفطر في أَجْوِلة. أركّز في الحشائش التي تبدو كشعر جسد الإنس، خفيف متفرّق، عشوائي أحيانًا، منتظم كثيف أحيانًا أخرى. في الماضي كانت جزرنا البحرية ممتلئة بأعشاب مثل تلك، كنت أسأل أبي: لماذا نعيش هنا؟ فيُطْرِق قليلًا في السماء، ويقول: «على قدر أموالنا! أبناء آدم سرقونا!»، فكنت أنظر إلى ما ينظر إليه في السماء، فيحجب عيني، ويهمس: «لا تنظر، لا تنظر؛ السماء خطيرة!»، فكنت أتعجَّب؛ لماذا نحيا لو أنَّ السماء خطيرة والأرض فقيرة؟! اقتربت من المنعطف، وبرز لي حذاء أسود ثقيل،

ركّزت في طرفه، حتى استشرفني عريف بشري في ملابس غامقة، له بطن كبير، ويدخّن: «أوراقَك يا خواجه!»، كان صوته غليظًا، ولسانه ثقيلًا، ورائحة أنفاسه نتنة، استجمعت تركيزي وقلت بلغة ركيكة: «هاللو، أنا سائيه، توريست، ألفّ العالم وأنظر جماله!». سحب نفسًا عميقًا من السيجارة، وراقبني بعينه الضيّقة، قال: «سايح مش سايح مش هتفرق! إحنا في حالة حرب ولازم أشوف ورقك! افرض كنت من العدو!»، ثم نظر إلى زميل له يشرب الشاي: «ولا إيه يا حا-صول شمندي؟ بقول للخواجة يعني إنّ البلد بلده، بس لازم ورق!»، ونظر إليَّ: «بيبرص! عاوزين يور بيبرص! آي دي يا خواجة لو فاهم! جاك نيلة فحل جاموس!»، هززت رأسي نافيًا كي يفهم أنني لم أفهمه، وكرَّرت: «أنا رهَّالة، أدور في العالم أديسكافر إفري ثينج!»، أنهى السيجارة وألقاها فجأة، دعسها بعنف: «يا عمّ ما تدوشناش! منتاش معدي! انت منين أصلك؟ شكله أرميني وربّنا!»، فتلجلجت: «نو نو، آي آم رومان، من أميرجوس!». فانتفض زميله شمندي، وأخرج من تحت مقعده بندقية وصاح: «اجمع كتيبة، اجمع كتيبة! عدو عدو!»، وللحظة حسبت أنَّ أمري انكشف، لكنَّ العريف السمين أمسك بتلابيبي وقال: «وبتقولها عادي كده يا بن الكلب؟! أمريجوس عادي كده؟! أما جاسوس غبي صحيح!»، جاسوس؟ الجبت يحاربون الروم الأمريجوس؟ نظرت خلفي، ناحية حفرة أصأص، لكنَّ كلَّ شيء كان غارقًا بالبشر الذين يجمعون الفطر في أَجْوِلة، والغربان في أقفاص! لا بدَّ من أن يبعث إلى بيرمودا بمعلومة كهذه! فلو حارب الجبت الأمريجوس، فلماذا نحاربهم؟! ألا يكفي أن نوسوس لهم بأن يقضي بعضهم على بعض؟! واشتعل صدري نشوةً عندما خطر لي أن أترقّى بفكرة كهذه بسهولة، ويصبح شكرافيه خادمًا لي، هو العقيد بوزول. لكن كيف أفلت من هذا الثور؟! صاح: «يا حا-صول شمندي! هو الروماني الأمريجوس ده مش حكمه الإعدام؟ ولّا نرميه لحصان السفنكس يعضعض فيه؟ معلش الأوامر لسَّة جاية من شوية، ما هي الحرب بينَّا وبينهم ما بقالهاش غير نصّ ساعة!»، صاح شمندي في الجنود: «هوب هوب هوب.. شمال شمال، عمودا سلاح.. هوب هوب هوب، لا يا حا-صول سيد، هنبعته نحاكمه مع إخواته! هو قال لك كان جاي هنا ليه؟»، التفت إلى شمندي: «بيقول لك جاي يسوح هنا! بيتمهزأ بينا ابن المفقوعة! يا حسرة هي فين الأثارات دي؟!»، فتحوَّلت قبل أن يعود برأسه إلى هندي، فلما نظر إليَّ ثانية، انتفض إلى الخلف يدفعني عنه ويصيح: «أعوذ باللّه أعوذ باللّه! أنت خلقتك ما لها قلبت كده ليه؟! شفت يا شمندي؟!»، صاح شمندي في الجنود: «قف، ما لك يا سيد، بتنتفض ليه كده؟! ما له الراجل أهو واقف بطوله! بس ده هندي، أنت قلت رومي ليه من أمريجوس؟»، فأمسكني من ياقتي: «أنت ليه قلت إنك روماني من أمريجوس يا جدع انت؟»، فهززت رأسي: «لا عمُّو، مش قلت إني رومانوس، أنا هندو عمُّو!»، فصاح شمندي: «معتادا مارشا، وأخرج سيفًا من اللاشيء

خلفه، وأشار به ناحيتي، وبدأ يردّد: «هوب هوب هوب هوب»، فردَّد خلفه سيّد وهو يصفّق في حماسة: «هوب هوب هوب هوب»، وتحرَّك الجنود الثمانية في مربع يدبدب ناحيتي بغشم، ففرقعت أصابعي على وقع «هوب هوب» سيّد وشمندي، أُرقِص ذراعيَّ مبتسمًا، وفرقعة أصابعي تنسجم جدًّا مع ترديدهما ودبدبة الجند، نعم، الإنس يحبُّون الدعابة، التملّق والدعابة، ابتسم سيّد فعلًا، فأضفت إلى المارش العسكري المتواضع موسيقى فموية: شك شك شك شك شك، واهتزَّ رأسي مع ذراعي، فصاح سيّد بكرشه جذلًا: «آه يا وله!»، حاوطني الجنود، واحمرَّ وجه شمندي من ثقل السيف الممدود على امتداد ذراعه، فكان تمثالًا عسكريًّا لفاتح بشري من القرن التاسع عشر يردّد بلا توقف: هوب هوب هوب، استجبت فورًا لاستجابة سيد، وأنشدت: «أيوة يا حا-صول سيد!»، وبدأت بالرقص والدوران حول نفسي، والجنود الثمانية في حلقة حولي ينظمون الخطوة، كأنهم يمشون في أماكنهم في انتظام، جاء صوت من الخلف يزمجر: «بطّلوا مسخرة يا بهايم واقبضوا عليه!»، حاولت أن أستطلع، فلم أدرِ إلا بالثمانية جنود قد ألقوا أنفسهم عليَّ كأنهم يقفزون في بحيرة، اختنقت وأنا أصرخ، وصاح سيد: «أحسن شباب، اقبضوا ع الهندي النجس ده، عشان نحوّله لغرفة الإعدام!»، فححت بصعوبة، لعن الربُّ أجسادهم الطينية تلك! «ليه عمُّو؟! أنا هندي فقير عمُّو!»، فقال شمندي باتّزان، مستندًا إلى سيفه: «يقضي قانون الحرب السابع والثلاثون بعد المئتين، أن تُقتَل كلُّ الأعراق النتنة والنجسة فورًا كالحشرات، وعلى رأس القائمة يا تُرى ستجد مَن؟»، ثم نظر مبتسمًا مضيء الوجه إلى سيد: «ستجد مَن يا حا-صول سيد؟»، فحكَّ سيّد ذقنه بسبَّابته، وفكَّر متعسّرًا: «يا ترى مين؟»، وأطرق يفكّر مقلّبًا عينه في التراب! سمعت عُشَّ الغراب يتكسَّر تحت رأسي، وصأصأة خافتة تنوح منه، بدأت أفكر في الهرب من هؤلاء الحمقى، لم يكن في حسباني قطّ أن يكون الأمر بهذا السوء! أمَة آدم تلك قرية طفيلية! لا بدَّ من أن أرفع طلبًا إلى بيرمودا كي نتخلَّص منها! قرَّرت أن أختفي في أنسب لحظة، سيّد ما زال يفكّر: «يا ترى مين؟ يا ترى مين؟»، وظهره ينحني كلَّما فكَّر، فضربه شمندي عليه وصاح: «جرى إيه يا سيد؟! أنت مش حضرت فرقة قانون حربي ولا إيه؟! الهنود! الهنود في أول القايمة بتاع القانون ميتين سبعة وتلاتين!»، قاطعهم الصوت المزمجر ثانية مقتربًا: «مسكتوه يا لمامة؟!»، فانتصب شمندي ضامًّا السيف إلى ساقه، رفع رأسه إلى السماء، ثم عقيرته: «تمام يا فندم! قبضنا ع الجاسوس الهندي حالًا يا فندم! وكنَّا بنُلقي عليه بيان الإعدام حالًا يا فندم».. تيبَّست أطرافي وتشنَّجت عندما نظرت إلى صاحب الصوت المزمجر، كان ذئبًا طويلًا، أسود، يرتدي حُلَّة عسكرية كاملة، ورأسه يصل إلى رأس شمندي، أنزل خطمه ناحيتي ببطء ثم عوى، صرخت وجسدي لا يتحمَّل الجسد البشري، لكنّني مشلول أتشنَّج، لا أستطيع التحوُّل أو الاختفاء! صاح: «هندي إيه يا اولاد الكلب يا بهايم؟! دا جِنّي

يا عُمْي يا...»، قاطعتْه فورًا ولولة سيد: «يا لاااااهوي... يا لاااااهوي، عفريت عفريت عفريت!»، وبكى كالممسوس، ثم جرى! ضحك الجنود ووقعوا من فوقي، فلم أنتظر حتى أعرف ما في وجه الذئب من صدمة؛ هذه فرصتي، اختفيت وصعدت إلى أعلى نقطة لا تصل إليها عينه الخبيثة.

اختبأت داخل سحابة وردية تبقَّت من المطر، السماء صافية أسفل مني، لكن فوقي مريبة، ضبابية قليلًا، وكأنَّ شيئًا يتحرَّك في صدرها. تابعت الكمين، كان الجنود يتلفَّتون يبحثون عني، بينما ألقى الضابط الذئبُ قبَّعته على الأرض، وبدأ كما يبدو ينبح ويشير ناحية سيّد الذي يركض ناحية أَمَة آدم، تحوَّل شمندي ناحية هرولة سيد، ورفع سيفه مشيرًا يصيح بأصوات غير واضحة، فركض الجنود خلف سيد، ليدركوه، وتحوَّل الضابط الذئب ناحية السماء يمحصها، فانكمشت داخل السحابة أكثر، أتلفَّت حولي خشية الشهب. مطَّ خطمه، وعوى عُوَاءً وصل صداه إليَّ فضعضعني، فرأيت أربعة ذئاب تقترب في حلل سوداء ببطء، أحاطت بالكمين من بعيد تراقب. أتى الجنود بسيد يلطم ويبكي، ورغم ذلك، ظلَّ شمندي رافعًا سيفه بلا حركة من الناحية التي ركضوا إليها ثم أتوا منها. أشار الضابط الذئب ناحية سيّد بعنف، فأسقطوه على أربع، وقيَّده أربعة، بينما خلع الآخرون عنه بنطلونه، ثم أمسك أحدهم بخرزانة، وبدأ يجلد ألْيتيه الكبيرتين! يتشنَّج جسده فأضحك. تحرَّكت السحابة قليلًا، فتحرَّكت معها كي لا يظهر مني شيء، ثم فكَّرت في أنها لو تحرَّكت من دون أن تنقسم أو تنهمر، لوصلت إلى الرقطاء ليلًا، فارتحت إلى وجودي فيها، ثم تابعت جَلْد سيد، وسقط السيف من شمندي، لكنه ظلَّ واقفًا بلا حركة، محدقًا ناحيةَ أَمَة آدم، في الطريق الذي أراد أن يهرب إليه سيد. عادت الذئاب ذات الحلل السوداء إلى مواقعها بعد أن أصابها الملل، وأوقف الضابط الذئب جلد سيد، الذي قام يعدّل ملابسه، ثم قبَّل مخالب الضابط الذئب، وعاد فجأة إلى حيويته، يدخّن، ويشير إلى الجنود بالأوامر. ذهب اثنان منهم إلى شمندي، حملاه مثل التمثال، وعدَّلا أطرافه على وضع الجلوس، ثم رشَّاه بالماء، فانتفض يصيح بشيء ما، ويضرب الأرض في خطوات عسكرية ثابتة. قرقعت السماء من فوقي، قرقعة بعيدة مريبة لن يسمعها أحد في الأسفل، وصفَر شيء فيها كأنه يدور في الأعالي، بُروق صفراء بلون النار أو الشمس، خلف غمام، رفرفة أجنحة عملاقة من بعيد، وزوابع، لا نسمعها في الأسفل، انكمشت أكثر في السحابة، وخوفي يزيد من أن تمطر، نظرت إلى الأسفل، وجدتهم يُسقِطون على الأرض رجلًا زنجيًّا كالطين، أسنانه البيض تبدو من تحت أحذيتهم، وأشار شمندي بسيفه، فأسقط جندي على رقبة الزنجي بَلْطَة ذهبية، فضربتْ وجه سيّد نافورة من الدماء، فضحك الجنود والضابط الذئب، فلوَّح لهم غاضبًا بذراعه، ودخل حجرة جوار الكمين. سحب جنديان جثَّة الزنجي، في حين انكمشت لمَّا رأيت مَلَكين يقفان على عنق الزنجي، ثم

صَعِدا، وسار الجنديان في كسل ناحية التلال الخضراء، حيث تقترب في فضول بعض الذئاب تتشمَّم الهواء وألسنتها تتدلَّى، سمعت دَوِيًّا غريبًا حولي، نظرت، وجدت السماء تمطر، صوت المطر غريب من هنا، كان مطرًا أسود كالمعتاد وليس فطرًا. ركضت الذئاب عندما رأت الجنديَّين والجثَّة، عاد الجنديان وتركا لها جثَّة الزنجي. ثم حدثت جلبة وصل صوتها إلى ناحيتي؛ في المراعي كانت الغربان الكبيرة التي خرجت من الفطريات السوداء الكبيرة، التي لم تنفجر، تخمش وجوه المزارعين وسكَّان القرية، وحدث شيء لم أتبيَّنه، سقط على أثره الناس والأقفاص؛ فطارت الغربان في كلّ مكان، نعيق لا يتوقَّف يطغى على هَزِيم المطر الأسود.

تحوَّلت إلى غراب فورًا، وهبطت مع الأسراب أدور بين فرقها وأتابع. يلمع الريش من حولي من كلّ جانب، والنعيق ليس عشوائيًّا أبدًا، كأنها أوامر ومراسلات، أكبر الغربان كان في حجم الضابط الذئب تقريبًا أو سيد، وجناحه في طول الجثَّة المذبوحة. علت ظهره ورأسه نقط حمراء، ومنقاره أسود شديد السواد. انهمر المطر من كلّ جانب، وتجمَّعت البرك في كلّ المزارع، وبين التلال. تركت الذئاب من كلّ جانب كلَّ شيء، تركت التلال، تركت فنارات المراقبة، تركت الجثث في الكمائن، تركت صومعات المراقبة والمراصد، اجتمعت تركض، تعوي ناحية السماء، والغربان لا تطير عشوائية. قرَّرت المغامرة، وتمدَّدت في حجم غراب كبير، مرقَّش بالنقط الخضراء، واقتربت من الغربان الكبيرة في الأسفل، وهي تدور في حلقات ناحية الذئاب تخمشها، تصارعها بضراوة، فلم أتحمَّل الاقتراب أكثر بين الفريقين، فقرَّرت أن أفقد صوابي كجنّي مخلص، واستحوذت على جسد الغراب الأكبر، لبسته. جرت الذئاب ناحية التلال مرة أخرى، وصومعات المراقبة والمراصد، وبقيت قلَّة تحاول دفع الغربان، بينما انقضَّ غراب كبير أفحم على جثَّة الزنجي المذبوح، وأمسك آخر برأسه، ونعقت جميعها في حزن تردَّد صداه في التلال، وتحوَّلت المراعي إلى طين أسود متفحّم، فهمت نعيقها:

نصف ساعة فقط من إعلان الحرب، وقتلوا كلَّ هذا العدد في الكمائن؟!

نعم، في هذه المدينة وقراها قُـتِل عشرة آلاف!

2378 زنجيًّا.

1200 جبتي.

78 روميًّا أمريجوسيًّا.

982 أرمينيًّا.

342 تركيًّا.

كفى كفى، اجمعوا كل عِرق في جَبَّانة، عساهم يستأنسون في مماتهم بعد شتاتهم في حيواتهم!

إلى متى نعلّم أبناء آدم؟

ابكوا الغرباء والمشتَّتين!

هدموا العالم القديم، وبنوا عالمًا جديدًا بلا فائدة! لا يتغيَّرون!

إنها ساعة من ساعات الرؤيوان..

الرؤيوان لا ينتهي بموت العصور أو الشعوب، إنه يعود عند كلِّ نهاية!

نعم! الرؤيوان هو القبر الأكبر لشرور الناس!

هيا إلى تلك الجَبَّانات!

اقتربنا من جَبَّانات بين الرقطاء وأَمَة آدم، وبدؤوا بإلقاء الجثث بنظم معين، ثم هبطوا يردمون فوقها الطين. راقبت وجوه الجثث؛ بين رقاب مفصولة، وملامح متألّمة ثابتة إلى الأبد، صغار وكبار، يتشابهون في صفرة الموت والطين على وجوههم، رغم أنهم بشر، إلا أنَّ وجوهم ليست مضحكة، مثلما تكون إذا مسسنا أحدهم أو صرعناه! كيف لهذه الوجوه والأجساد الصلصالية أن تستأنس بنومة أبدية كهذه؟! تختفي وجوههم تحت ردم الغربان، وشعرت بدموع الغراب الأكبر، ولمَّا نظر ناحية اليمين، انكمشت في حوصلته مرعوبًا، بكيت لا أتمالك نفسي؛ فقد كان الملاك العابس الكبير يقف هناك. تسرَّبت من دبر الغراب، وتحوَّلت إلى ذبابة، أرتعد، أطِنُّ، وأتخيَّل أمي وعائلتي تنتظرني في الرقطاء! وأفكّر: هل نكتفي بما أخذناه من أرض البشر؟ أم علينا أن نستمرَّ في الحرب؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحرب

غُلِبت الروم في وادي «أصبهان»، فجلس العمُّ حميد بن حلاوة يضحك حتى كاد يفطس: «بنو عيص الكلاب! فرطهم التتر، اللّه ينصر دين أبيهم!»، فأغلق السيّد الشريف محمود آق رفعت صحيفته، ونظر إلى طربوش العمّ حميد الدراويشي الصغير وتنهَّد ثم تمتم: «ينصر دين أبي التتار؟! سيدي سيدي ع الدارفيشيتية!». حاول العمُّ حميد أن يستجمع صوته من الضحك، فسعل وشرب ثم قال: «اللّه حي! أليس التتر هؤلاء أبناء عمومتكم أيُّها العمُّ الشيخ آق رفعت باشا؟!». فتنهَّد السيّد الشريف محمود آق رفعت وسحب من نارجيلته نفسًا بهدوء، تأمَّل قليلًا النساوين وهن يشترين من عربات الجوَّالين أقمشة وفواكه وزيوتًا عطرية، ثم قال في هدوء: «نِحنا إخواننا مسلمين وفقط دارفيش ابن حلاوة!»، فبرق ما بقي من دمع الضحك في عين العمّ حميد، وسأل بعنف: «ليش يا شيخ آق رفعت؟ ألم يَرْمِ الملك المؤمن أبو القرنين إخوانكم يأجوج ومأجوج خلف السدّ، ومن تبقى سمَّوهم المتروكين أو الترك؟! وأنتم والتتر ترك!»، فعوج السيّد الشريف محمود آق رفعت فمه وقال للشيخ أمين حسون: «سيّد أمين، حضرتكم عالم من (عولماء) جامعات (توركية) إسلامية! قل لهذا الدارفيش ابن حلاوة إننا إخوة مؤمنون، وليس لنا علاقة بيأجوج ومأجوج!»، فابتسم الشيخ أمين: «سيدي محمود آق، عمّ حميد عم يقصد إنه يعبر عن فرحته بكسرة بني عيص لعنهم اللّه!»، فأومأ كأنه استمع لآي الذكر، بينما استمرَّ العمُّ حميد في الضحك. فأوليتهم ظهري، وجلست أتأمَّل الشارع، الناس هوام من كلّ جحر، يتصيَّدون الخبر من كلّ فم، يَلُوكُون أيَّ خبر وهم يتبايعون، يأكلون، يتحرَّشون، يتزاحمون، يصيح الرجل على الطماطم والجزر والبقدونس، ثم يحشر الخبر: «يا حلاوة الطماطم الحمرا، طماطم بدم الروم»، ثم يجري العيال خلف مظاهرات شبيبة كلّيات المعارف يقلّدونهم: «سحق الترك أبا الأصفر، فينه اليوم يجي يتبختر»، وتهتزُّ أعلام التتر الحمراء والبيضاء، بينما يلطّخون رايات الروم في النفط ثم يحرقونها، فتبدو كمشاعل الجند في عروض احتفالات نصر الوالي.

تقول الجرائد إنَّ الجيوش تقابلت في أودية أصبهان، وكاد بنو عيص أن يغلبوا الجموع: الفرس والنورسيين والهال والغال والسلاف والجبت السود! كلهم كادوا يُبادون بعد أن فرم بنو عيص صفوفهم، وتداخلت ألوان ملابس الجنود، فبات الفُرَقاء صرعى تحت أقدام بني عيص، مئتا ألف ألف عيصي أصفر أشقر، أذهَبوا بأس كلّ تلك الجيوش في ساعة لأجل أصبهان! جمعوا كلَّ بطونهم عندما تأكَّدوا من أنَّ ملكهم هذا محبوس هناك، نازعوا العالمين لأجل أن يكرموه. يقول الشيخ أمين: «يقول مولانا الشيخ سعيد الأحمدي إنَّ أحد الغراقدة أسرَّ إليه أنهم متحالفون مع بني عيص، أبناء عمومة، لعنهم اللّه، كما

تعرفون! وأخبره أنَّ هذا الملك من نسل أبيهم داوود، يقصدون سيّدنا داوود عليه السلام! لم أصدّق الشيخ «سعيد» رغم أنَّ الجامع الكعبي يمتلئ عن آخره يوم درسه، سألته: وهل بقي شيء من مُلك بني داوود؟! فعبس: «المسيح! المسيح يقصدون أولاد الكلب، أقصد المسيح ابن داوود، المسيح الدجَّال!»، ارتبت أكثر في الشيخ سعيد، «أيُّها العمُّ الشيخ؛ هل يحاربون لأجل ظهوره، أم تقصد يحاربون كي يدمّروه ويدمّروا أصبهان؟!»، فرفع إصبعه: «كلَّا يا أمين! بل ليخرج! إنهم أعداء اللّه!»، صمتُّ محتارًا أفكّر قليلًا، ثم عدت أسأله: «لكن لو أراد بنو عيص الكفَّار الفجَّار المعروفون بنجاستهم وفسقهم أن يُخرجوا الأعور، فما عارضتك! لكنَّ الفرس والهال والغال والنورسيين والسلاف وغيرهم، بل والجبت، كلُّ هؤلاء ذهبوا لينازعوا الروم فيه؟! غير معقول! أنت عم تقصد يا مولانا أنهم راحوا يحاربون العيصيين كي يدمّروا أصبهان والمسيخ!»، فقال في حسم: «كلَّا يا أمين! كلُّ هذه الجيوش تتحارب كي تحرّر الدجَّال!»، صفَّقت عجبًا، «يا شيخ! الجبت يريدون الدجَّال منشان يقودهم؟!»، فقال: «يا أمين، الجبت لا يحمكهم إلا الدجَّالون!».

صاح العمُّ حميد: «اللّه أكبر! بركات اللّه على معارف الشيخ الأحمدي!»، لكن لم ينتصر الروم! تقول الإخباريات إنَّ التتر نزلوا من فوق هضبة الصفح الأبوي كالثيران، سوَّوْا كلَّ شيء بالأرض! يقولون: «كانت الأرض هناك واديًا عظيمًا وسط ثلاثة جبال، محاطًا بغابات شجرية، والجيوش في كلّ الجنبات، كلُّ هذا أصبح قفرًا، أرضًا مشقَّقة، بورًا، ليس لها لون محدَّد، كلُّ عرق عاد إلى الطين على لون أصل تربته! ثم احتلّ التتر أصبهان!

كنت أعرف خبر مولانا الشيخ سعيد الأحمدي قبل أن يقوله الشيخ أمين، كنت نائمًا في الجامع خلف المنبر، وسمعت الشيخ يُسِرُّ بالأمر إلى عبد المتعالي آغا كبير نُظَّار الزراعات، فطار النوم من عيني، وشردت في تضليعات الزخارف على الحائط، أحاول أن أجد فيها ركنًا خبيئًا من عين الدجَّال الوحيدة، يقول أنا اللّه! إن صدق هذا الملعون، فعينه هذه ستجيء بي من حيث كنت، وإن كان كذَّابًا كما يقول الشيخ الأحمدي، فإذا وقعت تحت يده فسوف يأكلني! لم أنم، ولم أنم أيضًا عندما عدت إلى البيت، ودعوت اللّه الحقَّ أن يكون الشيخ سعيد كذَّابًا، وأن تكون الحرب لأجل أيّ شيء غير هذا الدجَّال!

قال السيّد الشريف محمود آق رفعت: «يا (ربّـ-ـو-نا)! إيش تقول تخاريف شيخ أمين؟! انت روخر تزبد ترغي كذبات ورا كذبات! اتقوا اللّه شيخ أمين! مسيخ دجال تقول أنت، ويأجوج مأجوج يقول دارفيش حلاوة! فين عقولكم يا ناس؟!»، فقال العمُّ حميد: «واللّه يا عمّ الشيخ آق رفعت هذه علامات الساعة! واللّه هو المنجي! اللّه اللّه!». مرَّ أمامي ظهير من الشبيبة، يحملون

رايات التتر، وفي بعضها تصاوير لمسوخ وعجماوات مخيفة، صاح العمُّ حميد وسبَّابته تسبقه خارج المقهى، تشير إلى المسوخ، نظر خلفه: «هذه علامة وربّ الكعبة يا شيخ محمود آق رفعت! العالم كلّه بيعرف إنُّه ياجوج ومأجوج من التتر!»، إذًا أين أذهب الآن؟ اختفى المسيخ الدجَّال بهزيمة الروم، لتخرج بدلًا منه أقوام من المسوخ الدجَّالة! وهذا كان بعين وحيدة، فما أفعل بألف قوم من فصيلته؟! ألف إله يسير على الأرض يكشفون مكاني في لحظة خروجهم! أو ألف كاذب لو وقعت تحت أيديهم لمزَّقوا عظامي كالدجاج! فصاح السيّد الشريف محمود آق رفعت: «آخ.. دارفيش حلاوة غشوم جهول ابن لعوب!»، فضحك العمُّ حميد، وبدأ يهتزُّ وسط الشارع بمنة ويسرة: «اللّه اللّه اللّه!»، فكان كراية بتراء وسط السوق لا يلتفت إليها أحد، ويصيح: «اللّه اللّه اللّه! سلامًا وصلاة على النبي العدنان وآله الطيبين!». توقَّف جواره ثلاثة زنوج، هزُّوا رؤوسهم استحسانًا، ثم تراصُّوا جواره، ورفعوا أيديهم للصلاة، وكبَّروا، اندهشت، ونظرت خلفي إلى الشيخ أمين، فوجدته يضحك، قال: «هالزلمات الحبش سذَّج! يصلُّون خلف تفقير عمُّو حميد!» ويضحك، والعمُّ حميد يفقر: «اللّه اللّه اللّه»، وركع الثلاثة: «اللّه أكبر»، ثم قال للسيّد الشريف محمود آق رفعت: «أرأيت يا سيّد آق رفعت دعوة الأنبياء؟! هذه دعوة نبي اللّه نوح على بني حام جميعًا؛ أن يكونوا حمقى عبيدًا لسائر إخوانهم! شوف كيف يصلون!»، ويضحك، فضحك الناس في المقهى، فنظرت إلى الزنوج، فقر العمُّ حميد: «اللّه اللّه اللّه»، فقاموا: «سمع اللّه لمن حمده!»، أكمل الشيخ أمين: «كنعان هو مَن أهلكهم! هل يجوز أن يسخر الرجل من جده، خصوصاً إذا كان نبيًّا؟!»، صاح السيّد الشريف محمود آق رفعت مفزوعًا: «تخاريف تخاريف! خسارة تعاليم إسلام ومعارف نورانية!»، وصفَّق يديه! فانتفض العمُّ دهشوري النوبي، وصفع الشيخ «أمين»، وخرج يصيح: «مثل هذا الكلب أضاع الدين!»، عدَّل الشيخ أمين عمامته، ووجهه متوتّر من العصبية والإحراج، قال: «لا يكرم نبي في قومه.. لا يكرم نبي في قومه»، والعمُّ حميد يتسارع: «اللّه اللّه اللّه»، ومن خلفه، لا يستطيع الثلاثة مجاراته، فباتت صلاتهم سباقًا في القيام والركوع والسجود كي يجاروه، وهتف الشبيبة: «يسقط يسقط حكم الروم!»، فقال السيّد الشريف محمود آق رفعت يواسي الشيخ «أمين»: «لا تحزن، لكن كان عليك ألا تسبَّ الزنج! حتى إنهم يصلُّون مثلنا!»، فصاح الشيخ أمين: «إيش عم تقول سيدي آق رفعت؟ أهذه صلاة المسلمين؟!»، فشهق السيّد الشريف محمود آق رفعت: «عجايب! وهل تفقيرات دارفيش حلاوة وتطويحاته صلاة مسلمين؟!»، عبس الشيخ أمين: «الشيخ حميد ولي من أولياء اللّه!»، فزع السيّد الشريف محمود آق رفعت: «اللّه أكبر اللّه أكبر لا إله إلا اللّه! حلاوة ولي؟ حلاوة المبخراتي ولي؟! صحيح صحيح شيخ أمين! من يقول إنَّ التتر أصلح من الروم، ويدعو لهم بالنصر؛

يجب أن يقول إنَّ الدارفيش حلاوة ولي! يا خسارة علوم نورانية وجامعات (توركية)!»، وألقى خطم النارجيلة وذهب. فتصايح من في المقهى، قيل:

- الجدع الشركسي دوكها يناصر الرومان! مؤكَّد هو رومي ومداري!

- لكن الشيخ حميد بيقول إنه من التتار!

- وماذا كان من التتر حتى تخشَوْهم؟!

- صحيح يا شيخ جمعة، الروم أتَوْا على كلّ شيء!

- الروم قتلونا وسرقونا ونهبونا واغتصبوا النسوان والعيال!

- يا جدعان، نذر للّه، لَألبس البدلة وأخرج في ركاب مولانا الشيخ (محمد زياو لي) ملك ملوك التتار!

- إيش هذا؟ هو مسلم؟ مو معقول!

- نعم مسلم! وهل كان لينصره اللّه إن لم يكن مسلمًا؟!

وذهبت شبيبة، وجاءت أخرى، ويتصايح الخلق في السوق والشوارع، في حين لا أفكّر سوى في أخي، سيف، هل قضى في أيّ حرب؟ أم ما زال يرابط في الخنادق؟ لا أذكر، أيُّ حرب ذهب إليها؟ لكنه قال قبل أن يذهب إنه لن يحارب في صفّ الوالي؛ لأن الوالي جندي من جنود الروم! لم أصدّقه، ولم أجادله؛ لأنه كان آخر لقاء، قال لي: «عليك أن تأتي معي يا سبع؛ إنها ستأتي إليك إن لم تذهب إليها، ولو أتت إليك، فلا تلومنَّ إلا نفسك!»، لكنّني قلت له إنني مهاجر إلى القفر والصحراء، سأشتري الماعز وأذهب، لم أعد أريد شيئًا من عالم الروم، لا ماله ورغده، ولا فقره وحربه! فابتسم، وقال إذن فلا تتباطأ، اخرج في أثري؛ لأن الحرب إذا جاءت وأنت هنا، فلن تجد سبيلًا، ولا تلومنَّ إلا نفسك!

سقط العمُّ حميد مغشيًّا عليه، فسلَّم الزنوج الثلاثة، ثم هلَّلوا وكبَّروا بلكنات غريبة، وحملوه إلى داخل المقهى، وأجلسوه على مقعده، وعدَّلوا عمامته الخضراء، وجلسوا تحت قدميه، فنهرهم الشيخ أمين: «اذهبوا من هنا يا أوساخ يا جهلة!»، فطوَوْا رؤوسهم وجلسوا خارج المقهى على الأرض! قال العمُّ توفيق البقَّال: «هادول الحبش يستعبدهم الروم أيضًا! يضربونهم ويجلدونهم مثل البهائم تمامًا!»، فأومأ الشيخ أمين: «ونساؤهم عواهر رخيصات أيضًا!» وبصق.. وتذكَّرت خبرًا جاء أنَّ الروم كانوا ينامون مع النسوة طوعًا وغصبًا في وديانا، بأجر أو بالمجَّان، بل قيل إنَّ أحد جنودهم اغتصب صبيًّا أمام أمّه وخالاته في سجون الفرات، والولد يصرخ ويتألم، والروم يضحكون، والنسوة يصرخن. كان هذا من شهر، في مقهى الدواليب في حارة السمّان.. ارتبكت،

وشعرت بشيء يدخل فيّ، وصوت سيف يردّد في رأسي: «لا تلومنَّ إلا نفسك»، فقررت أن أذهب من غدي لشراء الماعز، لكنّني تأخَّرت ليلتها عند إحدى الزنجيات، كانت صبية في العشرين تقريبًا، من لحم طري، كنت أزورها لأنّني أخشى أن يأكل الناس وجهي في شارعي، أو يستدعوا الشرطة لو أحضرتها معي إلى المنزل! كنت أذهب إليها منتظمًا، لكنّني لم أكن أزيد على مداعبتها وملاعبتها من دون مضاجعة! ولم يكن يهمُّها طبعًا أيُّ شيء؛ إنها لاجئة لا تريد سوى المعاش! لكنها كانت تحبُّني رغم كلّ شيء، قالت لي إنها رأت رجالًا من كلّ البلاد التي مرَّت بها حتى تصل إلى هنا، وكلُّهم كانوا متعجّلين كالحمير، كانت تقول «كلُّهم مثل الرومانز، يهمُّهم النوم أطول قدر يناسب ما يدفعونه!»، فأومئ وأعترف: «ومن علَّمنا غير الروم كلَّ شيء؟!». لكنها كانت تحبُّني؛ لأنّني كنت أعاملها بكرم أخلاق، وأشدُّ لُبَّها بالكلمات الحسان، حتى إنها كانت تَعَفُّ عن أخذ المال مني: «أنت الذي يجب أن تأخذ مني المال! أنت الذي تمتّعني بكلامك، ولست أنا التي أمتّعك!»، وتضحك بأسنان بيض. أنت الذي يجب أن تأخذ مني المال! وكأنّني أنا العاهرة إذن؟ أنت الذي تمتّعني بكلامك!؟ فكّرت، حتى البغي؟ ثم تردَّد صوت سيف: «لا تلومنَّ إلا نفسك!». صحا العمُّ حميد من إغمائه، وأمر بالعنَّاب لنفسه، ربَّت الشيخ أمين على صدره: «طيَّب اللّه ابتهالك يا شيخ حميد! ما رأيت أحدًا وصل بذكره كما وصلت أنت اليوم في قارعة الطريق وسط النهار والناس!». أومأ العمُّ حميد مرهقًا، ثم رشف شيئًا من العنَّاب، وقال: «واللّه يا شيخ أمين، لقد أطلعني حبيبي اليوم على عجب عجاب! رأيت لما حضر الصحاب، وغفت عيني عن الموجودات، أنَّ البحر خرج عن سلطان العالم، والمطر عن سلطان السماء، كلاهما غاضب أحمر، يضرب الأرض من كلّ جانب، والناس يصيحون ويصرخون: احذروا احذروا! لقد خرج الرؤيوان! فكنا نسعى خلف الجموع ونسأل: «إيش يكون هذا الرؤيوان؟! أدجَّال؟! لقد هُزم! فقالوا: لا، الدجَّال في الروم! إذن يأجوج وماجوج؟! لقد انتصروا! قالوا: لا لا، إنهم في التتار، معشرهم وأهلوهم! فغضبنا، نعم أنا وأنت وآق رفعت وكلُّ من في هذا المقهى: «إذن ما يكون الرؤيوان؟!»، فصرخ الناس وأشاروا إلى جرف بعيد! قالوا تحته يربض، ويغني آخر الأناشيد، والماء يضرب من كلّ اتّجاه، أحمر كالدم! فقلت لهم: «أتقصدون إذن الطوفان؟!»، فقال من يستطيع الطفو أو العوم: «كلّا، إنه الرؤيوان، خرج يحكي لنا النهاية!»، ثم استيقظت، فصاح الشيخ أمين: اللّه حيّ، اللّه حيّ، اللّه حي، وقام ممسكًا بيد العمّ حميد، ووقفا وسط المقهى، والتفَّ الناس حولهم يُفقِرون: «حيّ حيّ، اللّه حيّ.. حيّ حيّ، اللّه حيّ»، ولم أقم، فكّرت والرؤوس تميل يميناً ويساراً: «إذًا لدينا مسيخ دجَّال معه الروم، ولدينا ألف ألف يأجوج ومأجوج معهم التتر، ولدينا أيضًا الرؤيوان، ثم الطوفان! ودماء في كلّ مكان، فلا ألومنَّ إلا نفسي لو لم أذهب الآن! أين تقع سوق الماعز في هذا العالم؟!». جاء من أول الشارع فارس

زنجي ينفخ في بوق، فيجتمع عليه الناس، ثم ينصرفون هلعين! كلما اقترب، يجتمعون عليه ثم ينفضُّون، يبدو أنه الشؤم، وصل إلى المقهى، والناس يُفقِرون: «حيّ حيّ، اللّه حيّ.. حيّ حيّ، اللّه حيّ»، نظر بسخرية إلينا، زنجي جلف نتن، تلمع بشرته بعرقه، قال برومية أصيلة: We are coming with our God, prepare for his Might، فصرخ رجل جواري، فسألته: «ما قال العبد؟!»، فتهدَّج يرتعش: «إنه رومي، ضابط رومي، إنهم آتون معه!»، قلت: «مع مَن يا رجل؟!»، «معه معه، مع الدجَّال!»، وجرى الرجل قبل أن أستفهم؛ ألم تُغلب الروم؟! ماذا يحدث في هذا العالم؟ وجرى الناس في كلّ اتّجاه، كنمل أصابه حجر، والمقهى يصطخب: «حيّ حيّ، اللّه حيّ.. حيّ حيّ، اللّه حيّ»، وذهب الضابط الرومي الزنجي ينشر الرعب! ففكَّرت في أن أذهب إلى السيّد الشريف محمود آق رفعت وأسأله: هل الزنج مكرمون في رومية حتى أن منهم ضبَّاطًا وعسكرًا؟ أم أنهم عبيد مثلما هم في كلّ العالم؟! وإذا كانوا مكرّمين هناك، فهل هذا يعني أنَّ بني عيص آمنوا باللّه؟! وإذا آمنوا باللّه فلماذا نحاربهم؟ وأيَّ مسيخ دجَّال يتَّبعون إذا كانوا يؤمنون باللّه، ويكرمون الزنوج؟! شعرت بأنَّ دبري تحرَّر من أي رهاب دخل فيه، وليس هناك داعٍ لقلقي، وقرَّرت أن أضرب كلَّ من يقول إنَّ الروم يغتصبون الأطفال والناس، أو إنهم ينشرون الرذائل! لكنّني تراجعت، لن أذهب إلى السيّد محمود آق رفعت! سأذهب خلف الضابط الرومي الأسود. وطفقت أبحث عن أيّ جواد، وتذمَّرت من سيف: «هل كان لا بدَّ من ذهابك لتحارب، واللّه أعلم في أي حرب، وتأخذ الجواد؟!». ووسط الضوضاء والرعب وركض الناس إلى منازلهم أو إلى الأودية، فكَّرت في أنني الوحيد الذي عرف الحقيقة، ولا بدَّ أن أركض خلفها بأسرع الجياد. وارتجفت روحي حين سمعت صوتها يأتي من نهاية الشارع، التفتُّ، وجدت ثلاثة فرسان، يجمعون الناس ويفرّقونهم كما فعل الضابط الرومي، فركضت ناحيتهم، وأنا أردّد قول اللّه العظيم: غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، ثم أصيح: «ستنتصرون يا أبناء إسحق!»، حتى رأيت آذانًا فرائية تتراقص من خوذاتهم! تجمَّدت مكاني؛ إنهم التتر! رطن كبيرهم بالتترية، فلم أسأل أحدًا عمَّا قاله، ورجعت إلى السوق. أين ذهبت سوق الماعز؟! لكنّني استدركت بكلّ بؤس وحقد، أننا محاصَرون الآن؛ الروم ومعهم الدجَّال، والتتر ومعهم يأجوج ومأجوج! وتحسَّرت على اللحظات التي انشغلت فيها بالقلق على سيف؛ لأنه هو الآن من يجب أن يقلق عليَّ؛ لأن الحرب أتت إلينا أخيرًا.

وسط هذه الفوضى، شعرت أنّني أقترب من اللّه العظيم، ونظرت إلى السماء وقلت: «إنَّ أهل الأرض يطردوننا، فسآتي إليك يا مولانا يا كريم!»، وركضت كما يركض الناس، لكن ليس هناك بدٌّ أن أركض إلى البيت؛ فسيبيت فيه غدًا تتري أو رومي، وقد يتشارك الاثنان في الفراش مع امرأة من نسائنا!

أهلًا بكم، سعدًا وسهلًا، سأذهب أنا إلى اللّه الجليل. ركضت ناحية الجرف، وصوت الموج يعلو كلما اقتربت، يأكل صياح الناس، ودبدبة الجياد الدجَّالية، واليأجوجية، لن أسلم روحي لإله سواك يا ربّ، وقفزت من فوق الجرف، فلم أرَ أيَّ رؤيوان! الموج فقط يرتعش غاضبًا، يزلزل الصخر من حوله، ووجدت روحي تنزلق من قدمَيَّ وخصيتَيَّ، ورأيت أجنحة عظيمة تضرب الدنيا من حولي، وارتفعت درجة الحرارة؛ فقد استعر البحر، نار تتراكب بعضها فوق بعض، وأنا أسقط فيها بكلّ بساطة، ويتردَّد صوت سيف: «عمَّا قليل ليصبحنَّ نادمين».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السلام

الشمس تدور حول نفسها في هدوء، ويطوف حولها بعض النحل، وبينما أنا أدخل المدينة، قابلني قطيع كلاب لها رؤوس بشرية صلعاء تلمع، تركض هربًا وخوفًا. وما إن تلاقت عيني وعين أحدها حتى تنخَّم وبصق، ثم وقف على قائمتيه الخلفيتين، وأشار برجله اليسرى الأمامية ناحية المدينة، ولوَّح باليمنى من خلف أذنه إلى الأمام بغضب صائحًا: «دي بلد بنت ستين كلب!»، ثم أنَّ ولوى ذيله بين خصيتيه وركض! تمتمت: «كلب!». ثم وجدتني أمرُّ جوار المقابر، فدخلت أقرب مقبرة، وتبوَّلت في (قصرية) برتقالية عليها صورة أرنب أصفر: «لو متُّ إن شاء اللّه سأوصي أن توضع في مقبرتي قاعدة إفرنجية ماركة الديوارات!»، ثم خرجت، فوجدت مجموعة من الشباب يقفون في موقف سيارات الأجرة يمضغون اللبان وينثنون في الكلام والمشية، قال لي أحدهم: «الساعة بتلاتين عرزو دهب يا روحي!»، فقلت له شكرًا: «السلام عليكم!»، فامتقع وجهه وبصق! فقلت له ألَّا يحزن: «الندَّاغة وقعت، معلش!»، فوضع يده في إسته وأخرج لبانة أخرى. شممت رائحة الطعمية، وكان هناك خلق كثير يتضاربون بعنف حول عربة فول، وصبيان الطعمجي يجلدونهم كيلا يحطّموها، فانزلقت من بين الناس، فوجدت الطعمجي غير مشغول: «السلام عليكم.. ممكـ..»، فدفعني بكلتا يديه، وصاح: «امشي يا بن البيخوتة مافيشي أكل!»، فقلت له ألَّا يغضب: «حيط بالك بس! السُّجارة وقعت في الزيت!»، وذهبت، فوجدت حمارًا يحاول أن يركب أتانًا، والأطفال يحيطون بهما يشجّعون، وكانت الأتان غاضبة، في حين أن الحمار مرتبك، سألت طفلًا: «مين اللي كسبان؟»، فرفع يده الصغيرة وصفعني على رقبتي، كدت أردُّدها عليه، لكن الأتان رفست خصيتي الحمار فسقط يعوي، فدخل الشارع من كلّ جانب عساكر في بِزَّاتهم الصفراء، تترجرج أثداؤهم تحتها، يعوون ردًّا على الحمار، صاح الحكمدار: «اثبت مكانك!»، فانبطح كلٌّ من في الميدان، مرُّوا أمامي في صفّ طويل، لهم أرجل ماعز بدلًا من البيادات، وتتدلَّى لحى بعضهم حتى تغطي سائر ثدييه، سمعتهم يتهامسون: «إيه ده؟! دا اللي رفسته طلعت والدة سيادة الملك، مشُّوا الناس يلَّا!»، فقمت فورًا وركضت، لكن شكرتهم أيضًا رافعًا ذراعيَّ: «شكرًا يا رجَّالة، سلامو عليكو!»، فعوَوْا، وضرب بعضهم النار ناحيتي، فصرخت وركضت أسرع، فصفروا بشفاهم يحذّرون الناس ويحفّزونهم على أن يمسكوا بي! «امسك حرامي! حرامي!»، فوقفت في منتصف الميدان: «احترموا نفسكو! أنا مش حرامي!»، فصفعني الحكمدار: «نحنا نعرف يا هايشون، أنت أوسخ من الحرامي!»، وربطوني بسيارتهم من الخلف، وسحلوني حتى مخفر البوليس، وكانت فضيحة و(جُرْسَة)؛ فكان العسكري يعلن للناس من مذياع العربة: «قُبِض على المارق أبيض أبو العزم بتهمة النفاق!»، فكنت أصيح: «لو سمحتوا احترموا نفسكم!

أنا راجل محترم ومش منافق!»، فكان الناس يلقون عليَّ بالبيض وقطع البراز والزبادي البشري كامل الدسم، بينما ضحك العساكر وأذاعوا من العربة أغنية: «الأرض لو عطشانة، نرويها بدمانا». وإمعانًا في الذلّ فقد دار السائق حول المخفر، ثم سمع مهرجانًا طقسيًّا لإخواننا الوثنيين، فدخل الشارع ساحبًا إيَّاي، وكان عيد خروج أوثانهم من الشمس تقريبًا، وحتى يكملوا خروج الوثن من الموت كانوا يقطعون عضو أحد الرجال ويجعلونه يركض ليبارك المكان بدمه، بينما تحتضن النساء النساء ويفعلن المنكر، وكلُّ هذا يحدث فوق ظهري، فكنت أصيح: «أنا راجل محترم بقول لك!»، وعدنا إلى المخفر، فاستقبلنا الشوايشية ببِزَّاتهم الرمادية، أخذوني من العساكر، فقالوا لهم: «دا لسَّة بيقول السلام عليكم!»، فضربني شاويش ناهد غليظ اليد، ورفسني الباقي بحوافرهم في فخذي، فكنت أحذّرهم: «محدّش يقرّب لي! أنا بقولّوكو أهو»، فجرُّوني إلى مكتب الضابط، وكان يرتدي بزَّة حمراء، ويظهر التقاء ثدييه منها، فرفعت ذراعي: «سلام عليكم يا فندم!»، فصاح: «يا بن البيخوتة! أنت مجنون؟!»، فصفعني الشاويش على قفاي! صاح الضابط: «علّقوه!»، فعلّقوني من رجليَّ، وأنا أحذّرهم: «اوعوا تقطعوا الكوتشي! دا ماركة!»، فلكزوني في بطني حتى كدت أختنق، وقال الضابط: «هنحاكمك يا معلقوز!»، فقلت له: «طيب! بس يكون الصبح عشان ينام بدري!»، فلطمني، وأنزلوني، ووضعوني في الزنزانة! وكان فيها نافذة تُطِلُّ على الشارع، فرقدت أروّح عن نفسي قليلًا، وشعرت بالفرحة لأوَّل مرَّة منذ أن دخلت المدينة، وسمعت رجلًا في الخارج يقول: «الحرب عليكم يا بن السلبيان!»، فردَّ رجل آخر: «وعليكم اللعنة يا بن البيخوتة!»، ثم سمعت لطمات وصفعات قوية وآهات، وضحكت لما سمعت أسنان أحدهما تصطكُّ بقوَّة بعد صفعة عميقة، ونادى فتى: «إيه يا ولاد الهايشون عاملين إيه؟!»، فضحك آخرون وبادلوه القبلات، قالت امرأة: «إزيك يا مومس؟ أخبار ولادك إيه؟»، وقال رجل: «أهلًا بالسبعبع الوسخ، الحرب عليك يا عمّ!»، ضحك الآخر: «وعليك الحرب ومقت اللّه ولعناته!». تعجَّبت أنَّ الزنزانة في الشارع، وقلت إنَّ الواحد منا لو أراد الهروب لنادى بعض الشباب وهرَّبوه، فسمعت دقًّا خافتًا أسفلي، فسألت خائفًا: «مين؟!»، فجاء صوت ضعيف وقديم: «أخيرًا حد ردّ عليَّ! أحمدك يا ربّ!»، فالتصقت بالحائط وبدأت بالتعوُّذ، فقال: «ما ألاقيش عندك يا ابني شوية بصل عشان أعمل شوية شوربة؟ أنا لسَّة البصل خلصان عندي من يومين بس!»، فهمهمت: «انت مين؟!»، فقال: «أنا جارك هنا في السجن، أنا هنا من عشرييين سنة!»، فسألته: «وما تهمتك؟!»، فقال: «واللّه مانا فاكر يا أخي! عندك بصل؟»، فلم أردَّ عليه، ووقفت على سطل التبوُّل أصيح: «يا جدعان يا جدعان!»، فلم يبدُ على أحد أنه يسمع؛ فقد كانوا يسيرون كالضواري الهائمة.

في الصباح، دخلت عليَّ كتيبة عساكر وضربوني، ثم جرُّوني إلى القاضي، قالوا لي: «يا بن المعلقوز، أنت هتروح للقاضي الوقتي، فاحترم نفسك قدَّامه!»، وألقَوْني في قاعة واسعة، كانت كلُّ المقاعد خاوية إلَّا من بعض الطواويس السود، تجلس متناثرة تقرأ في كتب صغيرة، وكان واحد منها يضع نظارة سوداء، ويقبض على مطرقة ويجلس في كرسي القاضي، صاح: «المواطن أبيض أبو العزم! أنت متَّهم بالتحريض على أفكار ضالَّة إرهابية!»، فتنهَّدت: «يا سعادة القاضي، أنا بريء، الأول بس السلام عليكم»، ورفعت ذراعي، فصرخت الطواويس، وضرب القاضي الطاووس بالمطرقة فانفلقت المنصَّة، وصاح: «حكمنا على المواطن أبيض أبي العزم المتَّهم بالإرهاب بالسَّجن مدى الحياة في أوعية الخراء العميقة أسفل الأرض، حيث يليق بمثله من الطفيليات!»، فصرخت فيه: «يا باشا بس دا مكان نجس!»، فوقف نافشًا ريشه، وأشار إلى الباب بحزم: «اخرج!»، فخرجت حزينًا، أفكّر في أن أذهب إلى أوعية الخراء عاريًا حتى لا تتَّسخ ملابسي. استقبلني الجنود على الباب من وسط الزحام، وقالوا: «حلو يا بن المعلقوز، كويّس إنه ما عدمكش!». ربطوني بسلسلة وجرُّوني خلفهم، فغرقت في التفكير بطريقة للهروب عبر المجاري، مؤكَّد أنَّ المجاري تتَّصل بالبحر أو شوارع المدينة! لاحظت رجلًا برأس حصان يسير جواري، ويرتدي بذلة أنيقة، قال لي فور رؤيتي له: «أنا الرؤيوان، خذ هذه البطاقة، فيها خرائط العالم الجديد لو أردت أن تهرب، ورقمي موجود! أنا هنا في خدمتك!»، ثم ركض! وضعت البطاقة في جيب قميصي وأكملت التفكير في الهروب، وسط ضوضاء الصفعات والسباب والتحرُّشات والتأوُّهات والبصاق والتبول، همهمت مغموماً: «هو إيه اللي حصل؟!»، فوصلنا إلى السجن، ووجدت طواويس سودًا تنقضُّ على بعض الجثث تنهشها، وآخرين يجلدون سجناء، وبعض الجنود يدفعون سجناء من النوافذ، رفعت عقيرتي: «سلام عليكم!»، فضربني كلُّ من مرَّ بي من الجنود والطواويس، بينما علا صوت السجناء: «وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته!»، دفعني الجنود فسقطت، فصاح طاووس: «اقتلوه!»، فقال آخر: «لكنَّ عقوبته أوعية خراء!»، فصاح في حسم: «اقتلوه!»، فاصطفَّ الجنود عرايا النهود، وجَّهوا بندقياتهم ناحيتي، همس طاووس: «عينه قبيحة، ستكون مُرَّة، سآكل كبده!»، وقف خلفهم جميعًا على ما يبدو رجلان مضيئان لهما أجنحة من النور، أشرت إليهما بحاجبي الأيمن: «السلام عليكم!» فرفع كلٌّ منهما يمينه، صرخ الطاووس: «اضرب!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الأصنام

جنَّ الليل، ولم يعد أمامنا مفرٌّ من إشعال نار؛ نستدفئ ونحتسي أيَّ شيء ساخن. انقطعت أنفاسنا وصدري منشرح من الشهيق البارد. ظللنا نركض طَوال النهار وسط الغابات، وأصابعي كأحجار وردية. خيط رفيع من الهواء ينسرب من مَزْق في البنطلون يخدّر ساقي كلها، تمزَّق ونحن نجري من خفر الحدود الهندوز، وتحته جرح متجلّط أو متجمّد بمعنى أصحَّ يثير الحكَّة. تساءل سعيد بعد أن أفلتنا منهم: «إيش جاب هندوز هنا عند الفايكينج؟!»، لم أردَّ، كاد رأسي يجفُّ، وصعد من أنفي صداع، وسعلت، والعالم صار أزرق من البرد أو من الركض، لا أدري. ألقينا أنفسنا وسط صخور مخضرَّة حولها شجر عريض، أمِنَّا المكان، وجعلْنا نلتقط أنفاسنا. تلفَّعت ببطَّانية صوف؛ ضممتها بقبضتيَّ عند فمي، أنفخ فيهما؛ عسى الدفء يُبعث فيهما وفي رأسي! أفّ؛ حتى البطانيات باتت لا تدفئ! العشب جافّ، وأصحابي يرتعشون، والليل يزحف. قال سعيد: «هنام شوية يا ولاد، لو حصل حاجة صحوني، وما تنسونيش! والعيال ولاد المركوب الهندوز دول ريحتهم نيلة، فلو شمّيتوا ريحة صناجة صحّوني!»، فضحك أدهم: «هنصحّيك عشان تقوم تتشطّف!»، فضحكنا، وضحك سعيد: «لا ما تخافش يا بن القُفة، أنا عندي إمساك!»، فقال الدكتور صالح: «معي زولاجيل، لو أردت»، فضحك سعيد: «لا زولاجيل ولا زولاجلة، أنا هنام عشان أدفى يا دكتور!». ضحكنا، وحاول كلٌّ من أدهم وسعد أن يجمعا أغصانًا غضَّة وأوراق شجر كي نُذْكِي نارًا.

جلست أنا وسعد وأدهم نشرب الشاي، بينما نام الدكتور وسعيد، سأل أدهم شاردًا: «تفتكروا هنوصل؟ يعني من بلد لبلد ومن غابة لغابة، عدّينا البحر، وشفنا الموت ألف مرة! هنوصل؟!»، فقال سعد: «بيجول لك هيرمستا دوكها نسخة من الجنة!»، فقال أدهم: «وهو حد شاف الجنة يا قفل؟!»، «يا بوي ما جاصدش، أنا أجصد إنها مليحة جوي كأنّ ربنا خالقها!»، «ما هو يا بن الجاهلة ربنا خلق كلّ حاجة!»، «وبعدين عاد في لماضتك دوكها؟!»، «م انت اللي المسخرة يا بن عمّي ولا مؤاخذة!»، «طب اهمد يا خفيف لأدير عليك جردل المايّ دوكهن أموتك م البرد!»، وضحكا. يتجادلان بلا توقُّف منذ أن هربنا من الجبت، التقينا في (البائسة) ثم ألكسندرونة، ثم البحر، ثم الموت والموت والموت، لم نقابل بعدُ أيَّ حياة، حياة نعيشها أقصد، حياة نرتخي فيها على فراش طبيعي مستقيم ناعم دافئ، وعملًا يسدُّ البطن ويملأ الجيب، ولو أمكن زوجة عطوفًا وبعض الأطفال! حياة! ما وُعِدناه كان سرابًا على ما يبدو، فما إن خرجنا من أراضي الجبت حتى بات كلُّ ماء وحلًا، وكلُّ طعام ترابًا، وكلُّ ضحك خدعة، وكلُّ نوم ضياعًا! لكن ما يصبّرني أنّني لست وحدي؛ إننا في العذاب مشتركون! وعاجلاً أم آجلًا سيُضطر الجميع إلى الهرب إلى هيرمستا

والعالم الجديد، هذه أحكام الرؤيوان! ما إن يحلّ بأرض، حتى يتركها الناس، ليبدؤوا حياة جديدة على أرض جديدة، بينما هو يأكل ماضيهم وأرضهم! تحرَّك شيء، فتلفَّتنا، قال سعد: «جرد دا يا خواتي ولا يه؟!»، قال أدهم: «القرود ما تمشيش ع الأرض!»، «تُجصد إيه؟ لا يكون سبع ولا نمر!»، «ولا أُسْخَم، يكون عساكر تانية ولا حاجة!»، «ياا بوي! عساكر تاني؟! أنا كرهت أم الديش ع العساكر! أنا واللّه لو هتجلب حجر هِناه ماني متحرّك!»، «يا خويا انت طوبة من غير حاجة براسك الأحف دي!»، «أني أحف يا بن البيخوتة؟!»، غضب أدهم: «ما تشتمش أمي يا بن مرات المعلقوز!»، صحت فيهما؛ كادا يتضاربان: «اخرس! اخرس يا شخصون منك له، ناقصينكم احنا يا هاياشين؟!»، فصمتا ورفع كلٌّ منهما بطّانيته إلى أذنه وغمغم فيها. بتنا كالأطفال! أفّ! نهرب من أرض لا لهو فيها، بحثًا عن اللهو في أرض جديدة، فكلما كان معك مال ازددت رفاهية وازددت ذعرًا إذا اقترب منك الرؤيوان بجدبه وفقره وكآبته، فهربت منه إلى أبعد أرض، وأكثرها دلالًا! وأهرق المال لأجل الحياة تأتيك بالمال مرة أخرى! من يرضى بالموت في الأرض الجدب عن الحياة في العالم الجديد؟! ما الذي يجعلني أمكث لأموت مع الفقراء والوطنيين، إذ بقذيفة تحلُّ بداري، عصابة تسفك دمي، تلتقيني المَصارع أينما حللت، أستقطبها وتطاردني! ما الذي يبقيني شريحة لحم في شطيرة يأكلها الرؤيوان ثم ينام؟! إن ذهبت الحياة إلى أرض لا بدَّ أن نسير خلفها حتى تموت أو نموت! قال سعد: «مش كان زماني نايم مع المرة دلوقت بدل خلقكم النتنة دي؟!»، ضحك أدهم: «مفيش غير المرة في دماغك يا فقري؟!»، «ورايدني أفكر في يه؟! ما كلّنا هاربانين لأجل النساوين، لأجل تأكّلها فتهنّيك، وتلبّسها دهب فتهنّيك، أو تروح تدوّر زي حالاتك كِدِه على حرمة رومي تدّيك الجنسية!»، ضحك أدهم: «آه واللّه عندك حقّ، بس الأهمّ من داهوّت إنّ الواحد يرجع يعيش زي ما كان عايش!». نفخت دخان السيجارة، ونظرت إلى السماء، ما الذي فعلناه كي تفعل فينا كلَّ هذا؟! لقد كان بيتي في (البائسة) مريحًا، والطعام يملأ الثلاجة، ماذا فعلت لتأخذ مني كلَّ هذا وتُخرجني كالمجرمين مع هؤلاء الهاياشين؟! كان غصن لبلابي سميك ينزلق من أعلى كأنه ساقط من السماء، يشبه زحلوقة عملاقة في الآكوابارك بمدينة القلزم. كم من جسد عارٍ قد ينزلق من فوق هذا الغصن يصرخ من الإثارة؟ آخ! لقد فسد الأمر كلّه! من ترك داره، قل مقداره!

تكسَّرت أغصان أخرى، تلفَّتنا، وألقى أدهم حطبًا في النار كي تتوهَّج وتبعد أيَّ كاسر، لكنَّ النار ومعها الصخور والشجر والهواء، تراقصوا مع الليل، صياحهم المَرِح صفير في السماء بعيد، يقترب فيحلُّ المطر، أو يسكن فتخرج الليليات بعيون سرَّاجة، تبحث عن دماء أو فاكهة. ويمرُّون على الشجر وبين الصخور، وأحرف البحيرات، يرقبون بشرًا ضالّين، يحتملون من الحياة همًّا وفقط،

فيضحكون، ويقولون: «الحمد للّه أننا لسنا من البشر؛ إننا نركض ونأكل ونموت من دون أن ننسى أننا مخلوقات ونعيش! نحن أحرار!» ثم يكسرون الأغصان وأوراق الشجر؛ ليرعبونا، تتقافز القرود كالجنّ من فوقنا، وتَفُحُّ الثعابين أسفل منَّا، وتسرج القططة أعينها، ويصيح آخرون من بعيد، يتضاحكون: «إنَّ أبناء آدم يخافون منَّا، إنهم مرعوبون من القطّ والقرد والثعبان التي يرسمونها لأطفالهم في المدارس، هيَّا، كسّري الأغصان واحرميهم النوم، اركضي حولهم، ودعي الليل يوسوس إليهم بالخوف، حتى ما إن يجمّدهم هو والبرد، ذبحوا لنا وللّيل قرابين منهم.. اضحكي اضحكي، إنهم وثنيون جبناء، تعوّدوا عبادة الخوف!». سألتهما: «هل تسمعان؟!»، فأومأ سعد: «شكله سبع يا بوي!»، فهمست في غضب: «لا لا، أقصد الكلام!»، فحدَّق إليّ في خوف: «كلام إييه يا بوي؟! جا لك لطف ولا يه؟!»، أشحت عنه، ووقفت أتسّمع، ولم أستطع أن أتحرَّك، ساقاي ملتصقتان بالأرض، إنهما جليد الآن! قالت الحيوانات: «إذًا، من منكم عليه الدور اليوم في النوبتجية؟!» تضاحكت! ووقف أدهم وسعد الذي نادى: «يا دَكتور، يا سعيد، جوم يا وِلد، باين في سبع يا وِلد!»، تقافزت القرود على الشجر: «نحن ننام الليلة!»، سكنت الأسود: «ننام أيضًا!»، فَحَّت الأفاعي وانسحبت في الأرض، بينما قالت الضباع: «إذًا نحن!»، قلت لهما: «أيقِظا الباقي، إنها ضباع!»، صرخ سعد، بينما حاول أدهم أن يوقظ سعيدًا والدكتور صالحًا، فلم يستطع أن يصل إليهما. كانت ستة ضباع، اقتربت في فضول وببطء حذرة من النار، ألقاها سعد بحجر، فعوى أحدها عواءً غبيًّا، بينما ركض أدهم وهو يعرج، أشعلت عصًا ولوَّحت بها، صرخ سعد: «عاتُهُرب يا أدهم يا ولد الفرطوس؟!»، وأسمع القردة تضحك من بعيد، ساقي اليمنى ثقيلة كحجر، ولا أشعر بيديَّ، صاح أدهم من بعيد: «أنت عاوزني يعني أموت يا سبعبع؟! لاءاه، أنا عاوز أعيش، أرجع أعيش زيّ ما كنت عايش!»، صرخ سعد: «عاتُهُرب يا بن الكلب وتسيبنا؟!»، فضحك أدهم: «أسيبك تموت وأعيش، ولا أفضل معاك وأموت؟!»، والضباع تعوي، بل تصرخ صراخًا غبيًّا، صراخًا مفزوعًا رغم ضراوتها. سقط سعد على الأرض، وتقلَّب سعيد في منامته، ثم ارتكز على يسراه، عيناه ووجهه أحمران، سأل: «إيه الدوشة دي؟!»، نبحت الضباع في وجهه، فصرخ: «جرى إيه يا ولاد البيخوتة؟! في إيه؟ مش عارف أنام!»، صمتنا وصمتت الضباع! أكمل: «هو الواحد ما يعرفش ينام في العالم ده أبدًا؟! جري طول النهار قدام العساكر، وخناقات بالليل مع البهايم؟! ها؟!»، ثم هوى بيده على خطم أكبر ضبع وأقربها إليه، فأنَّ ونبح، فصفعه أخرى: «يا بهايم تعبان عاوز أنام، أنا بني آدم وحقي أنام، أنا بني آدم وحقي أنام يا عساكر يا كلاب، أنا بني آدم وحقي أنام يا سعد يا عكراهم، أنا بني آدم وحقي أنام يا أدهم يا بيخوتة، أنا بني آدم يا ولاد الكلب واللي هيقرّب لي هطلّع عينه!»، جرت الضباع، وسمعت تصفيقَ القردة كصدًى من بعيد. سألني سعيد غضبان: «أنتم

واقفين كده ليه؟!» كان أدهم قد تحوَّل إلى تمثال رمادي وهو يركض، وسعد كذلك، كنت سأقول: «كنا ندافع عن أنفسنا وعنك!»، لكن وجدت النار والعصا وذراعيَّ قد صارتا حجرًا، وصرت لا أشعر بشيء. وفي الصباح استيقظ سعيد، وذهب هو والدكتور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المنصور

صار الشجر شائخًا عن اليمين، يحمل غبارًا وملحًا، حتى غصنه يراقص نسيم البحر بصعوبة، «البحر لم يَشِخْ بعد يا سيادة الفريق قادس!»، قلت له وأنا أقاوم الاستسلام لنسيم البحر فأبكي أو أخلع ملابسي أمام الجنود وألقي نفسي فيه أضمُّه إلى صدري، أو بالأحرى ألقي نفسي في أحضانه، وأبكي كلَّ السنين المُرَّة، فقال: «هذا حقٌّ يا سيدي، البحر ليس من الأرَضين، فلا يشيخ أو يزول!»، أهزُّ رأسي، وأنحّيها بعيدًا عن مرمى خوذته السوداء، والنجمة الذهبية فوقها، فلا يلاحظ هو أو أحدهم أيَّ شجن في وجهي، رغم أنّني متأكّد أنه هو وكلُّ الفيلق يستمتعون بالمدينة، فرحين بملابسهم التي لم تُهَنْ قطّ في أيّ مواجهة، إلَّا أن عيونهم كلَّ لحظة تدور وسط خوذاتهم يرقبون مزاجي، ويتنبَّؤون بالأوامر، «لكن يا قادس، هذا البحر كثيرًا ما رأى من هؤلاء الناس، أنا أعرفهم!»، وأهزُّ رأسي. كنت أسير بالساعات على هذا الشاطئ أتعثَّر في أكواز الذرة الهتماء، أدبّر مصاريف الزواج، من أين آتي بهذا كي أنفقه في ماذا؟! أضرب وأحسب معادلات طِوالاً، ولا أحد يفكر لي أو معي، ولم تكن البنت تساعدني قطّ! فقط تتدلَّل وتلعب برموشها معي، وأبوها كان نطعًا عظيمًا، كرش مستدير وصلعة عريضة، يأمر وينهى، وأبواي يبتسمان فَرِحان بأملهما يتحقَّق بتزويجي! هيه! أين هما الآن! ملوك هيرمستا! أريد أن أرى أمي إذا سألتها عن هذه الزيجة، أو أيّ مشروع عروس من مشاريعها! لن تردَّ عليّ! هاهاها! أبي سيقول: «أنت لسَّاك فاكر يا واد يا فؤاد؟ دي كات أيام سودة، وناس عِرَّة ما يشرَّفوش! الحمد للّه الكريم!». نعم، الحمد للّه الكريم. قال: «لكن يا فندم! هذا بحر، ومهما فعلوا فيه لا يشيخ!»، وأمَّن على كلامه بابتسامة واسعة. فأهزُّ رأسي، وأتيه في السحاب الذي يبدو كزبد بحري صاعد إلى السماء، يتحرَّك ببطء مع دبَّابتي، يمسُّ البحر عند الأفق ثم يصعد دلافين قطنية، ومثل كلّ الأطفال كنت أركّب الصور على السحب، كنت أراه دائمًا يشبه رأس حمار وأحيانًا غول، سألني أبي: «وإيش عرفك انت بالغول؟! شفته فين ده يا خويا؟»، فكنت أحكي له قصص جدتي، أقول له ببراءة: «من عند أمّك!»، فكان يهتزُّ من الضحك، ويضرب قفاي برفق، وأخي عماد قال إنه رأى السحب في شكل نجوم ومراكب، فقالت أمي إنه سيفلح، وقد كان؛ فمن في العالم كلّه حرفيًّا له مال عماد منصور؟! كنا في أيام الشتاء، لمَّا ينال منَّا اليوم، نتقابل عند كشك كان يُسمّى (السليمة)، نشتري بعض الطعام، ونتحدَّث قليلًا، ثم نتشارك في البكاء مع البحر. وعندما ننتهي، نأكل، ونتسارد همَّ اليوم، ونضحك، فيحسبنا مَن سهر على الشطّ نُضاحك البرق. يقول عماد: «النهارده ركب ويَّايا زبون، راجل كُبَّارة كده ومحترم، وخبطنا مشوار يجي ساعة ونص، وصلنا، فلقيته مطلع الفيزا كارتا، قلت له مفيش الكلام ده، فقال معاييش، قلت له أمَّال راكب تاكسي ليه؟ قال لي مش شغلك، قمت قايل له

باحترام طب هات الأجرة، قام مطلّع علبة سجاير يدّهاني، قمت قايل له إيه ده يا أستاز، فقام نافخ واتخلق وعاوز إيه ومش عاوز إيه، قلت له حسابك 100 جنيه! فلقيته شخر لي! وقال لي دي البدلة اللي أنا لابسها دي بـ200 جنيه، قلت له هتطلع بالفلوس ولا أقلّعها لك؟ فما رضاش، فخسعته قلم، ورفعت عليه السكين، فلقيته بيخلع هدومه، بس سبت له اللباس! عشان ريحته»، ونضحك، فيستفهم قادس ضحكي بابتسامة أوسع، ويراقبنا بعض الجنود برضًا، فأشير إلى البحر، وأنحني على أذنه: «أصلك ما تعرفش الناس دي بتعمل إيه في البحر، بتشخّ فيه!»، فتبادل الجنود النظرات ولم يفهموا ما قلته، فأضحك، وأنا أشير إليهم بالتقدُّم. يميل عليَّ قادس، ويفتح دفتره، ويسأل بأدب. قادس رجل مؤدَّب جدًّا: «سيدي، ما معنى يشخوا؟»، فأضحك؛ ذكَّرني بعمّي سعد عندما يقول: «يشخوا» بنبرته العنيفة، كان يقول اللّه يرحمه مثلًا: «ما تتحدّتش مع فلان دوكهه، أصله بيشخ من بقّه»، يضغط على الخاء، فأضحك وأذكر تقريرًا من المخابرات، بعض الضباط جلسوا في مقهًى، فسمعوا الناس تتكلّم، جاء فيه:

وصلت أخبار خلال محطّاتهم الإذاعية أنهم ردُّوا قوَّاتنا، وأنَّ الفيلق الثاني والثالث توقفا عند الحدود الشرقية، وأنهم أسقطوا لنا ثلاثين طائرة، وأنَّ طائراتهم - الجبتية - قد وصلت إلى عاصمتنا أوتوليتكا، وأنَّ رئيسهم قرَّر أنَّ اليوم (11 أوليس) عيد قوَّاتهم الجوية، فقام مواطن يُدعى السيّد المندوه، وصاح: «اللّه أكبر فوق كيد المعتدي»، فأشاح مواطن آخر يُدعى بكر الناعم بذراعه: «يا عمّ السيّد اسكت، الخوف توكون بيانات كلام زلعادة والسلام»، فضحك مواطن ثالث موافقًا، يُدعى تامر محسن: «إي واللّه يا عمّي، دولي بيهيّصوا في وقت الحرب كدهون»، ولعَّب هذا المواطن صدره وذراعيه بالتزامُن مع حركة غريبة بأصابعه، إذ ثبَّت الإبهام وأخذ يحرّك الباقي إلى أعلى وأسفل، ممَّا أضحك البعض، واستاء آخرون، منهم الحاجُّ عبد الصمد المُهلَّبي الذي قال: «بتترقَّص يا مِنَسون؟ الحرب إجت وأنت بتترقَّص يا مايص؟!»، فردَّ عليه مواطن، تظهر عليه سيماء الثقافة، اسمه رفيق المختار: «أيّ حرب يا حاجّ عبد الصمد؟ السيّد فؤاد منصور من حي الجامعة!»، فغضب شخص يُسمى توفيق محمد السيّد أحمد أبو العلا: «أنت مجنون؟ وهل ده يعطيه الحقّ في احتلال بلدنا؟!»، فوضع المواطن رفيق المختار الجريدة جانبًا وقال: «احتلال؟ أيَّ احتلال؟ أقول لك من حيّ الجامعة! أي جار خالي لطفي، والدبَّابات التي تحمله دبَّاباته، والطائرات طائراته، والعلم علمه، وكلُّ شيء في هيرمستا يملكه فؤاد منصور، الجبتي الأصيل، خالي لطفي قال إنَّ السيّد فؤاد كان تلميذًا في مدرسة الحرية! أظن هذا أمرًا غير قابل للمناقشة يا توفيق!»، فعاد المواطن السيّد المندوه إلى الكلام، صاح: «يا أستاذ رفيق ما تتكلّمش كتير، هو سي فؤاد بتاعك ده مش جاي على دبَّابة عليها علم

هيرمستا داهيّن؟! يبقى احتلال ولا مش احتلال؟!»، فيخلع السيّد المواطن رفيق المختار نظارته ويقول في نفاد صبر: «يا عالم! الرجل من بلدنا، سافر إلى بلاد الخارج، وكدَّ وعمل، فوجد فرصته، أيُّ مشكلة لو رجع بخيره؟! يا إخواني! مش أنتم تطلبون دائمًا من الطلبة في الخارج يرجعوا، ليفيدونا ويفيدوا البلد؟ السيّد فؤاد لم يطلب علمًا! بل طلب ملكًا، وناله، ورجع إلينا بهذا الملك! لا! وأيُّ ملك؟! هيرمستا! هيرمستا يا حاج سيّد!»، فنظر الرجل السيّد المندوه إليه في بلادة، وقال لتوفيق أبو العلا: «الراجل داهون بيشخ من بقه!».

أضحك، وأقول لقادس، ويده تدوّن ما أقوله: «يشخوا يعني يسّيّروا!»، ثم أضحك وأتركه يحاول تهجئة الكلمة، وأستطلع الشارع الذي ندخله بهدوء الآن. أعلنت سيارة الاستطلاع: «ندخل الآن شارع الصرف الذي يؤدّي بنا بعد عشرة كيلومترات إلى مبنى العاصمة المركزي»، أومئ إليهم بالتقدُّم. عملت في هذا الشارع قبل أن أسافر إلى رومية، كان مكتب سياحة، لا أدري أيزال هنا أم زال مع الأيام، كانت أمي سعيدة أنّني انتظمت في عمل ثابت نوعًا ما، أمَّا أبي فلم يكن يرضى أن أعمل في السياحة، لكن لما أسررت له بنيتي السفر، كتم، وفرح، وسافرت، وكانت رومية أسوأ من العاصمة هنا؛ بطالة، جوع، إهانة، وجهي كان تهمتي ودليل إدانتي، ثم جاء اللاجئون من كلّ الأرض، ولم تسرَّني رؤية من كان لهم لساني نفسه من العدادنة والجبتيين. قضيت السنتين الأوليين بين البؤس والركض، والركض والبؤس، شتاء يحطم العظام، وصيف ممتليء بالشرطة التي تتعقَّب المهاجرين، ولولا كاترينا، لرحَّلوني إلى هنا، فكانت النعمة بعد الفاقة، وشربت الرومان كلَّهم من بين ثنايا كاترينا، وسقيتها الشرق كلَّه بلياليّ العدنانية الطويلة، حتى إذا سكنت حياتنا، وامتلأت بالملل، طلبت مني الانفصال، فشكرتها كاترينا، سفينتي إلى الإنسان الجديد، انفصلنا وأنا مدير إيطالوسي لشركة عقارات محدودة، تحلَّل جواز السفر الشرقي القديم مع فضلات الإطالوسيين في المجاري منذ وقت طويل، وسيتحلَّل الرومي بعد حين، حين أعلن العالم الجديد عن ميلاده.

يومَها، تهادى في سفينة من المرمر المضيء رجل أنيق، يرتدي بذلة رصاصية كاملة، وربطة عنق بلون دم الغزال، وسط المحيط الغربي الكبير، صاح في البشرية: «تعالوا إليّ، أنا الملجأ الوحيد من حياتكم تلك»، فلم يسمع أحد، فصاح ثانيةً: «من ينجو منكم الآن سيكون من الملوك، ومن لم يسمع، سيأتي على قوارب من الدم والعظام، إليَّ أيها الناس، أنا الرؤيوان!»، فذهبت إليه على ظهر مركبته، فعرض عليَّ خريطة غريبة، قال إنها خريطة العالم الجديد، فاشتريت القطعة الشمالية، بينما اشترى عقروز بولكاكوف الشرقية، ودانيال باير الغربية، وسلمان بن غلام الجنوبية، لم يكن الثمن بالكثير؛ فالعالم الجديد كان ِصحراء ومروجًا، والثمن هوِ العرق والعمل، فسجدت للّه، فقد كنت

مقاولًا ومدير مكتب عقارات، سأبني ربع العالم الجديد! وعندما انتهيت من بناء القطعة الشمالية، جاء السيّد الرؤيوان في بذلة ذهبية، فاتحًا أزرار قميصه، ضحك من جمال ما فعلت وصفَّق، ثم سمَّاها هيرمستا، وقال في أذني: «أيها الملك فؤاد بن منصور، أنت خير ملوك العالم الجديد، ومملكتك أعظم الممالك الأربع، فلا تظلم، ولا تنسَ أهلك!»، فلم أظلم، وها أنا أعود أهلي وعشيرتي كلَّها عن بكرة أبيهم! عشرة كيلوات فقط، وتصبح هذه البلد الملكومة بلدي مرة أخرى بعد أن سُلخت منها، سلخني الناس، وأبواي، والرئيس الكافر الجشع، وحكوماته المتعاقبة، سلخني المال، سلخني العالم القديم بالمرض والجوع والفقر، فلم يترك لي وطنًا سوى ملابسي، أو لم يترك لي وطنًا سوى فؤاد منصور، فسكنت فيه، وزرعته بالكدّ والتعب حتى الموت، فحصدته هيرمستا! فحقٌّ عليَّ أن أضمَّ أهلي إليها، فكما كان الجوع والمرض ينخرانني، فالجوع والمرض ينخرانهم، وكما وجدت سكني، فلا بدَّ أن يسكنوا هم أيضًا! وما العيب في أن يصبح الابن قيّمًا على أبيه الشيخ؟ أنا أنقذك أيها الوطن من مصير هذا العالم، بدلًا من أن تركب سفينة الدم والعظام هربًا من فَناء العالم القديم! فقد أتيت إليك بالعالم الجديد، ولن تركب حتى كاترينا كي تعبر، بل سأحملك على كتفي، أنا فؤاد أنا هيرمستا لا فرق، فأنت مني وأنا منك، هيرمستا مني وهيرمستا منك! وجدت مدير المخابرات يناديني من مصفَّحته، تنهَّدت، نظرت إليه بعبوسي، فقال متأثّرًا: «هل ننقل هذا الكلام إلى شعبك القديم يا فندم؟»، ماذا يقول هذا الرجل؟! «أيَّ كلام يا حضرة اللواء؟!»، ابتسم في هدوء: «ما دار في بالك عن رحلتك مع الشقاء يا مولاي!»، فضحكت رغمًا عني: «آه يا بن الرفضي! وما له؟ وما له يا بن الجنّية؟!»، فضحك فخورًا بما شعر أنه إطراء، وأرسل الإشارات. وما هو إلا ربع ساعة فقط حتى رأيت المروحيات تلقي بالمناشير، فأضحك، وأقول لقادس: «فكرة رائعة، يستحقُّ عليها لواء المخابرات نيشانًا، سيفرح هذا الشعب بهاتين الكلمتين!»، فابتسم: «بالتأكيد، هذا اللواء -واستهجى الكلمة- ابن رافاضي!»، قرقعت بالضحك، وجرت الدبَّابة بنا. كان الشارع خاليًا، فضرب الهواء وجهي، وتذكَّرت عمّي ياسين لمَّا اشترى سيارة بفتحة سقف، وقفت أنا وعماد من خلالها نضحك، والهواء يضرب وجوهنا، ثم سكتنا عن الضحك، فقد خدَّرتني برودته، ورأيت الدنيا تجري من يوم أن وعيت الدنيا، بل تقفز، تذهب إلى سنّ الرابعة ثم السابعة عشرة، ثم السادسة، وبعدها الحادية عشرة، الثامنة، والهواء يضرب، كاترينا، عماد يلعب مع أبي الطاولة، أمي ترضع سنية أختي، فرح سنية، ديسكو برلين، حانة بوذا، جامع رومية الكبير، أنا مشرَّد في رومية، الشتاء، اركض يا فؤاد، اصعد يا فؤاد، مركب في البحر المظلم، لا تخشَ الغرق، اصعد، ظهر كاترينا، النجاة، اخشَ الغرق أيها الإيطالوسي الجديد، فما زال هناك مركب في المحيط الغربي الكبير، النجاة، صحراء ومروج، ابن السفينة الجديدة يا فؤاد، سفينة من أربعة،

ثم اركبها، قُدها، أنت موكل بنجاَة هؤلاء الأعراق، الجبت والزنج والعرب، لا تدعْ إلا من حجز مقعدًا له في سفن الدم والعظام، ولو اختلف القوم فسيطيعونك في آخر الأمر، بالضبط، جاء في التقرير المخابراتي، امنحه نيشانًا يا قادس:

قال المواطن محمود عبد العظيم: «يا ناس! هنفضل قاعدين كده زي البرانيط؟! البلد بتضيع!»، فأيَّده المواطن سعيد محمود: «أيوة، العدو عَمَّال يتوغَّل في أرضنا ولا حد سائل فيه!»، فردَّ المواطن محمد الشواف: «يا عمّ هو بقى فيه عدو؟! ما حنا قاعدين واكلين نايمين شاربين ليل نهار معاه!»، فأيَّده المواطن حمدي عبد الواحد: «بالظبط، وكمان بنشوف نسوانهم في أفلام السكس»، سنُعيّن هذا المواطن كبير حكماء يا قادس. الهواء يضرب، والدبَّابة تطير، والمروحيات تلقي المناشير، فيصيح المواطن أحمد فكري: «إخص عليك؛ راجل قليل الحيا!»، فيردُّ المواطن مصطفى حجر: «بس يا عمَّو، الراجل بيتكلَّم مظبوط، ما انت عندك الشيبس والبيبس والحلويات والأكل كلُّه بتاعهم، جات على فؤاد منصور اللي من دمّنا يا بني؟!»، فأيَّده المواطن أحمد سعفان: «بالظبط، وإحنا روخر بندّيهم غاز»، فيرفض المواطن كريم سامي بإشاحة خفيفة من كفّه اليمنى: «ما خلاص، بقوا هما اللي يدُّونا! إحنا لا نملك شيء!»، فيصيح صوت من الخلف لم نتبيَّنه: «يا ولاد المرة الـ...»، يا قادس، رجال مخابرتنا لم يعرفوا اسم هذا المواطن المحترم، عاقِب الضابط صاحب التقرير، فيقول المواطن خالد عبد النبي: «يعني مش فاهم، ما أنتم هلَّلتوا لروميل وهتلر ساعة الحرب الكبيرة، جات على ابن بلدنا يعني؟! دا ابن بلدنا يعني يا جدعان!»، فيصيح الحاجّ شرف صالح: «يا ولاد عيب، يا ولاد عيب، الوطن هو الوطن، وبلدنا هم اللي أولى بيها يا ولاد!»، فأيَّده الحاجَّ مـحمد رمضان: «أي نعم، الجبت للجبتيين!»، فيصيح الحاجّ علي فرغلي: «وهو فين ولادها يا حاجّ محمود؟! هات لي دَكَر منهم يقدر يقف قدام إخوانَّا في جيش هيرمستا!»، فيصيح الأستاذ مختار الصعيدي: «دي فتنة الدجَّال، فؤاد منصور هو المسيخ الدجَّال، وأنا هشوف حتة أنا وعيالي نهاجر ليها! يا منجي م المهالك يا رب!»، فيعود الحاجُّ شرف صالح يقول: «يا ولاد، يا ولاد عيب يا ولاد، جيش الجبت العظيم، خير أجـ...»، فيشخر من الخلف رجل سمين، فينظرون إليه، كان يحرّك لهم وُسْطَاه، وقال بصوت محشرج: «العيال العساكر يا هفأ أنت وهو عيال واعية، عارفين إنّ الريّس فؤاد منصور راجل جبتي مجدع، وبيقولوا في الجيش إنّ ما دام اسمه زي أساميا يبقى هو جنرال جبتي ابن جبتي»، فيستاء المواطن شرف صالح ويتمتم: «يا ولاد يا ولاد». فيصيح المواطن محمود عبد العظيم: «إحنا لا بدّ نعمل ثورة!»، فيولول المواطن شرف صالح وسط دهشة الناس: «لاء، يا ولاد لاء، حرام بلدكو.. يا ولاد عيب يا ولاد!»، فيضحك الرجل السمين لمن حوله، ويشير إلى المواطن

شرف صالح بسبّابته، فيقول المواطن سعيد محمود: «بس بس بس، البوليس لو سمع كلمة ثورة دي، هيحبسنا»، فيغمغم المواطن فارس الأشقر: «هو فين البوليس يا أخينا؟!»، فيردُّ المواطن محمود عبد العظيم: «بس أنا أقصد ثورة على الخاين فؤاد منصور! ده جهاد في سبيل اللّه»، فيولول الحاجّ شرف صالح: «يا ولاد، ياولاد عيب يا ولاد!»، فيردُّ المواطن سعيد محمود فارداً ذراعه: «بس بس بس، جهاد إيه؟! أنت عاوز تودّينا في داهية؟!»، فيضحك الرجل السمين، ويكركر بالنارجيلة، ثم يرفع فخذه إلى أعلى قليلًا ويضرط ضرطة عظيمة. أعلنت سيارة الاستطلاع: «على بُعد كيلو مترين مبنى العاصمة المركزي، الرجاء التحلّي بالجاهزية الكاملة، والتزام قواعد الأداء القتالي، سيقابلنا من الطرف الآخر الفيلق الثاني! تحيا هيرمستا في نصر». أفتح عيني، قد شبعت من الهواء، ألمح في مواجهتنا سربًا من الخلق يركبون الدرَّاجات، شيوخ وشباب، يقودون بنشاط، يضعون نظّارات شمسية، الشيوخ في الوسط، والشباب حولهم في الأطراف، صفٌّ طويل عريض الصفوف. أشرت إلى الفيلق، فوقفنا، وراقب قادس والجنود الدرَّاجين، وعرفت في وجوههم العجب منهم؛ كيف يستمتع شعب بالعجل، وقد فتح أرضهم الجنود دون مقاومة؟! نظر الجنود بعضهم، إلى بعض، وهم يقولون: «لقد استسلموا بلا أيّ ضمير!»، فضحكت؛ إذ حتى لم يرفع رأسي شعبي أمام جنودي! ظلَّ الدرَّاجون يقودون في سعادة، حتى كادت مقدَّمتهم تصطدم بنا، لكنهم توقَّفوا مصدومين، وتجمَّع الشيوخ على رجل قصير له صلعة عرصاء، وأنف مكوّر، يستفتونه، وهو يتعصَّب، ويتلوَّن، ويعطي الأوامر. تقلَّصت مقدَّمتهم في قوس مقعَّر، يراقبون القصير الأصلع، أين رأيت هذه الخلقة؟! مال عليَّ قادس: «تُراهم قلقون؟ ألا نؤمّنُهم؟!»، محترم أنت يا قادس، مؤدَّب جدًّا! فأضمُّ أصابعي وأشير إليه أن يصبر. ثم حضرت على بالي أخيرًا المعرفة، وصحت وأنا أشير إلى القصير الأصلع: «أليس هذا هو الرئيس؟!»، فانتصب الفيلق عن بكرة أبيه، وصدر لانتصابه صوت كطقطقة العظم، وقفوا في ترقُّب القطة وتطلُّع الصقور، صاح رئيس شعبة المعلومات: «هو يا فندم!»، ورفع صورته لنا، فصحت تكتسحني نشوة النصر: «ائتوني به! واقتلوا من يهرب منهم!»، وضحكت أنا وقادس، بينما تتحطَّم الدرَّاجات الساقطة تحت أحذية جنودي، وأجساد أصحابها تتكوَّم من التدافُع أو النار. بينما يدفع مدير المخابرات الرئيسَ أمامه، يعصُّه في رقبته، يحاول أن يسيطر عليه بفكّه، ويرفع علامة النصر، والرئيس يولول: «يا فندم يا فندم!»، فأميل على قادس وضحكي يملأ الشارع: «أضف نيشانًا لمدير المخابرات!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الأخدود

ظهرت في الأفق أبواب الأرض المقدَّسة، فالتفتُّ خلفي وبصقت في غِلّ وأنا أمرُّ ببدوي، فصاح: «م وين جائي يا خا العرب؟!»، فلوَّحت بقبضتي: «من العدنانة!»، وبصقت، فهمهم مرحّبًا بصوت عالٍ، فأشحت بذراعي، فنادى: «اصطبر، ألا تشرب لبنًا أو عيراناً؟ أحلب لك عنزة! تعا!»، فنظرت حولي شبقًا للَّبن، كان الحصى يتجمَّر، ويتحمَّص، ويفرقع من حين إلى آخر. الشمس منذ فترة اقتربت أو كبرت، لا أدري، فحصرت كل ظلّ لصاحبه. نظرت إلى عنزة صغيرة تتقافز حول أمّها وكأنها تضحك، فسألته: «أعطني بعض اللبن من هذه العنزة الصغيرة»، فضحك، انثنى إلى الخلف بظهره، وأمسك جبهته من الضحك: «لاه لاه، العدادنة باتوا مرَّة جهَّال بالبدو والبرّ، العنزة صغيرة مولودة، لا ضَرْع لها يا خوي!»، صحيح، كيف لم أفكر في هذا الأمر؟! ونظرت إلى ضَرْع أمّها، ممتلئ يهتزُّ مع مِشيتها، يحكي عن طعم اللبن والجبن والقشدة: «آه، طيب، أعطني بعضًا من لبن أمّها، فتصبح العنزة أختًا لي من الرضاع!»، فضحك: «تعا تعا هالعددني!»، فجلسنا في خيمة صغيرة، قال إنه يستريح هنا جوار بئر جلعاد، لأنه ذاهب إلى البترانية. سألته بعض الجبن والخبز، فأعطاني، وأعطاني تمرًا ومهروس خبز في اللبن والخلّ، كان طعمه جيّدًا. سألني: «وما جاء بك لهنه يا خوي؟!»، رشفت من اللبن وكان رائبًا، قلت: «جئت أحرّر الأرض المقدَّسة من الغراقدة الكفرة أولاد الكلب!». انفجر فمه ماءً، فأغرق العنزة الصغيرة التي جرت مفزوعة، قال: «شنو؟!»، شهقت: «ما أفزعك يا أخ البادية؟!»، فقال: «يا خوي لا تواخذني، لكن كيف يعني تحرّر الأراضي المقدَّسة، وانت هايم وحدك ع الصحاري بلا ميّ ولا زوادة؟!»، ضحكت: «يا أخي بحثت عمَّن يأتي معي في أرض العدادنة فلم أجد أحدًا، فجئت!»، أومأ، ومسحت العنزة الصغيرة رأسها في كفّه، فأعطاها بعض الماء، وقال لي: «اللّه مقوّيك، خذ هذا الزواد معك، واللّه ناصرك!»، فربتُّ على يده وشكرته: «واللّه أظافرك أكثر بركة من بني عدنان!»، فهمهم شاكرًا، فقمت، لكن سألني قبل أن أذهب: «لكن الغراقدة حيلهم دبَّابات، وطيَّارات، ومدافع، ونار من كلّ جانب! كيف تحاربهم وحدك؟!». نظرت إلى البوَّابات والقيظ يرعشها أمامي، وتابعت طيرًا وحيدًا يحطّ على بعض الشجر، ثم قلت: «يا شيخ البدو، الحرب لا تحتاج إلى ذراع ولا إلى بندقية! أعني أنه لو جاءت جيوش العدنانة كلها هنا، هل تفعل شيئًا؟ على رأي أحدهم، هؤلاء بارعون فقط في طهي الكبسة!»، ضحك في خُفُوت، وفكَّر، ثم أعطاني خنجرًا وبكى. حدَّقت إليه قليلًا وخرجت.

كان في الخنجر حجر أخضر غريب، يبرق كأنه عين لا جماد، كدت أعود لأسأله، لكن سقط فجأة جواري غراب، حسبته ميتًا من ارتطامته، لكنَّ

جناحيه ارتعشا، ثم هزَّ رأسه وقفز على رجليه، عطس مرتين، ثم انتصب ينظر إليّ، مال برأسه كالحمام، ثم سألني: «معك القفَّازات؟!»، شهقت! فسأل ثانيةً: «أقول لك معك قفَّازاتك؟ قفَّازات الملاكمة!»، وقف شعر قفاي، ولم أستطع الردَّ، فأومأ: «تمام تمام، يبدو أنك مصدوم، المهمّ، جئت أذكرك أنَّ اللكمة تبدأ من القدم، فاضبط وضع الاستعداد قبل أن تضرب! اقتلهم جميعًا يا رجل!»، ثم طار. نظرت إلى ارتعاشة مخاليه من بين جناحيه، كيف عرف بأمر القفَّازات؟! خلعت حقيبتي، وفتحتها أتأكَّد، وكانت القفَّازات في مكانها! نظرت ناحية الغراب، صار خطًّا يتحرَّك في السماء. ألا تؤذيهم الشمس بطباعها الجديدة؟ يبدو أنَّ الظهيرة ستطول! هل كان هذا الغراب يتكلَّم حقًّا؟ أم أنّ القيظ هيَّأ لي هذا الأمر؟ قفازات؟ أضبط وضع الاستعداد؟! حملت الحقيبة مرة أخرى، وسرت ناحية البوَّابات، وبدأت مروج الأراضي المقدَّسة تظهر من حولي، أشجارها العتيقة تحمل الطيور، تزقزق تغرّد تصيح تنعب تنعق، اقتربت من إحدى الأشجار، كان جذعها عريضًا جدًّا، تتهدَّل منها لبالب طويلة متينة، ابتسمت: لو كانت عندنا في العدنانة لكانت مشوَّهة برسائل العشَّاق، أو السباب البذيء، أو بألوان العلم؛ ألوانِ كلّ شيء في العدنانة، حتى السماء والأرض تكاد تكون لهما الألوان نفسها، أدمغة الناس لا تخرج عن تلك الألوان الثلاثة! الأرصفة، الأبواب، أعمدة الإنارة، أبواب الدكاكين، السيَّارات، النظَّارات، أزياء الطلبة، الأحذية، حتى أدمغة الناس وأمزجتهم؛ لا تخرج عن الأحمر والأبيض والأسود! بل باتت أجسادهم ملوَّنة بالثلاثة؛ شعور وآباط وشوارب وعانات وأعضاء سوداء، ألْياتهم وأفواههم حمراء، وكذلك أحيانًا تكون بيضاء! أصبحت العدنانة عجوزًا متصابية شبقة، كلّ شيء فيها يبرق، يغطّي تحته هُوَّة سحيقة من الجحيم! الجحيم التي توعَّدني بها الملك إن سرت إلى الأرض المقدَّسة طالبًا حقَّنا فيها! قال بالحرف الواحد: «انتهى الأمر يا عماد فاروق، وأصبحت الأرض المقدَّسة بيد الغراقدة، والغراقدة هالحين أصدقاء، نحنا سوّينا لكم السلام بتعب وتضحية، ما هسمح أبدًا لإرهابي متلك يضيّع جهدي وجهد إخواني، وقسمًا بنفسي وبملكي، لو تكلَّمت مع أحد أو ذهبت ناحية أورغرقاد، لأكون شاويك بالنار!». لم أردَّ عليه! ليس خوفًا لا سمح اللّه، بل هذا علج أصيل من سبخة سماد عضوي، لا يجوز أن أردَّ عليه بكلمة! أعددت ما استطعت حمله من قوة في الحقيبة، وسرت إلى هنا! والحمد للّه، الطريق كان سهلًا؛ لم تحجزني عاصفة أو مطر، والأرض المقدَّسة لا يغيّر موقعها بشر، ولا تزحزحها رمال! سمعت صوت قطرات على الحصى خلف الشجرة، نظرت إلى البوَّابة حتى لا أضيّعها، ودرت حول الشجرة، فرأيت خطًّا رفيعًا من الدم، تتبَّعته، فوجدت غرقديًَّا بضيفرتين تدلَّتا من جوانب رأسه، يذبح طفلًا منكَّسًا من قدميه! انقلب بطني، قال لي: «ها شالومو شالومو، تبغى لحم طيّب ياخ العدنان؟ ولا تبغى لحم بالغ؟!»، فاستأذنته: «هل تمسك لي الحقيبة؟»، فترك السكّين والساطور، وبدت على

الأشجار جثث أخرى منكسة، وصاح: «بالطبع بالطبع خبيبي، نخنا ولاد عمّ وإصخاب!»، فتح لي السحَّاب، فأخرجت القفَّازين، وارتديتهما، وسألته أن يربطهما لي! فابتسم: «هيك شكلك ملاكم! عندنا أخوك يواكيم ليفي هوخر ملاكم!»، فابتسمت: «أشكرك يا بن الوسخة!»، ولكمته، فسقط ميتًا! صرخت: «أنا هنا أيُّها الملك رغمًا عن إستك!»، وأخرجت رَفْشًا فضّيًّا ورثته من خالتي رحمها اللّه، كانت تزرع به حديقتها، وحفرت ساعة، ثم دفنت الجثث المعلَّقة، وسحبت جثَّة الغرقدي خلفي حتى البوَّابات! شعرت وأنا أقترب منها بنسيم بارد من خلفي، وشممت رائحة لحم مشوي، الجوع كافر! نظرت خلفي، فانكفأت على وجهي! زحفت خائفًا، ثم اعتدلت أتأكَّد ممَّا أرى؛ كانت الشمس تسير خلفي تمامًا، القرص بالكامل يسير ملتصقًا بي، بينما تحترق فيها جثَّة الغرقادي، والسماء صارت في الأعلى مظلمة، تضربها صواعق، رفعت يدي: «إحم.. إحم إحم، السلام عليكم!»، فهبَّت من قلبها برودة لطيفة، فهدَّأتْ قلبي، «شكرًا!»، ثم اقتربت في حذر، وربتُّ على القرص، فوجدته باردًا! «سبحان اللّه، منذ قليل كنتِ جهنم!»، فنفخت نفخة باردة أخرى! قلت: «طيب!»، وأفلتُّ قدم الغرقدي ليحترق تمامًا خلفي، وتقدَّمت!

كلَّما تقدَّمت ناحية البوَّابات، أبرزت الشمس تفاصيلها؛ الأبراج الثمانية، ونقوشها الغرقادية الوثنية، البوابة الحديدية العملاقة المقسَّمة إلى أربعة مَصَارِيعَ عليها رموز مكرَّرة، نجمات سباعية وسداسية، وعين ثقيلة، ولسان من ذهب، وجماجم، وكتابات قبيحة لم أفهمها. وجنود كثر على الأبراج، يرفعون أذرعهم إلى رؤوسهم اتّقاء الشمس التي تمشي إليهم! يتصايحون بلغتهم القبيحة، وينفخون الأبواق، كلما اقتربت تبرز أوامرهم، ركضهم، شتاتهم، تصايحهم، هلعون يرفعون السهام والنبال، يقذفونها فتحترق قبل أن تتجاوز أقواسهم، حتى ما إن كدنا نصل حتى أخرجت الشمس سوطين منها قَوَّضا العمدان والأبراج، رجَّتها ثم تخلَّت، فسقطت البوَّابات كلُّها كأنها الرماد في الريح، بينما طاف الجنود صرعى في الهواء، في مدار حول الشمس، قبل أن تلتقمهم في هدوء. دخلت المدينة فكان الناس بين صريع وراكض، ارتفعت الشمس في هدوء، ودفؤها يدفعني. ضبطت وضع الاستعداد، ولكمت أوَّل رجل قابلته، فسقط ميتًا، ثم آخر فآخر، حتى اجتمع عليَّ رهط منهم، فصرعتهم، لكْم في كل اتّجاه، لا أرى ملامح الوجوه، كلها واحدة عندي قبل اللكم وبعده، وجوه غرقادية مصفرَّة، حتى إذا تكوَّمت جثثهم في الطرقات، ركضت خلفهم أصيح: «يا أولاد الرعاع! فليأتِ ملوك عدنان يمنعونكم!»، فصاحوا، وقابلني في شارع من الشوارع موكب عظيم، أوقفني، ونزل منه ملكهم؛ بنجامين الثالث، ورفع صولجانه ليضربني، فلكمته، فسقط ميتًا، فصرخوا وركضوا، فَراش مبثوث، يدفعون بعضهم بعضاً ليموتوا دعسًا! إنها القيامة أيَّتها الأرض المقدَّسة! الأمر أيسر ممَّا توقعت، لم يكن يلزم أن أطلب

من أيّ عدناني واحد أن يأتي معي! إنَّ الأعداد لا تعني شيئًا في الحقيقة! ضربت الشمسُ خيوطًا وسط مادة السماء، ظلَّت تتأجَّج كالنار وتنوح، فيصول نواحها هذا إلى كلّ جوانب المدينة، فلا يبقى رجل منهم ولا امرأة إلا وصوته ذهب من الصراخ! وذراعي صارت كساق تَركُل، ترتفع وتهبط على الوجه فتهرسه، تُخرج المخَّ من أيّ فتحة، فم أو أنف أو أذن، تنفجر مقلة وتنبعج خارج محجرها! ركضت وركلت ولكمت، وصُرِعوا في الحال، أو دعس بعضهم بعضاً، والغربان تخرج من بطن الشمس مثل الجراد، تنقضُّ على الجثث تنهشها، ركضنا حتى القلزم، فألقوا أنفسهم، فحطَّت على رؤوسهم الغربان تغرقهم، فصحت: «لو كنتم أبناء موسى حقًّا، لانشقَّ لكم!»، وغرقوا!

بقيت أيامًا أصول وأجول، والشمس تدوي في النور والظلام بخيوطها النائحة، تحوّل السماء إلى ظلمة بلون الكاراميلّ الصافي، لا سحابة واحدة. تراكمت الجثث وفاح العفن من كلّ شارع، حتى حلَّ اليوم الرابع، ولم أجد رجلًا واحدًا يتنفَّس، أحرقتُ صوامعهم، وبيوتهم، وكدت أحرق المدارس، لكن دخلت عليَّ من أقطار المدينة دبَّابات تحمل الأعلام العدنانية والجبتية، وأحاطت بي، وخرج منها رجل عجوز في بذلة سوداء، وصرخ: «يا عماد يا بن الكلب، قالب علينا الدنيا يا بن الرفضي!»، لم أسمع هذه اللكنة منذ وقت طويل، ولم أرَ وجهًا جبتيًّا منذ شهور، قلت له: «أشكر حضرة الجنرال اللوطي!»، فشخر: «أنت بتشتمني يا بن القحبة؟! هاتوه!»، فخرج جنود جبتيون صفر من الدبَّابات، يركضون نحوي، فضربتهم، فماتوا! فصاح الرجل: «خائن! قاتل! إرهابي! هقتلك يا عماد يا فاروق زيّ ما أمر الملك، هنحرقك حيّ يا بن الكلب!»، فضحكت: «الملك العدناني استأجركم لتقتلوني أم لتثأروا لأصدقائكم؟!»، خرج جنود آخرون، داروا حولي وبدؤوا بالحفر خلفي، قال: «ملك الروم، والأمريجوس، والأرمن، والجرمان، والفرنج، والفايكنج؛ كلّهم بيهدّدوا بدكّ العواصم عشان خاطر عنتريتك يا مجرم!». ارتفعت الشمس تزمجر، تسحب كلَّ النور في هدوء إليها، بينما تدور حول نفسها ونارُها تتلظَّى بذهب أليق! قلت: «وطبعًا الملك وقَّع بروتوكلات تعاون ثم بعثكم! أنا محصور، أريد أن أبول!»، فتحت السحَّاب وتبوَّلت على دبَّابة الرجل المسنّ، فصاح بي الجنود بلغة الغراقدة، فضحكت حتى تهزهز قوس البول وكدت ألوّث نفسي، فصاح: «حوشووه!»، فلم يقترب الجنود مني، فصاح: «هذه أوامر عسكرية يا جندي منك له!»، فرفعتُ وُسْطَاي في الهواء، «خلصتوا حفر ولا لسَّة يا معالق؟!»، فصاحوا وهم يحفرون: «هوب هوب هوب»، فصاح: «هيَّا أشعلوا النيران!»، فأشعلوا في حفرتهم نارًا، وسعَّروها بخشب وحطب، فصاح يقرأ من منشور: «بناءً على الأمر الملكي العدناني، أمرنا بإعادة كلّ جثَّة غرقادية إلى موقعها الطبيعي في الحياة اليومية؛ فالعامل في مصنعه، والمدرّس في فصله، والأمُّ في بيتها، وذلك بعد التحنيط والضبط على طريقة الرعامسة

والأخاتنة، وبعد ذلك تحرس الجيوش العدنانية الحياة اليومية لتلك الجثث، وترعاها، وتحافظ عليها من كلّ إرهاب أسود مع إلحاق أعمال ترميم البوَّابات والأسوار إلى الهيئة الهندسية للجيش الجبتي والعدناني الكبير، وضمان إعادتها إلى صورتها الأصلية تمامًا! الموقع إياه: قُسطنايوس الأوَّل ملك الروم، سيبتمبوس الثالث ملك الأولمب، جون الخامس ملك الأمريجوس، جوهانسون الثاني ملك الفايكنج وسيخارس التاسع ملك الجبت، ومسعود رقم ثلاثون ملك العدادنة!»، فصحت: «وأنا وأنت!»، فأشار ناحيتي، فتحرَّكت حلقة الدبَّابات من حولي، تضيق ببطء، فتقطع أيَّ منفذ للهرب، هم من حولي والنار في الحفرة من خلفي! بدأت ألكم وأركل، لكنها تضيق أكثر، تدفعني إلى النار، أركل وألكم، أمسكت النار بنطالي، فضحك الرجل المسنّ: «يحيا الملك!»، ردَّد الجنود: «يحيا الملك!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الدجَّال

كان القطار يسير فوق الجسر في تُؤَدَة، ويملأ صدى صفيره وصوت عجلاته المدى. الجسر يمرُّ وسط الأفق بالضبط، ويربط المدينتين الكبيرتين اللتين فصلهما المحيط، تطير فوقه غربان ونسور في جماعات متفرّقة كالسحب، والضباب يكبت الجوّ، وهو أكبر جسر في العالم الجديد، فبعد أن مرَّ رؤيوان الشتات، وصار الناس إلى مواطنهم في البلدان الجديدة، ومُحي العالم القديم تمامًا، افتتح الملك العالمي الجسر في حضور أكبر تجمُّع بشري، قطع هو الشريط الأحمر من طرف، والوزير الأول من الطرف الثاني، ثم خرج ألف شابّ وفتاة في ماراثون رياضي عظيم، استغرق يومًا ونصفًا تقريبًا حتى وصل آخر متسابق إلى الطرف الآخر من الجسر، إذ يحكون أنه جسر كمدينة كاملة؛ فيه طرق للسيارات، ومَمَاشٍ للناس والدرَّاجين، وسكَّة حديدية ذهابًا وإيابًا، فكان خلاصة المعمار العالميِّ الناجي من ظلمة الحرب والخراب! وكانت صدمة أمس عندما سقطت عربة القطار الأخيرة في حفرة في الجسر، لتغرق بما فيها من ألف رجل! ألف رجل بالضبط، لا امرأة واحدة حتى؛ ممَّا جعل أحد النواب، وهو المهلب جونزالز يقف في البرلمان ويصيح: «كيف يحدث هذا؟! هذا غير عادل! أين المساواة بين الرجل والمرأة؟! أين التنوُّع؟!»، فرمت سونيا السهممون قائدة الحركة النسوية في عاصمة العالم شاشة تلفاز مكتبها الأنيق في شارع الشالوخ الراقي بالمزهرية في وجه النائب! وصرخت مولولة: «يا بن الفاجرة!»، واتَّصلت بعفيف السعدوكين النائب أيضًا تحرّضه على الردّ على المهلب، فضرب عفيف الطاولة أمامه وانفعل: «بل يوجد تنوُّع؛ فهناك منهم الزنجي والرومي والجبتي العدناني... إلخ! وأيضًا فيهم النجَّار واللحَّام والكهربائي، أما المرأة فهي نصف المجتمع، ونحن لا نقبل»، وتمنى أن ترضى عنه سونيا قليلًا وترفع عينها عن تجارة النساء التي ينظّمها، وقرَّر البرلمان يومها أن ينال كلُّ رجل تعويضًا مئتي عرصون عالمي، فسأل عبد الحليم الخولكيمي صديقه قائد القطار: «وماذا تفعل مئتا عرصون هذه الأيام؟!»، فرشف قائد القطار سام الحامي من الشاي وقال: «هاي الحاكومة تيصريف ميتين ألف عرزون في كل حادثة جطار، فإن مات مئة صرفوا ميتين ألف، إن مات ألف صرفوا ميتين ألف! هاذي بادجيت.. بادجيت!»، وصفَّق النُّوَّاب في البرلمان ثناءً على ما قاله عفيف، فقام وزير الثقافة ودعاهم إلى توقيع ديوانه الجديد، في مكتبة الأبجدية الألفية في شارع الشالوخ، فجلس في الصفوف الأخيرة الناشرون والكتَّاب الصغار، ووقف الوزير بعد احتفاءات النقَّاد الكبار وسط القاعة يرتّل:

أيها الثعلب الآبقْ

الراقدُ على النمارقْ

قبل الجميع سابقْ

لكلّ العدوّ حارقْ

ارفع خطمك ليعلو

لعلَّ الدنيا تحلو

سفينة البوارقْ

اعلُ عليها سامقْ

صفَّق الجمهور، بينهم الوزراء، فردَّد وزير الصناعة في أذن الوزير الأول: «معكرونة النقانق، سبايسي ولا حارق؟»، فضحك الوزير الأول، وصاح رجل قصير مربَّع، له لحية متَّسخة قصيرة، يرتدي ثيابًا ضيّقة، وشعره ملون: «هذا أفضل ما رُتّل من الشعر الحديث، صلّى عليك الإله!»، فهلَّل بعض الناس خلفه، بينما أنكر آخرون، فانتشى وزير الثقافة، ومسَّد شعره وضمَّ نظّارته إلى أنفه: «نعم يا حبيبي، أنا نبي الشعر!»، ثم غمز للرجل في وجل، فاستحى الرجل القصير، وأسدل جفونه إلى الأرض، ثم قال بصوت ناعم: «أشكر سيادتك، أنا الناشر سبعبع المُتَلبي، صاحب منشورات الربعبع، سعادتك»، فأومأ الوزير وهمس: «ثقافة ثقافة!»، فقام الناشرون والكتَّاب والنقَّاد والمطبعجية والصحفيون والرسَّامون والعازفون مرة واحدة، يدقّون الطبول ويتهدَّجون: «ثقا-فة ثقا-فة ثقا-فة»، فانفلق الوزير كالباب وخرج منه الوزير نفسه، ثم بدأ يطوف حول نفسه، والطبل يدور حوله، بينما بدأ سبعبع المُتلبي بالتعرّي قطعة قطعة، لحمه أبيض مشعر سميك، فلما تجرَّد تمامًا من ملابسه، فتح له الوزيرُ نفسَه، فدخل واختفى، فسقط من السقف طوفان من الذهب، ملايين العرصونات الذهبية، حتى أنشأت سبعبع مرة أخرى لكن من الذهب، ووضع ذراعه في ذراع الوزير كزوجين وطافا مع الطبل، ثقا-فة ثقا-فة، فاهتاج الوزير، وصاح: «عين الثقافة تأتي بالحبّ!»، فجثا السبعبع المتلبي الذهبي على ركبتيه وكشف عن عين ثالثة في جبهته، فأخرجها الوزير من محجرها، ثم بدأ يضاجع رأس السبعبع المتلبي الذهبي، والطبل يعلو: «ثقا-فة ثقا-فة»، سأل وزير الصناعة: «إذا أردت أن أشتري كلب أرمنت أصيلًا، من أيّ مزرعة أشتريه؟»، فقال له وزير الصحة: «مُرَّ بي في الوزارة، الأمر بسيط!»، وابتسما، توقَّف جوارهما كاتب شابٌّ للحظة، وصاح: «الأدب رسالة، وهذا ابتذال ناقص! لا بدَّ من أن نثور بالأدب!»، وبدأ يطوف حول نفسه! فأخرج سبعبع المُتلبي الذهبي عقدًا من جيبه وأمضى معه عقد الرواية الجديدة، وقال له: «أنت نبي الدار!»، فصاح الكاتب: «سبعبع سبعبع سبعبع!»، همس مدير هيئة الكتب في أذن الوزير الأول: «سعادتك، لقد قال: الثعلب الراقد، وارفع

خطمك لأعلى! وهذه القصيدة عنوانها صاحب المجد، يقصد الملك سعادتك!»، فعبس الوزير الأول!

بعد بضعة أيام، احترق مصنع للغزل والنسيج، فماتت ألف خيَّاطة، فصرفت الحكومة المئتي ألف، وقامت سونيا السهممون بنفسها تصيح وسط البرلمان، ترتدي فستانًا من جلد النمر، فقرَّر البرلمان إقالة وزير الصناعة! فوقف المهلب جونزالز يدافع: «وما شأن وزير الصناعة؟ صاحب المصنع هو المسؤول! ولو أردتم إقالة أحد، فأقيلوا كلَّ الحكومة!»، فشخرت سونيا وسط البرلمان، وشقَّت ثوبها وانهالت هي والنائبات على المهلب بالضرب! قلن إنَّ هذا المهلب يهضم حقَّ المرأة، وأصررن على صلبه وسط البرلمان، فوافق البرلمان، فصلبوه، فانتهز عفيف سعدوكين الفرصة وقال: «إن احتراق ألف امرأة دون رجل واحد، لهو تفرقة مجتمعية وخلل في المروءة، لا بدَّ من تشريعات تضع حدًّا للتفرقة المجتمعية في المصانع المحترقة!»، فقال سهل كواتن لزوجته وهي في حضنه بعد الغداء، يشاهدان التلفاز على السرير: «كم رويبضة تافهًا يتكلّم في هذا العالم؟»، فقالت: «واحد، هو أنت؛ تشاهد البرلمان وتتركني!»، فأغلق التلفاز، وناما! صفَّق البرلمان، واحتضنت سونيا «عفيف»! فأقرَّ البرلمان تعيين عفيف السعدوكين وزيرًا للصناعة! فتزوَّج سونيا، وأَوْلاها تجارة النساء، وانصرف لبناء مدينة صناعية خاصَّة بأدوات الأمن والسلامة، وقرَّر أن يبني على ركام المصنع المحترق نصبًا زجاجيًّا ذكرى للحادث! ثم أقام احتفالية كبرى في المدينة الصناعية ساعة افتتاحها، وحضر خلق كثير هذه الاحتفالية، وكان من كبار الحضور حسن الهلالي، رجل أعمال كبير، لكنه في الواقع كان زعيم المافيا، جلس وسط الوزراء ورجال الدولة، وأعلن المذيع أنَّ الأمَّة العالمية تشاهد الحدث كلَّه، وشعر الناس بالفخر، فابتسموا وطافوا حول أنفسهم، وقال الملك: «هذا صرح عظيم!»، فأذَّن وزير الثقافة بالصلاة: «أيها الشعب الخارق، تعالَ إلى المفارق!»، فبدأ الوزراء بالسجود للملك، الذي احمرَّ خجلًا، ووزَّع عليهم قضبانًا ذكرية صناعية من الذهب الخالص، فاهتاج سبعبع المتُلبي الذهبي، وقرص مؤخّرة وزير الثقافة، وخلع قبعته وقال: «عيني التالتة مشتاقة، وكل أخرامي محتاجة!»، فلطمه الوزير: «يا فاجرة إحنا بنصلّي!»، وسجد للملك، فسجد سبعبع، فسمع الوزراء يصأصئون «سوسوسوسوسو»، فهمس للوزير: «هو أنت بتقول إيه يا عمري؟!»، فرفع الوزير ذراعه للخلف وهو ساجد ولطم مؤخّرة سبعبع فارتجَّت، فضحك في خلاعة، فقام الوزير الأول من سجوده، وركلهما بشدَّة: «بتعملوا إيه ف بعض يا مشابك؟!»، وأمر رجلين، فقتلاهما، ونادى على رئيس هيئة الكتب، وأمره بالسجود للملك، فسجد والفرحة تكتسحه، فأقرَّ الملك تعيين رئيس هيئة الكتب وزيرًا! ونادى الوزير الأول: «لا مكان للسدوميين بيننا!»، فاعترض الروائي الشابُّ وبعض من نخب المثقفين وقالوا ألفاظًا غير

مفهومة: «الحرية حق إمبريقي! - تسقط السينسورشيب! - الحرية للشواذ! - أين أمان المثقف؟!»، وطافوا حول أنفسهم! فأسقط وزير الثقافة الجديد بعض الذهب الذي تناثر من جثة السبعبع، فوزَّعوه على النخبة، فسجدوا للملك، بينما وقف الروائي الشابُّ رافعًا قلمه: «لو مات السبعبع فكلّنا السبعبع!»، وانفلق ثم خرج من نفسه وسجد لها! في حين مرَّ سرب عظيم من الغربان، فبصق على الناس، فسقطت البصاقة على كتف حسن الهلالي، فابتسم وقال: رزق، ونظر عن اليمين، فوجد رجلًا مربَّعًا أعور معوجَّ الساقين، يرتدي بذلة سوداء، يدخل الاحتفال ويجلس وحيدًا، فقام وهُرِع إليه، بينما سماء الليلة تخفي سحبها وغمغمتها، تختفي خلف خطوط الكهرباء والإضاءات العصبية. فلما وصل إلى الأعور، كان من يصلّي قد أنهى الصلاة، قبَّل يده وسأله: «ما هذه الغيبة الطويلة سيدي المسيح؟!»، فقال له الأعور بكلّ بساطة: «أيُّ صلاة تلك؟!»، فقال الهلالي: «صلاة الاحتفال في المدينة الصناعية الجديدة التي أنشأها عبدك الضالُّ عفيف زوج الضالّة سونيا، والملك يباركهم!»، فوبَّخه: «يسجدون له من دوني وأنت ساكت؟!»، فتباكى الهلالي: «واللّه لأورّيهم ولاد الكلب!»، فاتَّصل برجاله، فدهنوا الطرق بالزيت والسمن، فانزلقت المقطورات والسيارات وتداعست، وفُرِم الناس في السيارات! كان هذا خلال الحفل، فلما وصل خبر حوادث السيارات والمقطورات المنزلقة إلى الملك، فقال: «اللّه يرحمهم كانوا طيّبين!»، فصاح الوزير الأول: «اللّه أكبر!» رافعًا يده، ورتَّل للملك: «أيها الأسد السامق، الجالس على النمارق، إن تقبل نعانق، وإن تعفُ نشارق، شروقًا غير سارق!»، فنشج الوزراء والمصلُّون وراءه، فقال أحد القرَّاء للروائي الشابّ: «وماذا نفعل الآن؟ نحن لن نصلّي للملك؟ لمن نصلّي؟!»، فلطمه الروائي: «ألم تقرأ كتابي يا كافر؟!»، وطاف حول نفسه، فطاف القرَّاء! رجع حسن الهلالي مستبشرًا، سأل الأعور: «أرضيت يا سيدي؟»، فقال الأعور: «إنهم يصلُّون ثانية!»، فبكى بحقّ الهلالي هذه المرة: «يا مولاي، لو كنت أنا الملك، لعبَّدتهم لك!»، ثم طاف حول نفسه وهو يدور حول الرجل الأعور!» فقال له: «إذن هي لك!»، وقام ناحية الملك ونادى: «انزل يا بن الكلب!»، فلما رأى الملك العين المشوَّهة صرخ وقفز على الساجدين، فانفجر وانفجروا، وتحوَّلوا إلى فطر عُشّ غراب أسود كبير، انتصب في منتصف المنطقة الصناعية، هبطت عليه البوم وبالت! فصعد حسن الهلالي مكان الملك وقال: «إنما أنا عبد مثلكم!»، وقتل الوزراء ووزير الدفاع، وضمَّ الحكومة إلى عصابته، وأقام نصبًا تذكاريًّا كبيرًا لرجال المافيا في العالم، رجال قصار وعماليق، وجوههم مسودَّة، ويحملون العالم فوق رؤوسهم، مكتوب فوقه: «من المؤمنين رجال صدقوا!»، ثم بنى هرمًا من ألماس، وضع فوقه تمثالًا للرجل الأعور! سقطت من السماء ألف ألف صاعقة، وكأنَّ أجنحة عملاقة رفرفت فدكَّت الأرض، وانفجرت البراكين أمواءٍ وأمطرت السماء، وانصرفت الصراصير عن حمل العالم

الجديد على أكتافها، فسقطت الأرض في الهُوَّات البعيدة، وطارت التنانين تبحث عن أيّ لحم تأكله، ووقفت الغربان تشكو للبوم أنها تشعر بالملل بعد أن توقَّفت عن لعبة قصف البصاق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الدم

لا تزال تعكّر السماء خضرة صفراء من أثر احتراق مذنَّب كبريتي في إحدى طبقاتها، هذا من أسبوع تقريبًا، وظلَّت الحكومة تحذّر الناس من شرب ماء المطر أو حفظه حتى اليوم، بل رأيت إعلانًا في غاية السخافة أمس، عن أب يضرب ابنه لأنه لعب في المطر بعد انفجار المذنَّب، وفتح فمه يلعق المطر! يريدون من الناس أن يضربوا عيالهم، ويعلّموهم العنف، ثم بعد ذلك يتظاهرون في الشوارع ضدَّ هيئتنا! عالم غريب! لا يزال مهندسو الصيانة يثبّتون شاشة الأداء الشهري الجديدة، شاشة كبيرة علَّقوها في صدر الحائط المواجه لمكاتبنا الزجاجية، كي نتابعها خلال العمل، ويراها من في المكاتب الخلفية، والحقيقة أنه موضوع مقزّز ومقرف وابن كلب أن يختاروا اليوم الأخير من الشهر كي يثبّتوا هذه الشاشة الجديدة، فالنفر منا يريد أن ينجز أكبر قدر من المراسلات ليحوّلها إلى نقود، أن تردَّ على ألف بريد في الشهر يضمن لك الراتب الأساسي ثلاثة آلاف عرصون هيرمستي، والحوافز تقريبًا ألفان آخران، وكلما زادت المراسلات زادت العرصونات الذهبية الجميلة! لذلك فأغبى قرار أن يوقَف العمل والموظَّفون لأجل شاشة جديدة! واللّه كان من الممكن أن يصبر إلى غد مثلًا كي يفعلها، لكنه مدير غبي، طفل فرحان بشاشة جديدة يضمُّها إلى قائمة إنجازاته في إدارة القسم!

الزملاء قاموا من مكاتبهم، يتكلَّمون ويضحكون أو يشربون شيئًا، يحاولون إخفاء ضجرهم وغضبهم، أما أنا فبقيت في المكتب أتابع السماء والمدينة، لأنّني لو قمت تكلَّمت مع أحد قد أسبُّ المدير أو أيَّ أحد آخر، والنفر منا ليس له فرص كثيرة كي يعمل في هذه المدينة، غير أنها كانت معجزة أن أعمل في هيئة دولية كبيرة مثل (هيئة تنظيم الموت والوفَيَات) التابعة لمجلس إدارة العالم، في وقت كان زملاء الدراسة يبيعون الغربان وعُشَّ الغراب في الساحات والميادين، فقليل من ضبط النفس يحافظ على العرصونات الذهبية الجميلة. ضحكت مادموزيل موديانو ضحكة خليعة، قحبة فرنجية تفاخر بساقيها وردفيها وتعلن عنهما بكعب حذاء صغير أحمر، لا أعرف من أين أتت به، لا ترتدي غيره، تتكلَّم طَوال اليوم مع أيّ أحد في أيّ شيء، حتى أنّني سمعتها مرة تتحدَّث مع آرثر هوبكنز وسليم شاش عن ماركة ألبسة رجالية قطنية جديدة تتميَّز بمَطّاطات ممتازة، كانت تضحك الساعة مع مهندس الصيانة وترطن بفرنجيتها المائعة، قحبة من الغال، لا أقصد بقحبة أنها عاهرة، لا، اللّه أعلم بالخفايا، أنا أقصد أنها لها طبع القحاب في العمل، تحابي وتحبُّ من يقضي لها أوراقها، وتقرّبه منها، وتنبذ الصارمين المستقيمين من أمثالي، آرثر هوبكنز هذا ظربان كبير، الأكثر في جنْي العرصونات الذهبية، قد يصل أحيانًا إلى عشرة آلاف! والفضل في ذلك لعلاقاته مع مدام موديانو وأمثالها،

أخلص لموديانو لتخلص لك، أخلص لهوبكنز ليخلص لك. ألقى عليَّ راكان العنزي السلام: «السلام عليكم شيخ مولود، بارك اللّه فيكم!».

«هلا عنزي، اللّه مجيرك بلاها شيخ هاذي، إنت تِعرِف إنه الهيرر شفارتس شديد ولا يحبّش ها الألقاب العدنانية!».

فضحك، واستمرَّ يتحدَّث بنبرته الهادئة: «واللّه ما يهمّني هذا الشفارتس يا خوي، أنا يهمّني ولد عمّنا مولود ولد رُحيم، شخبارش؟».

«بخير واللّه، زين كتير آني! لكن هيك الجحبة موديانو جرفاني بصرتتها العالية، كل شوي صرت صرت، مو معقول واللّه!».

«إي واللّه عندك حق، صوتها عالي وضحكها مايع، فرنجوية يا بوي، بالك! انت تتزوَّجها وتربطها بالبيت!».

نخرت: «وليش لا؟ أخطُفها وأربطها بالبرشيت وأطلّع عليها نابح يُركبُها!».

ضحك: «طيب إيش نسوّي هالحين؟ السيستم واقع ونِبي نشتغل!».

فتحت ذراعيَّ: «ما إعمل ياخوي؟ راجل مرفوص.. يافوخه في استه!»، فضحك ثم أشار إلى شاشة حاسوبي: «ها! يلّا، اشتغل، ظاهر إنه عاد!»، فأومأت، وسلَّم عليَّ وانصرف، فتحت البريد فورًا، خمسون رسالة غير مقروءة، بدأت أقرؤها وأردّ، والأرقام على الشاشة الكبيرة، ترتفع وتهبط بلا توقُّف، اسمي تحت هوبكنز بالضبط، الفارق مئة نقطة تقريبًا، أي عشر مراسلات تقريبًا. فتحت رسالة جديدة: بنجامين سلوخو ردّ: بخصوص استيراد أفران احتراق

السادة المحترمون/ الهيئة العالمية للموت والوفَيَات: ردًّا على مراسلتكم السابقة، فقد اتَّفقنا مع شركة هوموغاز على شراء مئة وعشرين موقد حرق بشري لأغراض حربية.

نرجو إفادتنا بالأوراق المطلوبة لإرسالها إليكم.

بنجامين شلوخون

الأمين العام لمكتب الحرب

أورغرقاد

رددت:

السيّد سلوخو/

تحية طيبة وبعد،

مرفق ملف يحتوي على كلّ الأوراق المطلوبة لتسجيل طلبكم في الهيئة.

الرجاء العلم بأنَّ آخر ميعاد لإرسال الأوراق يوم الخميس الموافق التاسع من هذا الشهر.

شكرًا،

مولود ولد رحيم

مكتب التحقيق

الهيئة العالمية لتنظيم الموت والوفَيَات

أوتوليتكا - هيرمستا

فتحت التالي:

خواكين يوهانسون عملية ماسخدلاند

السيّد العزيز/ مولود

مرفق الملف الخاص بالمدنيّين المقتولين أثناء هجومنا على مدينة ماسخدلاند يوم الاثنين السابق الموافق السادس من هذا الشهر.

الرجاء تأكيد الوصول.

العقيد/ خواكيم يوهانسون

رئيس مكتب عمليات الجيش البيزنطي الثالث

بيزنطة

رددت:

العقيد يوهانسون/

أُكّد الردّ. سنتواصل معكم في حال الحاجة إلى أيّ معلومات أخرى.

نشكر لكم تعاونكم.

مولود ولد رحيم

مكتب التحقيق

الهيئة العالمية لتنظيم الموت والوفَيَات

أوتوليتكا - هيرمستا

وصلت رسائل قصيرة من بعض المدنيّين: أنا قتلت زوجتي؛ إنها خائنة شاذَّة مع صاحبتها.

رددت:

السيد العزيز/

شكرًا لإعلامكم إيَّانا بالخبر. نرجو إرسال البيانات لتقييد الحالة.

مولود ولد رحيم

مكتب التحقيق

الهيئة العالمية لتنظيم الموت والوفَيَات

أوتوليتكا - هيرمستا

التالي:

السيّد العزيز/

أخيرًا أنا ومدحت خلصنا من بابا، أنا عارفة إني هبقى غبية لمَّا أقول لك إني عازماك ع الفرح. بيانات الكُهنة بعتَّها لك في الميل هنا!

ميرسي مسبقًا.

ابتسمت: «اتدلعي يا خوزيا ع الفراش!»

آنستي المحترمة/

كلُّ التهاني للزفاف السعيد، والحياة الجديدة. شكرًا على إرسال البيانات.

مولود ولد رحيم

مكتب التحقيق

الهيئة العالمية لتنظيم الموت والوفَيَات

أوتوليتكا - هيرمستا

وأيضًا:

السادة الأعزاء:

مرفق بيان بأسماء المدنيّين المقتولين في شجار بشارع الصفون - مدينة السيخ.

رومبا السيّد

مجلس البلدية

رددت عليه، صار الفارق سبعين نقطة بيني وبين هوبكنز. نظرت ناحية مكتبه، لم يكن فيه، هذه فرصة كي أكسره! فتحت الرسالة التالية: تالا جودفرد أوناش آل براتسيا

السيّد مولود/

الرجاء العلم أنَّ أوناش براتسيا المتَّفَق عليها مع شركة آل براتسيا قد وصلت لدينا في يوم السبت الموافق الرابع من هذا الشهر، وبُدِئ العمل في هدم قطاع آسخون الذي يقطنه أقلّية الغال يوم الأحد الموافق الخامس من هذا الشهر.

تحيَّاتي.

تالا جود فرد.

أرسلت هذه الرسالة إلى موديانو؛ إذ إنها المختصَّة بهذا الموضوع، ثم رددت على تالا جودفرد، وصار الفارق بيني وبين هوبكنز خمسين نقطة. بدأ الزملاء يلتفتون إليَّ، وينقر بعضهم بأصابعه على لوحات المفاتيح، قلقًا أو سخطًا، مَن هذا الأمازيغي الذي سيسبق هوبكنز الساكسوني؟! فاشتعلت النشوة في صدري، وباتت نقرات لوحة المفاتيح ترنُّ في أذني رنَّ الذهب، تن تن تن، ذهب يمطرني وأنا رافع رأسي ضاحكًا ألعقه بلساني، والسماء ذهبية، والحكومة تصرخ في الإعلام: لا أحد يخرج من بيته؛ السماء تمطر شهبًا! وأنا ألوّح بكل أصابعي لهم، حكومة كاذبة كافرة! السماء تمطر ذهبًا يا هاياشين! ضحكت لخاطراتي تلك، وفتحت الرسالة التالية: سعد بن عقرب خندق السور الصيني

السلام عليكم أخ مولود/

نود إخطار سيادتكم أننا بدأنا بحفر خندق عظيم حول سور الصين العظيم، لأغراض حربية، ولحقن التربة بمواد هدم، عسانا نتخلَّص من العدوّ الصيني عن قريب.

أبو جعفر سعد بن عقرب التتري

الجيش التترستاني الأول.

قرأت الرسالة أكثر من مرة، من أبو العقرب هذا؟! لم أرَ هذا الاسم من قبل! والتترستان ليس لها منظمة حربية نتعامل معها! نظرت إلى شاشة الأداء الشهري، فارق الخمسين نقطة يهيّجني، وهذه الرسالة مريبة، ولا بدَّ أن أسأل عنها المدير؛ كي أتأكَّد من معلومات هؤلاء التترستان، ولن أستطيع أن أتجاوز

هذه الرسالة. طبعتها، وقمت مسرعًا إلى المدير، والحمد للّه أنه لم يكن مشغولًا. نظر فيها طويلًا، عبس، وبحث في شاشته لدقيقتين، رنوت ناحية شاشة الأداء الشهري، لا يزال الفارق خمسين، ولا يزال المدير عابسًا يفكّر. استعجلته: «ماذا نفعل سيّد باركنسون؟»، تنهَّد من أنفه، وقال الهايشون من دون أن ينظر إليَّ: «جو تو مستر كمال الرووافان!»، يا للمصيبة! شعرت بوجهي يصفرّ، ثم سألته: «حقًّا؟!»، فأومأ عابسًا! فكرَّرت: «هل حقًّا أذهب إلى مستر كمال الرؤيوان!»، فصوَّبني بنظرة حاسمة، ثم عاد يعمل! تمتمت: كمال الرؤيوان؟! كمال الرؤيوان يعني أنَّ الرسالة قد تُعلَّق للبحث لمدَّة قد تصل إلى نصف العام، أي تكون الصين قد أُزيلت من الأرض من دون أن نقيّد الحادث! وقد يكون مرسل الرسالة أصلًا ليس له علاقة بالتترستان! والأسوأ أنّني سأسخّر باقي اليوم لهذه المراسلة مع كمال الرؤيوان حتى تنتهي أو أنتهي! كمال الرؤيوان هذا هو رئيس قسم العرافة والغيب، قسم خاص لا أحد يعرف عنه شيئًا، سوى أنَّ «كمال» هذا أقدم موظف في الهيئة تقريبًا، عمل في كلّ الأقسام تقريبًا، ويعرف أكثر ممَّا يعرف الهيرر يوهان شفارتس رئيس الهيئة نفسه. مشيت إلى مكتبه في قسم العرافة محبَطًا، لن أكسر حدَّ هوبكنز المسخ هذا إذن! «يخرب دارة التترستان ع الصين ع الجنكيز!».

كان قسم العرافة والغيب في الطابق الأخير، والمصعد مشغول، صعدت الدرج وبصقت على كلّ درجة أرتقيها: «يبقى الخسيء المخصي روزا ينضّف السلم! يبقى يمسح بزاقي ببوقه، يلحسه لحس بلسانه، اتفوه!». وصلت وأنفاسي منقطعة، ضغطت على جرس الباب، فصدر تشويش من سمَّاعة، ظلَّ لدقيقة، ثم جاء صوت ضعيف: «من؟ ولماذا؟»، وضعت يدي في جيبي ونصبت وُسْطَاي وهززتها بشدة، فثقبت الجيب وانحشرت فيه، فلما لم أستطع أن أخرجها، نزعتها فانقطع الجيب، شخرت، فردَّ الصوت: «إيه؟ بتقول إيه ياض؟!»، تنهَّدت لأسيطر على نفسي، ثم قلت في هدوء: «يا أ. كمال، أنا مولود ولد رحيم، قسم التحقيق، جائي لك لحالة خاصة!». ظلَّ التشويش نصف دقيقة أخرى، ثم قال: «أمَّال كنت بتشخر ليه يا مولود؟!»، كدت أضحك: «لا أبدًا، حيلتي برد اللّه يعافيك!»، عاد التشويش نصف دقيقة، ثم: «اللّه! وأنت تعرف ربنا يا بني؟! إلا قل لي صحيح، أنت اسمك مولود وولد في نفس ذات الوقت؟ هيهيهي!»، زفرت: «يا أستاذ كمال أنا جائي لك بشُغل، مو جائي لك لتتمهزأ عليّ!»، فاستمرَّ يضحك بطريقته السمجة تلك: «هيهيهيهي.. طب خُشّ!»، وضغط على زرّ ففتح الباب.

كان القسم عبارة عن مساحة واسعة جدًّا، كأنها ملعب كرة، وتحيط بتلك المساحة حجرات كثيرة لا تُحصى، كلُّها مكاتب الموظَّفين. حجرة الرؤيوان في الطرف الآخر، فجلست على الأرض الباردة، الإضاءة ضعيفة، رغم آلاف المصابيح التي تتدلَّى من السقف، ليست كلُّها مضاءة، لكنها تُظهِر الرسوم

السماوية على السقف، ظهرت من الناحية الأخرى من الساحة كشّافات السيارة التي بعث بها كمال كي يأخذني، الساعة الثالثة والنصف، وليس هناك أمل لتخطّي هوبكنز! علا صوت العربة كأنه تجشّؤ طويل، ويقودها كمال بنفسه، فتح لي باب السيارة، فركبت، ضرب كتفي: «إزيك ياض يا مولود؟ عامل قلبانة ودوشة ليه؟ إحنا ناقصينك؟! هيهيهي».. أبتسم في حضرة كمال الرؤيوان حتى يصمت، فلو جاريته في حديثه أو تجاهلته فلن تنتهي من مزاحه السمج! استمرَّ: «وبعدين أنت إيه اللي طلّعك النهارده؟ مش عندكم تقفيلة شهر؟ روح خلّص شغلك عشان العرصونات الدهب يا أهبل!»، قلبي أوجعني، فقلت: «واللّه يا مستر كمال آني تعبت من هالشغلانة، إيش نعمل في هالمحروقة عشان نقبضه؟!»، فرفع ذراعه في حسم: «بقول لك إيه! أنا اسمي الحاجّ كمال الرؤيوان! مستر دي تقولها للعيال اللي عندكو تحت. يلّا انزل!». وصلنا إلى المكتب، ترك باب السيارة مفتوحًا، ثم دخلنا الحجرة، كانت في اتّساع الساحة الخارجية، وممتلئة بأرفف لا نهائية مزدحمة بملفات وكتب وكرات بلّورية للاستطلاع والمعرفة الفوقية، وسلاسل وجماجم، بل وقمامة في بعض الأحيان، سألت: «قل لي حاجّ كمال، هالدور كبير عنه من الأدوار السفلية! كيف؟»، فضحك: «أيوة، المبنى دا أنا شفته وهو لسَّة نونو، وكبَّرته على إيدي، وهشتكته ودلّعته لحدّ ما بقى زيّ ما انت شايف، ملعب كورة، جرن قمحة، جراج في مول، اللهم صلّ ع النبي، هيهيهي». لم أفهم ما علاقة هذا بما أقول، فأعطيته الرسالة من دون مناقشة! قرأها، عبس، ثم أشار بإصبعه أمامي وقال: «قوم ياله يا مولود هات كورة بلّور من اللي هناك داهي، رقمها 9856، بسرعة يا وله!»، قمت وبحثت عنها وعدت بها إليه، وضعتها أمامه، وأخرج من درجه شمعة وكبريتًا، أعطانيهما: «ولّع الشموعة دي! هيء، شموعة! هيهيهي!»، حدَّقت إليه وهو يضحك، ثم أشعلت الشمعة، فدندن: «قوم ولّع لك شمعة، آه، نورها مستنّيك، آه، وفي عيونه دمعاااه، اوعى يقع عليك.. هيهيهي». نظرت إلى الورقة ولم أنظر إليه، ربنا يبارك لنا فيما سيتبقى من فتات هوبكنز، خفتت دندنته، وضع الورقة أسفل البلورة وأمامهما الشمعة، وقف وبحث خلفه في مخطوطات وكتب، ثم أخرج مخطوطًا أصفر، وضعه أمامه، وأخرج من إناء بعض البَخُور أو البُهَار، ثم بدأ يرشُّه على البلّور والشمعة ويتمتم من المخطوط، حتى وقعت الشمعة، وأشعلت البلَّورة. ابتعدت عن المكتب، فأصبحت كرة نار، فلما أصبحت النار حمراء، شهق بشدة، ثم أشار إليها كأنه يلقي اتّهامًا مَشِينًا: «انت ميين؟!»، فتشكَّلت النار على صورة فم: «سعد بن العقرب، طالب ثانوي في أرض التتار»، فصاح الرؤيوان: «وانت ناوي على إيه؟!»، فقال الفم: «أتمنى أن أرى الصين جبانة كبيرة!»، برقت عينا الرؤيوان: «السنة دي عندكم كام؟!»، فقال: «نحن في العام 2067»، قلت: «ها العام!»، فضرب كرة النار فعادت بلّورة، فجلس بسرعة وفرقع إبهامه بِوُسْطَاهِ مشيرًا إلى الأرفف: «روح ودّيها

وتعالَ!»، فعلتُ وعدت أجلس أَمامه، فأخرج من درجه ربطة عنق زرقاء، عقدها، ثم قال باللغة الرسمية: «أعلم أنك لم تفهم أيَّ شيء، لكن العلم قد جاءك الآن، يا مولود بن رحيم، لقد جاءتك رسالة بريد من المستقبل، تنبئ عن زوال الصين، وهذا الحادث، يغمُّ الماجوس، ويسرُّ الأمريجوس، وتقوم الحرب، ويموت الناس الذين أَلِفوا طبائع القرن، ليعيش الناس الذين يبنون طبائع جديدة لقرن جديد، وكلُّ ما بناه الإنسان مهدوم لا محالة، فلا تردَّ على الرسالة، إنها نذير، فالزم مكتبك، نظّم مع زملائك عمليات الموت والتقتيل، حتى يأذن لكم سادة العالم الجديد، مثل سعد بن عقرب، بالتقاعد، كي يتخلّصوا منكم ومن كلّ القتلة المأجورين، فالحرب تتطهَّر بالحرب، والقتل يتطهَّر بالقتل، والمقتول له من يثأر له، فالموت مَشَاع، وإرث قديم!»، ثم نام وشخر. كانت الرسالة تحترق، ضربت كفًّا بكفّ: «لا حول ولا قوة إلا باللّه، ما فهمت شيء وربّي!»، ثم ركبت السيارة، حتى وصلت إلى باب القسم، وترجَّلت.

صارت الساعة الرابعة والربع، وللمفاجأة وجدت أنَّ الفارق خمسون نقطة فقط، نظرت إلى مكتب هوبكنز، لم يكن موجودًا، ولم يكن شخص آخر موجودًا، نظرت إلى الساعة مرة أخرى، الرابعة والربع، لديَّ ساعة إلا ربعًا! هُرِعت للرسائل، ورددت على سبع، ثمانٍ، إحدى عشرة، ثلاثين، خمسين رسالة: السيّد مولود، تحيَّاتنا، نحيطكم علمًا بأنَّ محصّلة نصرنا العزيز على الكرج كانت 300 - سيّد مولود، بعد التحية، ضربت قوَّاتنا الحبشية الملكية الهرمات الجبتية بما تحتويه من جنود - السيّد العزيز مولود، نتوجَّه إليك وإلى فريق الهيئة بتنظيم عملية نقل الأسرى إلى مخيمات الكزلاج - السيّد مولود/ مرفق كشف بيان بالجرمانيات الملحَقات بالخدمات الخاصَّة بجنودنا الأمريجوس - السيّد مولود/ لقد قضينا على الكرج في قرى الأرمن، والسلام. العدَّاد يرتفع، ويتخطَّى هوبكنز ولورا وهوارة وسارة وشيخون وعبشمين، اسم مولود تضيء جواره النقاط كالشمس، كم ألف عرصون ذهبي جميل سأحصل عليه؟! هيَّا هيَّا أيَّتها الفيالق والجيوش، ابعثوا إليَّ بإنجازات النصر والفتوحات، اهدموا واقتلوا واغتصبوا واخطفوا وأبيدوا، عربًا عجمًا، أمدُّوني بالعرصونات يا أحبائي، أعطوني جنودًا جبتية، ودبَّابات جرمانية، وشراسة تترية، وعقولًا رومية، ومجهودات مولودية؛ أعطيكم ذهبًا خالصًا! أرسلوا إليَّ بكلّ الإنجازات، أريد أن ينفجر بريدي الرقمي. صرخت موديانو، أعرف صوتها القحبة، فلتصرخ، عفريت يركبها، الساعة الخامسة إلا دقيقة، أستحق الليلة ترفيه من نوع خاص، سأدعو نفسي على العشاء في مطعم السابروتيكيا، سآكل ثلث كيلو طرب وأشرب ما شئت! صرخت الهايشون مرة أخرى، صراخ متواصل، الساعة الخامسة، الآن أقوم أنظر ما لها، كانت تصرخ في مكتبها، وحولها زملاء كثيرون، وهوبكنز يحاول تهدئة الهيرر شيفارتز، سألت العنزي:

«ياهلعنزي، ما لها موديانو بتولول كيف الولايا؟!»، قال مشفقًا: «إيه مسكينة واللّه، جاها رسالة تقول إنّ مئتين وكم إنسان ماتوا بباريزة، البلد حقَّتها، وأمّها قتلوها معاهم! مسكينة راح يفصلوها!»، ابتسمت: «يا أخي، لكن هيك ما يفصلوها م الهيئة! هيك سيرحّلوها للقبر»، فأشار برأسه إلى هوبكنز وشفارتز، كان هوبكنز يستجديه: «هيرر شفارتز، بليز، موديانو رقيقة، لا تتحمَّل موت أمّها والرفد!»، وشفارتز وجهه لا يقول شيئًا، «هيرر شفارتز، هي مخطئة في أن تندمج مع الرسالة وتتعاطف! أنا أعرف أنَّنا لا بدَّ ألَّا نتعاطف مع أيّ نوع من أنواع الضحايا حتى لا تختلَّ عملية التنظيم العالمية أبدًا، لكنَّها أمُّها، أمُّها هيرر شفارتز!»، وتولول موديانو.. فتح شفارتز فمه ببطء، قال: «أيٌّ من الزملاء يعرف عقوبة التأثُّر بالأخبار والمراسلات اليومية!»، لم ينطق أحد، فصحت في نشوة: «القتل يا هيرر شفارتز، القتل!»، حدَّقوا إليَّ صفر الوجوه! فصفَّق لي شفارتز: «رائع هيرر مولود، رائع، أنت موظَّف ممتاز، التزمت ساعات العمل ولم تترك مكتبك مثل زملائك، وتعرف جيّدًا أصول المهنة!»، ثم صاح: «كريجشافت!»، فدخل جنديان عملاقان من الـSS، تظهر جماجمهم من تحت خوذاتهم، أزاحا من أمامهما الموظفين، ثم سحبا موديانو التي لم تتوقَّف عن الصراخ، واختفيا بها.

وضع هيرر شفارتز ذراعه حول كتفي، وقال لي: «تهانينا يا هيرر مولود، تمَّت ترقيتك لتكون مدير عمليات القسم بدلًا من موديانو!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الدشتورخا

رَبَض طاووس أسود على نافذة حجرة الملك ينقرها منذ أن رأى قرص الشمس يتسحَّب في السماء، بينما تقلَّب الملك في سريره يتعلَّق في حلمه بصولجان متوهّج من نور شمسي معلَّق في السماء، كان كمُّه الواسع ساقطًا إلى مرفقه، ورجلاه تتدلّيان في الهواء، منتشٍ لكنه يخاف أن يقع إذا انزلقت يده من الصولجان، كانت الأرض بعيدة للغاية، ويحاول ألّا ينظر كيلا يقع، يسمع من أسفله صياح ناس كثيرين كأنه موج مزمجر، فيملؤه الحماس ويتردَّد صوت أنثوي في صدره: «الشعب يشجّعني مولاي الملك!»، فيقشعرُّ جسده من الفرح، فلا تتحمَّل ساقاه القشعريرة وسط الهواء الذي يعصف بشعرهما من كلّ جانب، وجلبابه يتطاير كاشفًا عنهما، فارتجف واحتلم! ثم تقلَّب، فاستيقظ، فصبَّحه شعر سَبِيَّته المليحة، فتنهَّد ثم قعد في سريره يضايقه عرق لزج على وجهه. نظر إلى سَبِيَّته، وكانت فتاة غضَّة شعرها فاحم، تظهر أذنها الوردية من بينه، تعجَّب! لقد قضى ليلته معها أمس وشبع، فكيف يحتلم؟! «هل لم أفعل شيئًا معها أمس وكنت أحلم؟!»، رفع اللحاف وتأمل ساقيها جيّدًا، وكان متأكّدًا أنه قضى ما يشاء منهما، وتذكَّر، فقام وبحث في صندوق القمامة، فوجد المنشفة التي كان عليها دم الفتاة. «إذن لماذا حدث هذا؟! وأمس الأول كانت ليلة أمّ النصر وقد قضيناها ليلة رائعة، وقبلها ليلة أمّ الصباح! زوجتان وأَمَة! هل يحتاج الملك إلى أكثر من ذلك كي يشبع؟!». خلع ملابسه واغتسل منشغلًا بالموضوع. عطس الطاووس الأسود ونظر إلى الأفق، وكانت الشمس قد صَعِدت للصبح، ومن أسفلها كان يطير سرب من الطواويس السود قادم إليه، فابتسم بل أفلتت منه ضحكة فرح.

خرج الملك في بشكير حول وسطه عابسًا آفِلًا، «هل الأَمَة لا تكفي مولاها؟!»، ونظر غاضبًا إلى الفتاة على السرير وغَلَتْ دماغه ليقتلها، لكنه تذكَّر الملكة أمَّ النصر، وأنه قد أتاها أمس الأوَّل، ثم أتى الأَمَة أمس، ورغم ذلك احتلم! فهدأ، «مستحيل أن تكون أمُّ النصر مقصّرة!»، فأغلق الستائر والباب بالمفتاح، ثم خلع البشكير ووقف أمام المرآة عاريًا يَحْدِج عضوه في ارتياب: «ماذا تريد مني؟! ألست مشغولًا كما تعرف؟ لماذا تقلقني إذًا في نومتي القصيرة؟!»، وخشي أن يدعو عليه، فسعل ثم قرَّر أن يستشير رجالات الدولة، فارتدى البشكير ورفع الهاتف وعقد اجتماعًا عاجلًا!

كانت حاشية الملك في الأمور الحرجة تتكوَّن من خمسة رجال؛ الوزير الأول تسعسع السُكري، ووزير الحرب حسب النسب الكعكي، وكبير بيت الحكمة سميرشاه يكن، وولي العهد أخو الملك، وكبير الياوران مليح المعداوي. دخل عليهم بالبشكير غاضبًا، فانتفضوا وقوفًا، وهُرِع ولي العهد للاطمئنان على الملك: «ما يُغضِب مولاي الملك؟!» فوقف يلوّح بقبضته بعنف ويترجرج صدره

المشعر: «كيف لا أكتفي من النساء؟! أنا هنا ملك أم صبي مهتاج؟!»، فاحمرَّ وجه الياوران وأطرق مبتسمًا، بينما نظر الوزير الأول إلى وزير الحرب في عَجَب، ولم يتكلَّما، في حين فتح النافذة في حجرة الملك الطاووس الأسود ودخل معه اثنان آخران، فقال الياوران مليح المعداوي -وقد كان سبعبعًا من سدوم يُفعَل فيه من الخلف في أقبية القصر من الحرس والوزراء وغيرهم: «وما حدث لمولاي؟»، ثم رفع خصلة شعر عن وجهه، فجلس الملك وبدت فخذه كأنها وسخة من كثافة الشعر، وحكى لهم ما حدث له! فتأوَّه مليح المعداوي، فكتم فمَه الوزير الأول، وفوجئ الملك فسأل: «ما له مليح؟!»، فأجاب حسب النسب الكعكي محرجًا: «لا عليك مولاي، مليح مريض بحمَّى الربيع!»، فعبس الملك وسأل أخاه ولي العهد: «ما رأيك يا يونس خان؟!»، فكَّر قليلًا ثم قال: «يا مولاي، أظنُّ أنه ينقصك القليل من السُّلطات، فأنت تشتهي صولجان علويًّا حتى الاحتلام! أيُّ سُلْطة عليا تشتهيها بشدَّة!»؛ فضحك الملك وقام وقبَّل رأس أخيه: «ما أهنأنا بأخينا يونس خان! هذا حقٌّ واللّه!»، ثم عبث بلحيته وسأل: «وما ترون؟ أيَّ سُلْطة أحتاج إليها أو أشتهيها؟!»، فقال الوزير الأول: «الكثير مولاي، كلُّ ما تشتهيه نضعه في دستور طويل يسري على كلّ الخلق!». وقال حسب النسب الكعكي: «ما تأمر به يا مولاي يسري على الجيش كلّه!»؛ فرفع مليح المعداوي ذراعه وقال في حياء: «يا مولاي، أنا أرى أنك تحتاج إلى سُلْطة جديدة تُبيح لك كلَّ ما تشتهي!»، فتعجَّب الملك: «مثل ماذا يا مليح؟!»، فقال: «الصولجان النوراني هذا هو قضيبك يا مولاي، الذي لا بدَّ له أن يُفرَض على كلّ شيء في الأرض، رجلًا أو امرأة!»، فسعل الوزير الأول، وتمتم حسب النسب الكعكي يسبّ: «الخواز السلبيان السبعبع الشخصون!»، بينما نظر ولي العهد إلى أخيه فزعًا! اقترب الملك من مليح لا يظهر منه أيُّ انفعال: «ماذا تقصد يا مليح؟ أستبيح أعراض الناس؟»؛ فقال: «يا مولاي، اعتلاؤك بركة لنا!»، ففكَّر الملك مليًّا، ثم قال له: «سأبدأ بك إن فعلت!»، فصرخ الرجال الثلاثة! في حين لم يلتفت إليهم مليح، وخلع بنطلونه مرة واحدة، وسجد أمام الملك! صاح الثلاثة: «يا مولاي، لا تفعل، إنه سبعبع يؤجر بالساعة!»، فعبس الملك: «وتخفون هذا عني كلَّ هذا الوقت؟! يعتليه كلُّ الناس ولا أعتليه؟!»، ولاج فيه، بينما انقضَّ أحد عشر طاووسًا على أَمَة الملك يَسْمُلون عينيها وينهشونها، فصرخت ووصل صراخها إلى الملك الذي انتهى بسرعة من مليح، فهُرِعوا لأعلى فوجدوا عظامها مصلوبة على السرير، بينما تنام الطواويس مكانها! فاحتضن الياوران وقد ركض لأعلى، من دون بنطلونه، الملك من الخلف، وقال: «فداك نفسي مولاي!»، فألقاه الملك على الطواويس السوداء، فطارت وخمشت الملك في وجهه قبل أن تهرب! فقال ولي العهد غاضبًا: «هذا جزاء فعلتك الوسخة مع هذا السبعبع!»، فصفعه الملك، وكان عاريًا، وصاح: «أنا الملك أفعل ما أشاء، اقتلوا ولي العهد»، فقتلوه! بينما ركض الوزير الأول وحسب النسب الكعكي، وتقلَّب مليح في

السرير يتدلّل بساقيه الناعمتين، ويقول: «أرأيتَ رسالة السماء إليك يا حبيبي؟ هذه الطواويس ستقضي على النساء، وأبقى أنا لك وحدي!»، فغضب الملك: «أنا السماء أيها البيخوتة!»، واستلَّ سيفه وقتله!

في الصبح، لم يخرج الناس من بيوتهم خوفًا من الطواويس السوداء التي غطَّت الأرض والسماء، تأكل كلَّ شيء يتحرَّك، وأذاع الملك عبر المذياع قراراته الجديدة: «أن تُوزَّع ملابس عارية على الناس ليرتدوها ليل نهار، وزيت كي يدهنوا به أجسادهم، وينزعوا شعورها، ومن يخالف الأوامر فسيموت!». ونزل رجال القصر ليوزّعوا تلك الأشياء على الناس، تحميهم من الطواويس قوَّات عسكرية، لكنهم لم يستطيعوا أن يتخلَّصوا من الطواويس السوداء، فبعثوا إلى ملكهم، فجاء يتهادى بين سبعين طاووسًا، وقابل الملك، واتَّفقا أن يأخذ كلَّ طاووس فتاة أو امرأة كي يضاجعها ثم يأكلها يوميًّا! وعرض الملك عليهم أن يجرّبوا الرجال أيضًا، فقد تفنى النساء هكذا ولا يبقى له شيء منهن، فتنحَّم الطاووس وبصق بصقًا كثيرًا على الأرض، فقال له الملك: «لا لا، إنهم غير مقزّزين، أنا جرَّبتهم!»، ومسح على كرشه راضيًا، ففحَّ الطاووس وقال بصوت بارد: «أيها الهايشون، نحن رجال لا نشتهي سوى الإناث!»، فأشاح الملك بذراعه قانطًا: «أنت حرّ، أنت الخاسر!». وبدأ توزيع الناس على الملك وجنوده، والطاووس وطواويسه، بدؤوا بالقرية الأولى التابعة للمملكة، فأخذ الطواويس أغلب الفتيات والنساء، أما الملك فأخذ بعضهن ومعهن رجالًا، ولم تتورّع الطواويس أن تغتصب النساء في الشوارع جهرة أمام الملك والجنود والأهالي، ولم يصدر أيُّ صراخ حتى من المغتصَبات؛ بناءً على قانون الملك الجديد الذي ينصُّ على حقّ المأتي/المأتية في الاستمتاع من دون مقاومة والتلذُّذ من دون حياء، فكان الطاووس ينتهي من الفتاة ثم يأكل عينيها فسائر جسدها؛ فاهتاج الملك، فبدأ يأتي سبيه في الشارع هو والجنود، وبناءً على القانون، لم يصرخ أحد. وجاء الليل، وقد انتهت الفاعلية، وتراكمت العظام عند الطواويس، فأمر الملك قسمته من الناس أن ينظّفوا القرية من العظام، وذهب وجنوده، فتجمَّع الناس حول عظام أقربائهم، وبكوا، فأشفقت بعض الطواويس عليهم، وذهبت إلى ملكها وقالت: «أيها الطاوسون، هذا الشعب يبكي على فراق أحبته، قد نساعدهم إذا شئت!»، فضحك وأومأ، فذهبت الطواويس إلى الناس وعرضت عليهم أن تأكلهم إذا كانوا يشعرون بأيّ ألم في قلوبهم، فتمدَّد الناس وقال رجل منهم: «اقتلينا قبل أن تأكلينا إذا سمحتِ!»، فدمعت عيون الطواويس، ثم نهشت رقاب الناس من مواضع معينة فقتلتهم، وأقامت مأدبة العشاء.

تقلَّب الملك في سريره وحيدًا، وكان جالسًا على كرسي أسود لامع يطير في السماء، وتحته بحر لجاج، موجه أخضر يتضارب فيتشتَّت رذاذًا مدوَّرًا مقذوفًا يتشكَّل في رؤوس صارخة بأنياب سوداء. نظر في برود إلى البحر فرأى

انعكاس وجهه، عينه متوهّجة كحيلة، فرفع صولجانه النوراني إلى السماء، فدارت الشمس حول نفسها في جنون ترسل بأذرعها الأخطبوطية المشتعلة في بطن السماء السوداء، تحفر فيها سُبُلًا حفر الشرايين، فتبدي ما خلفها، فرأى عماليق وأجنحة تسبح فيها، وفي بطء رأى هراوة ذهبية تهبط على الشمس فتدفعها، فتتدحرج في بطء تسحب خلفها ثماني أذرع كأخطبوط نافق، يظلم العالم، بينما سقطت الشمس في البحر فأحرقته، وتطاولت ألسنته لتلعق أرجل كرسيه الأربع، فتدغدغه فيرتعش، فصرخ الملك وتمسَّك بذراعي الكرسي، في حين خرج من النار فرس مشتعلة تنفث النار من أنفها وتصيح، ثم تنفخ النار في السماء، فتصير السحب برتقالية، ويظهر عملاق أحدب يحضّر شطيرة في الأفق، يضع الخبز فوقه ناسًا وقرًى، ثم طبقة خبز، فناسًا وقرى، خبزًا، ناسًا وقرى، ثم فتح فاه وقضم من الشطيرة، فانكسر كرسيه، وسقطت رجله في النار، صرخ الملك: «أين الحصان يا سبعبع؟!»، فصهلت الفرس النارية وقالت: «في القرى المُحصَّنة!»، وسمع وقع خيل بعيد، وأجيج النار تردَّد في قبَّة السماء، قال: «باتت كرة من نار!»، فقالت الفرس: «أنت داخل الشمس أيها الملك!»، فوقع عن الكرسي يصرخ، وسُحبت خصيتاه وهو يسقط فتبوَّل! تقلَّب في السرير، فقام فَزِعًا لما وجد الفراش مبتلًّا، فنادى الوزير تسعسع ووزير الحرب حسب النسب، وحكى لهم ما رأى، فاستدعوا منجّمة تُدعى السنديانة، واغتسل ثم غيَّروا الفراش، وأخبروه بما حدث ليلة أمس لما أكلت الطواويس باقي سكان القرية الأولى، فأومأ وقال: «حوّلوا القرية إلى إصطبل؛ أريد أن أربّي أحصنة!». نقر طاووس أسود على نافذته، ففزع، لكنه فتح له: «ماذا تريد؟!»، فقال الطاووس: «مولاي الطاوسون يريد أن يخبرك أننا سنبدأ بالقرية الثانية بعد قليل!»، فصاح الملك: «تبدؤون من دوني؟! انتظروا قليلًا وسآتي معكم!»، فأومأ الطاووس: «طيّب، أسرع أسرع!»، وجاءت المنجّمة السنديانة، أخرجت جمجمة ودهنتها بشيء لزج، ثم سكبت بعض الدم عليها، فخرجت منها عينان، فطلبت السنديانة بعضًا من دم الملك، فوخزته بإبرة ودلكت بدمه الجمجمة، فخرج منها لسان مفلوق، وقال: «أيها الملك السعيد، تأمرُ فتُطاع، كلُّ شيء لك يُباع، قف منصوبًا فالعالم لك سبعباع!»، فضحك الملك، وعيَّن السنديانة مستشارة له، وقرَّر أن يكتب معها في الليالي دستورًا جديدًا لينظّم لنفسه سبل المعالي.

حملت السنديانة من الملك، وبمقتضى القانون الجديد فالمولود أمير شرعي مادام الملك مُقِرًّا أنه قد نام مع السنديانة، ورغم اعتراضات أمّ النصر زوجِه العجوز، إلا أنها سكتت لأن الملك هدَّدها بأنَّ عقوبة مخالفة القوانين هي القتل، فقد قضى الملك أمرًا، فلا أحد يجوز له أن يراجعه. سمَّوا الأمير دشتورخا، وتعني القانون بلغة السنديانة، فكما قالت في بعض مجالسها بكل

رقّة: «لقد كان أميري الصغير ثمرة جهدنا العظيم أنا والملك في كتابة الدستور والقانون، لقد سهرنا الليالي الطّوال، ولم نذق النوم إلا سِنَةً واختلاسًا»، وقرَّر كبير الياوران الجديد سماح الملظلظ، وقد كان سبعبع من سدوم أيضاً، لكنه مخصي مشروج، استُئصل جهازه السبعبعي في عملية جراحية نتيجة تعفُّن في المستقيم والبروستاتا، قرَّر أن يلغي أوراق إثبات النسب للأمراء بدءًا بتسجيل الأمير الدشتورخا، فكوفئ بوسام الملك من الدرجة الأولى. وفي الوقت الذي كان ينمو فيه الأمير الدشتورخا، كان أفراد الشعب يتقبّلون الأوضاع الجديدة، خلافهم فقط تحت أيّ عرش يعيشون: عرش الملك، أم عرش الطاووس الأسود.

أُصيب الملك في آخر أيامه بتعفُّن الساقين، ورغم ذلك فقد أصرَّ أن يذهب إلى ديوانه كلَّ يوم، وكان يرتعد كلّ صباح من زحف التعفُّن إلى أعلى جسده. أسرَّ بقلقه للدشتورخا: «سأموت يا بن البيخوتة ولم أحقّق مشروعي الأعظم! تخيَّل بعد كلّ مجهودي وتعبي هذا، تبقى قبيلة واحدة لم أمسَّها، لا رجال ولا نساء!»، فزفر الدشتورخا: «قبيلة الصبر بن مُفارق!»، فارتعشت يد الملك في حرقة: «هم! هم وعزَّتي ومُلْكي! لا أدري كيف لم نصل إليهم، لقد قتلت حسب النسب الكعكي والتسعسع وحليم شنن ومخروق السمندل لأجل عجزهم عن أن يأتوني بهم! حتى الطواويس لم تصل إليهم! قل لي، قل لي يا بن البيخوتة يا نجس، ماذا أفعل ويكاد التعفُّن يقضي على عضوي؟!»، ثم صفع الدشتورخا الذي قال: «لا تقلق يا أبي، سأقوم باللازم!»، وربَّت على كتفه فحدَّق إليه الملك: «تقوم باللازم وأنت جالس تربّت على كتفي؟! اذهب يا بن الأفعى على رأس جيش جرَّار وائتني بهم جميعًا!»، فوقف الدشتورخا: «آسف؛ الدستور يمنع أيَّ أحد من الخروج على رأس جيش جرَّار سوى الملك، وأنت الملك!»، فصاح: «يا سلبيان يا معلقوز! قلت لك اخرج!»، فتنهَّد الدشتورخا: «ورأسِك لا أخالف أمرك ولا أخالف الدستور!»، ثم استلَّ سيفه وقطع عضو أبيه، وحمله على ظهره وألقاه من فوق برج القصر! فصاح الناس في الأسفل، يرقصون هزًّا بالخصور والألْيات، ورقعًا بالحناجر والألسنة والأصابع، أنشدوا: «راح الملك السبعبع، وجا لنا الملك السبع، راح المتني الطري، وجا لنا اللي حديده بيوجع!»، وأُهْرِقَت الخمر في الطرقات فرحًا لينكفئ عليها الناس؛ رجالًا وغلمانًا وصغارًا ونساء يلعقونها بألسنتهم من على الأرض، وخلعوا الملابس ورقصوا سكارى، وتراكبوا في الشوارع والزرائب وسلالم البيوت وفي البيوت، جماعاتٍ جماعات، وسار الياوران السبعبع الجديد فادي المقلوظ يرشُّ على الناس في كلّ مكان الماء المقدَّس، يباركهم، ووقف الدشتورخا في شرفته العالية يرتدي تاج الذهب وحده، وبعد أن تعب الناس من طقوسهم، أمر فدُقَّ الناقوس! فوقفوا صفوفًا ملتصقين، كتفًا بكتف، وظهرًا ببطن، ووجهًا بقفًا، ويدًا بمؤخّرة، يحتضنون، يتلامسون،

فصاح الوزير الأول قابور السعضعض: «الدشتورخا العظيم، إليك تؤول النفوس والعيون، اؤمر تُطَعْ، نسجد ونركع!»، فتأوَّه الشعب وَجْدًا، فصاح الدشتورخا، وكان ذكوريًّا فاشيًّا حنجرته ذات زئير مخيف: «أريد بني الصبر ابن المُفارق!»، فصاح الشعب غاضبًا: «الخوارج الخوارج، المارقون المارقون!»، وكان الناس لا يحبُّون الصبر وقبيلته أبدًا؛ لأنهم يخالفون القانون، كانوا يقولون في نواديهم ومضاجعهم:

يا خواتي الصبر إيه اللي عامل نفسه شريف ده؟!

دا مجرم خارج عن الكانون!

هو في حد يرفض مولانا الدشتورخا دام عزّه؟! مسم! عجايب!

أني يُقع تحت يدي بس حدا من ولاد أبو صبر، والدشتورخا لنكون مقطّاعاهم! آه!

شفايف الدشتورخا حلوة إزاي!

يَسكُت الإرهاب يا خوانَّا!

وخرج جيش كبير إلى خيام بني الصبر بعد أن رفع الدشتورخا صولجانه وصرخ: «أنا الدشتورخا ملك الملوك! يُعدَّل القانون الخاصُّ بخروج الملوك للحرب، إذ يحقُّ للملك الاستعانة بقيادات كفء تقوم مقامه في المهمَّات العسكرية!»، فكان الجنود يضربون الدفوف وينفخون المزامير ويهزُّون الخواصر ويرعشون الكروش، يغنُّون: «اتمختري يا حلوة يا زينة، هنزنق الصبر في جنينة!»، ويطبّلون، وعلى رأسهم يتهادى بفخر جواد قابور السعضعض، جواد عملاق له قرنان سود، بينما يهتزُّ قابور السعضعض على البردعة، وتعلو المزامير، واستقبل الجيش أربعين رجلًا من بني الصبر، يجلس أمامهم الصبر نفسه، يتنهَّد ويشرب ماء.

صاح قابور السعضعض: «أيها المارق الصبر ابن مفارق، أنا أحذّرك يا كلب من أن تقاوم، فهذا جيش الملك العظيم الجليل الرشيد الدشتورخا الأكبر، الذي لا يُعصى ولا يُخالَف، وميت من يحيد عن جادَّته!».

ضحك الصبر في صمت، ثم التفت إلى ابنه عبد اللّه: «جيش الملك الجليل الرشيد! ألا ترى اهتزازه على ظهر الحصان الأقرن؟! الخواز جالس على خابور ناعم ليستمتع برحلته!»، فضحك أولاد الصبر الأربعون، فاستلَّ قابور السعضعض سيفه، وأخرج دبره من خابور وردي كان في بردعته، ثم هبط عن ظهر الجواد، وغطَّى أليته ثم صاح في الجيش: «استعدُّوا!»، فأخرجوا سيوفًا قصيرة أطول من الخناجر بقليل!

فقال الصبر: «هكذا يفعل الدشتورخا في سيوف القوم!»، فضحك أولاده.

احمرَّت عين قابور السعضعض وصاح: «لا بدَّ أن تأتي معي كاشفًا عن إستك أيها الصبر ابن مفارق! لا بدَّ أن ترضخ ويرضخ العالم للدشتورخا!»

«أرضخ لهايشون ابن بيخوتة؟!»

فشهق معظم الجيش، ثم ولولوا، وسبُّوا الصبر بأشنع الألفاظ وهو يضحك، وصاحوا: «الدشتورخا مولانا ولا دشتورخا لكم - اعْلُ دشتورخا - الدشتورخا إلهي في الحرب والملاهي!».

صاح قابور: «أتسبُّ مولاك وسيّدك يا بن امرأة المعلقوز؟!»، فقعقعت سيوف أولاد الصبر الأربعين! فتراجعت صفوف الجيش خطوة إلى الخلف. أومأ الصبر بأصابعه المضمومة ليهدؤوا، قال: «يا قابور الخواز، الدشتورخا هايشون لأنه ابن زنا! وأمُّه بيخوتة لأنها زانية، نعم كلُّنا نعرف أنَّ الملك كان يفعل فيها الحرام من دون زواج أو ورقة! الكلُّ يعرف هذا! أنا لا أشتم الرجل، لكن صحيح! الدشتورخا لا رجل ولا امرأة!».

صاح قابور: «هذا ليس شأننا الآن! أنت خارج على القانون أنت وقبيلتك، ولا بدَّ أن تأتي ليقتصَّ الدشتورخا منك!».

تلفَّت في وجوه أولاده: «أيَّ قانون يقصد هذا الخواز؟!».

صاح قابور: «قانون الوطن، الذي نُقسِم عليه كلَّ يوم وليلة! القانون الذي خرجت عليه أيها المارق!».

تنهَّد: «يا قابور، لقد قلت لأبي الدشتورخا من قبل إن القانون لا يُكتَب بيد من طين في ليلة حمراء تنزلق فيها الزوالق! القوانين تنزل كالمطر بأمرِ الخالق لتغسل الناس!»، ثم قام يستند إلى ولديه، وتأمَّل الجيش: «طبعًا كلُّكم على جنابة بأمر الدشتورخا والقانون!».

فصاحوا: «اعْلُ دشتورخا!»، قال قابور: «أيها النطع! سنولج فيكم قبل أن نلقيكم للطواويس تأكلكم!».

فضحك: «الطواويس ليست من سدوم مثلكم! وعجبت منك تخوّفنا بعدوّك وعدوّنا!»

فقال له: «لا أعرف بأيِّ شيء تتعجرف، ستُذَلّوُن بعد قليل!»، فتأوَّه الجيش في نشوة!

صاح عبد اللّه بن الصبر: «بل الذلُّ لكم أيها الوثنيون، سنلقي بكم في الرؤيوان!»، فزأر إخوانه الأربعون، فارتجفت الأرض، وعلا من خلفهم صفير

ريح تقترب، فتراجع الجيش، يسقط من في الأمام على من خلفه، ورفع قابور السعضعض سيفه. رجفة الأرض بسيطة، والصفير يعلو. أخرج أولاد الصبر الأربعون عصيًّا سميكة، وهجموا على الدشتورخيين الذين صرخوا وسقطوا على بطونهم، فكانت العصي تَهوي على أيّ رأس فتفجّر الأمخاخ، أو تكسر الضلوع والأرجل، ثم ركضوا خلفهم حتى وصلوا إلى المملكة وقد تبقّى من الجيش الربع فقط. صاح الدشتورخا من فوق برجه: «اقتلوا من عاد من الجيش السبعبع، وحضّروا الزيت لنحرق أبناء الصبر!»، فبدأ قسم من الناس بتحصين البوَّابات، والباقي يجمع الزيت من البيوت ليشعلوه، فوجدوا أنَّ الزيوت قد أُهدِرت في عمليات التدليك والأمور السبعبعية، بينما حفر أولاد الصبر خندقًا عظيمًا حول أسوارها، ثم هبطوا فيه وقطعوا جذور الزرع، ثم حملوا عليها حملة رجل واحد، فرفعوها على أكتافهم وهم يصيحون: «اللهم صلّ على النبي العدنان!»، وصخبت الفلاة حولهم بصراخ الشعب وطيوره. ساروا ببطء حتى وصلوا إلى بحر الرؤيوان الأسود، فقلبوا مملكة الدشتورخا فيه، فتنهَّد الصبر ابن المفارق مبتسمًا وهو يتابع الفقاقيع تنفقئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطوفان

الوادي رمادي إلى درجة أنني شعرت بشوك ينمو في شعبي الهوائية، وخرج بعضه من صدري فأصابني بحكَّة متكرّرة. وحمدت اللّه أنَّ السماء قد احتجبت بسحاب كثيف لم أره من قبل في حياتي، متراكم كصفائح الصخر المصقول، ينتظر لحظة لينهمر. وقفنا بين سلسلة جبال نقيس في يأس المسافات بينها بالنظر، ونقارنها بخرائط قديمة ممَّا استطعنا أن نحصل عليه لتلك المنطقة، واعتمدنا أنَّ الجبال وتلك الصحراء بخاصة لن تغيّرها رمال ولا رياح! فأيُّ ملك سيفكّر أن يضمَّ فلاة قفر إلى خريطته؟ أترصَّد من انبعاجات الصخور العبوس أيَّ ذكرى ترسم الطريق لنا، وأحاول أن أُبعِد أصواتهم عن دماغي، كل منهم يفتي، يرى رأيًا ويدافع عنه، يقولون: - تعالوا يا جماعة نحرّك الجبل داهون شمال شوية، نفتح لينا سكَّة!

- أنا أرى إنَّا نحفر فيه، راح ياخد وقت ومجهود مرة كبير إذا دفعناه واللّه!

- أنا شايف نطلع الجبل ونعدّي من فوق وخلاص.

- الإخوة اللي هناك ماسكين ورق وبيلعبوا وشوشهم في الصخر كده ليه، ما إيدكو معانا أمَّال!

- عن إذنكو يا جماعة أنا رايح أفكّ ميّة!

- دخيلك أخي، ما تبعد عن هون؛ لا نتوه متل ما توّهنا أخونا زهران لما راح يتبوّل!

- في إيه يا عم، ما اسّيّرش يعني؟! كنت مزنوق!

- الهدوء يا جماعة، نريد أن نخلص من ها الموقف!

- شايف السحاب؟! تحسُّه واصل بالجبل!

- إحنا تهنا! يا دي النيلة!

أحيانًا يتقبَّل المرء أمرًا لأجل غاية نبيلة، لكنه قد يشعر بندم أنه اختار الصبر، بخاصة أنني أكره الرحلات؛ لا أحب الارتباط بأشخاص وبرنامج ثابت وضوضاء! فما بالك برحلة مثل هذه؟! أنظر في السماء، وأخشى أن تمطر، وخلاء الوادي من الطير والدواب يخيفني، هذه الكائنات تشعر قبل أن نشعر، فلا تلغو في الفرْضيات والافتراضات والخطط، إنها تنجو بحسّ طبيعي تجد به الجحور والكهوف! أما أصحاب العقول فهنا يتتبَّعون الخرائط وسط وادٍ من الصخر تاهوا فيه لأن أحدهم انحرف ليتبوَّل، فأضلَّنا! الفلَّاحون لهم الزرع والأرض، أيُّ شيء في العالم فتح للفلَّاح باب الحقل كي يخرج منه ليبحث عن

أغراضه وحاجاته بعشوائية وسط المدن، فيدمّر حقله ومدينتنا؟! أكره الفلّاحين! ولولا أنَّ هذه الرحلة مقدَّسة لم أكن أقبل بوجود بعض منهم وسطنا! إذا شاؤوا بالوا، إذا شاؤوا تجشَّؤوا، تلقائية جسدية مريعة، أصواتهم عالية لجذب العيون، وهزلهم ضرب مبرح وسباب مقذع، أنا أُبغضهم، ولولا أنها رحلة مقدَّسة، واللّه ما خرجت وبعضهم فينا! سنرى، سأكلّم الأخ «ميمون ولد شمر» في هذا الأمر، لا بدَّ أن نسيطر على هذه الفوضى، نحن لسنا في رحلة إلى مدينة أو مرج خارج القرية، نحن كما يدَّعون في رحلة مقدَّسة، رحلة مقدَّسة أي نلجأ إلى العناية الربانية من المصائب التي تضرب البلدان، ريح عظيمة سوداء تقلع البيوت، ثعابين عملاقة تأكل البِنْية التحتية للمدن والمنشآت فتخسف بها الأرض، بحر هائج يغرق مدنًا جميلة، نار تمسك بأحياء ومحلّات. هناك شيء دنس في هذا العالم ولا بدَّ أن نهرب منه. في نصف العالم الآخر قالوا إنهم عانَوْا من ضوضاء غريبة ظلَّت طَوال شهرين تؤرّقهم، صوت عضعضة غير معلوم، صوت يسمعه كلُّ من في تلك المدن، عضعضة تشبه قرض الفئران للورق والخشب، لكن أعلى، يسمعها معظم السكان. بحثوا، فوجدوا وحشًا عملاقًا له ألف قدم، ورأس حصان، وفم بأنياب كالصخر، لا أذكر، دعَوْه تقريبًا الرويان، الرافيان، شيئًا من هذا القبيل! يأكل الأرض، حتى فاضت حمأ وطينًا وحُممًا، مصيبة بيئية كبيرة، لم أكن أقتنع بكثير من تلك الأمور، حتى غامت السماء في يوم، وهجمتْ على مدينتي أنا، المدينة التي نشأت فيها وتعلَّمت وكبرت، أسراب، بل فيالق طائرة من الغربان، غربان من نوع شيطاني جدًّا، مخالبها بيضاء تلمع كالسكاكين، ولها مناقير واسعة، تخطف الأولاد الصغار، ثم تلقيهم في النهر أمام أعيننا! أمر مرعب! مخيف! كانت مناحة على ضفاف النهر، ونصف السيّدات ألقين بأنفسهنَّ لينقذن أطفالهنّ، واجتمع رئيس المدينة بجهاز المجاري، وأرسلوا، بل أرسلت بلديات مجاورة أيضًا، في صورة وطنية رحيمة؛ كلَّ سيارات شفط الماء والمجاري وما شابه، لكن هيهات! لم أقتنع بالفكرة عندما رأيت الخراطيم العريضة تسحب مياه النهر، وتناقشت في الفكرة مع الدكتور نيازي أبو الدهب، لكن ضوضاء الماكينات وصياح الأمهات والآباء والأطفال، إضافة إلى نعيب الغربان الملعونة؛ لم يجعل النقاش متصلًا أو مثمرًا، والنتيجة كانت مريعة، وأخفقت بالطبع سيارات الشفط كما توقَّعت. لا أذكر رقم الضحايا المعلن في الصحف، إلا أنَّ الجميع ارتدوا السواد، وخرج بعض الشيوخ يوزّعون الكتيّبات ويقولون إنَّ هذا غضب من اللّه، لم أكن أفهم لماذا يفعل بنا اللّه هذا كلَّه، لكنَّ وقع الحادثة جعلني أقبل هذه الفكرة فرْضيةً، لم لا؟ وإن كانت فرْضية تحوُّر جيني أصاب فصيلة من الغربان بالجنون كانت أقرب إلى قناعاتي وقلبي في الحقيقة! كانت صدمة رغم كلّ شيء؛ جثث طافية في كلّ مكان، وبعد ثلاثة أيام أصبح النهر مستنقعًا بمعنى الكلمة، فقرَّرت أن أهاجر، فالحياة واحدة ولا تتكرَّر، وخرجت من المدينة، وكان موكب كبير من السيارات الصفراء يدخل

إليها، قيل إنه موكب الطاعون، راقبته من زجاج السيارة الخلفي، وسألت الدكتور نيازي متعجّبًا جدًّا؛ أيُّ طاعون هذا الذي له موكب ويدخل البلاد كأنه رئيس؟! فقال كلمة حكيمة جدًّا، أثّرت في نفسي: «وهو العالم دا بقى فيه حاجة معقولة يا دكتور عمروسي؟!»، وحينها قلت لماذا لا أبحث عن أيّ طريقة ولو غريبة كي أنجو من هذا العالم المجنون؟! فبدأت في البحث، بما أنني رجل أكاديمي، وقرأت مقالات كثيرة، وكتبًا مختصَّة بالعلوم البيئية المعاصرة، ومن الواضح أنَّ العلماء قد أجمعوا على أنَّ ما حدث في نهاية القرن الصناعي، من نضوب للموارد، وحروب الطاقة، وتآكُل المصانع المهجورة، قد أدَّى إلى فيروسات تصيب الكائنات الأخرى بالجنون والسعار وخلافه. وكل هذا لم أستغربه في الحقيقة، لكن ما أحيا داخلي بفكرة هذه الرحلة المقدَّسة، أنّني قرأت ورقة بحثية مهمَّة لعالم جرماني كبير، له مُعامِل إتش يقدر بـ89، وهذا رقم عظيم جدًّا، المهم، استنتج هذا الدكتور، وبالمناسبة يدعى فولفانج فايسرشتاين، أنَّ الظواهر البيئية والجيولوجية تشير إلى أنَّ العالم يؤول إلى حالة من حالات التغيُّر الكبير؛ فالتحرُّكات التكتونية لطبقات الأرض، والتغيُّر المُناخي المرعب، وشذوذ المدّ والجزر الناتج عن احتكاكات القمر الغريبة بالأرض، وبالطبع نوبات الشمس الغاضبة، كما أسماها؛ كلُّ ذلك سيؤدّي إلى أفُول العالم إلى أحد عناصره الأساسية: النار، والماء، والتراب، والهواء. وهو في بحثه، وبعض الأبحاث اللاحقة، رجَّح أنه سيصير إلى التراب، نتيجة حسابات كربو-تاريخية، وقياسات طقسية خاصة في طبقات الستراتوسفير والميزوسفير، لكنّني لم أتقبَّل هذه الفرْضية. لا أشكُّ قطعًا في بحوث دكتور كبير مثل فايسرشتاين، رجل من أسرة علمية عظيمة، وتقريبًا من أحفاد عالم البيولوجيا المعروف يورجن فايسرشتاين، لا أشكُّ بتاتًا. لكنَّ فرْضية تحوُّله إلى التراب ترعبني، بل تناقضها هذه التصرُّفات الشاذَّة للكائنات الحية بما فيها البشر؛ فلو كانت ستؤول إلى التراب، فأظن أن الكائنات لا بدَّ من أن تتخلَّق بسلوك سيكولوجي يلائم التراب في سكونه وثقله، وهنا التراب لا يعني الغبار المنثور وسط حرّ الصيف، ذلك أن العلم ينظر إلى عنصر التراب بالثقل والثبات، فهذه الصخور والفلاة تراب! أمَّا أنا فظننت أنَّ الموضوع سيؤول إلى النار، وأنَّ العالم سيحترق بالصهائر التحتية، والشهب الفلكية! حتى أعطاني صديق كتيّبًا يدعو الناس أن يهربوا إلى الصحاري التركية، إذ يوجد هناك فوق جبل (جيم) سفينة نوح. يقول الكتاب إنَّ الماء سيأتي كعادته لينظّف كلَّ شيء، كان لفظه بالتحديد في الكتاب: يطهّر، غير أنني أتحفَّظ على هذه الكلمة؛ فمنذا الذي له الحق في الحكم على طهر العالم أو دنسه؟ لكن ليس هذا هو الأمر الذي يجب أن نختلف فيه والعالم يصيبه الجنون، فسألت في هذا الموضوع، وسألت زملائي، فأرسل إليَّ أصدقائي بحوثاً تؤيّد هذا الكلام، ليس بالطبع موضوع سفينة نوح، فنوح مات، أنا أقصد أنَّ العالم سيغرق، سيؤول إلى عنصر الماء. وتمسَّك بهذا الرأي

علماء الفلك؛ لأنهم أثبتوا أنَّ احتكاكات القمر بالأرض تزيد مع الوقت، وكل (طزة) قمرية، أي هبوطه ثم ارتفاعه مرة أخرى، تزداد ثقلًا، وهذا يعني أنَّ زمن الاحتكاك بالأرض يزيد مع الوقت. فمثلًا في (الطزة) الأولى لم تكن الاحتكاكة تستغرق ثانية واحدة، في الثانية كانت اثنتين، أمَّا مثلًا في المئة التي حدثت من أسبوع، فقد بقيت دقيقة، فتخيَّلوا كمَّ الفيضانات البحرية التي حدثت! أفكار مرعبة، لكنها مشوّقة جدًّا جدًّا، وهذا ما يعزّيني: أن تجد ما يفصلك عن العالم دون أن يقطعك عنه. وبعد تفكير طويل، قرَّرت أن أبحث عن إحدى شركات التهجير المعروفة، التي انتعشت مرة أخرى بعد أن كسدت تلك التجارة، إثر إغلاق الهجرة عن العالم القديم، وأخذ مبلغ كبير واللّه، حوالي ألفي عرصونيز أفروديتسي. لكن مع الأسف يبدو أنَّ الغِشَّ لا يفارق البشر حتى في أحلك اللحظات؛ رحلة كبيرة مقدَّسة مثل تلك، خرج فيها الكثير من الناس باختلاف صورهم وطبقاتهم، لا تنظيم فيها ولا إدارة! لا أتصوَّر مثلًا أنَّ عالِمًا مثل فولفانج فايسرشتاين لو خرج في رحلة مثل هذه سيخرج معه الفلَّاحون الجرمان أو الغجر أو البدو من الفايكنج! مستحيل! لكن لأنّني عالم جبتي، فعلى قدر ما تجد افعل!

قرقع شيء حولي في الوادي الآن، وصياح من كلّ جانب، نظرت، وجدت أحد الجبال يتحرَّك، وقف شعر قفاي، كان الفلَّاحون يدفعونه ويصيحون بوجوه حمراء كالدم، وحولهم يصيح باقي المرتحلين: - اللهم صلّي ع النبي، ربنا يعطيكو الصحَّة يا رجَّالة!

- بالراحة يا جدعان لا يقع منكو ولا حاجة، حاسب حاسب يا بلدينا اللّه يسترك!

- يا اللّه! ماني عارف أقول شي! اللّه يعيطكن العافية!

- يا جدعان انتو زقّيتوا الجبل اللي زُمالاتنا طلعوه، ولا دا واحد تاني؟!

- لا واحد تاني يا خِفَّة!

- آه، لا يتكفوا من فوق تبقى بلوى!

قرقع الجبل مرة أخرى، فصاح فلَّاح منهم: «زقَّة كمان يا ولاد»، فصاحوا، لكن حدث شيء ما رجَّ الجبل، فانشطر نصفين، سقط أحدهما في هدوء، بينما هاج الناس وركضوا كالنمل في كلّ اتّجاه، حتى ضجَّت الأرض بالارتطام وارتجَّت. جلست في مكاني، متقوقعًا حول نفسي، كنت في موضع أمين، التراب ملأ الوادي، بينما يصيح الناس ويصرخون، لكنّني لم أتبيَّن قولهم، إذ إنَّ التراب صَعِد إلى السماء في أعمدة شاهقة، يدور حول نفسه كأعاصير رعيبة، تسقط كما سقط الجبل تمامًا، ثم تقوم منطلقةً إلى السماء. لم أكن أفكّر إلا في نظرية فايسرشتاين لدورة العناصر، وخصوصًا ورقته عن النهاية الترابية أو

الغبارية كما أسماها، لم أتصوَّر أن يرعبني التراب بقصفه للسماء بهذه الصورة، قرقعت السماء هذه المرة، وصرخ الناس: «هتمطّر، يا جدعان شكلها هتمطّر!»، وركضوا في كلّ مكان: «هنغرق يا جدعان ولسَّة ما لقيناش السفينة! يا ربّ!»، وأنا ساكن في مكاني. وجوههم صفراء من التراب والخوف، والظلمة حلَّت من السحب الغريبة، لم تكن سحبًا في الواقع، كانت كتلًا صمَّاء متصدّعة في السماء، تشبه الجرانيت الأسود والرمادي تقريبًا. ظلَّ الرعد يدوي في الوادي، ووراء السحب الغريبة لمعت الشمس في خفوت، ستمطر، وأنا غلبت فايسرشتاين، يركضون من حولي في كل اتّجاه، كنمل يستهبط الدعس، أصيح بكلّ نشوة: «أنا انتصرت! ستؤول إلى الماء، ستؤول إلى الماء يا فايسرشتاين! لقد انتصرت عليك!»، أضحك، ولا أتبيَّن مَن أعلى؛ ضحكي أم الرعد، أم قواذف التراب! سقط الشطر الثاني من الجبل قطعًا كبيرة في هدوء وبطء، تسقط القطعة، فتثور أعمدة التراب وتزيد! لكنَّ هذا لم يهمَّني؛ المطر يغلب التراب في كلّ الأحوال! أضحك: «هاهاها، غلبت فايسرشتاين!»، لكن السحب فعلت شيئًا شاذًّا؛ لقد ضرب من خلفها برق أزرق، شَعَّ بشر من بين التصدُّعات، وبدلًا من أن تمطر وتخفّ، زاد الصدع في جزء منها، وهي سوداء تمامًا، وانفصلت كتلة سحاب كبيرة، وسقطت، سقطت بهدوء كأنها صخرة، في هدوء تامّ، وأنار البرق الأزرق الوادي من الفُوَّهة التي خلَّفتها السحابة الساقطة، فبدت السحب كسقف مثقوب، سقطت السحابة، ارتطمت بالأرض، فانفجرت وسط أعمدة التراب، وانسجمت فيه، ثم ضرب البرق، فسقطت سحب صخرية سوداء بهدوء وبطء، تدحرجت كأكياس قطن عملاقة من السماء، تضرب الأرض وتنفجر ترابًا، فتقوم من الأرض أعمدة التراب الثائرة! إنه فايسرشتاين! سيحصل على نوبل لعنه اللّه! إنَّ العزاء الوحيد أنه لن يبقى مَن يعطيه الجائزة! تراه يرقص الآن الدبكة وسط قبيلته الجرمانية الكبيرة! ركضت الآن مع من كانوا يصرخون، الظلمة ترتعش بالبرق الأزرق، فلا فائدة من لحظات السراج، بل العتمة أفضل لو توقَّف البرق؛ حتى تألف أعيننا الظلمة فنهتدي ونهدأ، لكنَّ البرق الأزرق لم يتوقَّف، وركضت، وشعرت بأجساد تحت دعستها قدمي، وسقطت أكثر من مرة، خوفي أن تدعسني سحابة صخرية سوداء، أو أتفتَّت في عمود من تراب! لا أحبُّ أن يرقص على غباري فايسرشتاين! وبرقتْ، وظلَّت تبرق، والتراب ينفجر ويقصف السحب في السماء، لكن رغم ذلك أضاء الوادي نورٌ من أعلى، فاستطعت أن أختبئ في مكان ما.

التراب معلَّق بين السماء والأرض، لا تتوقَّف ضرباته التي تشبه انفجار عيون الماء، صارت الرؤية مستحيلة، سنُدفَن، نهاية واقعية حقًّا يا فايسرشتاين، القبور هي النهاية الطبيعية على كلّ، وتجرِبة مشرّفة أن أرى كيف يؤول العالم إلى أحد عناصره، كأحد الذين هاجروا مع نوح في فلكه! لكن هنا

تساؤل: هل سينجو بشر أيضًا من الدفن الكبير؟ وما الطريقة التي ينجو بها الإنسان من الدفن؟ ما مقابل السفينة عند التراب؟ نظرت إلى أعلى، فكأنَّما أنظر من مستنقع إلى الشمس؛ قرص النور ليس له معالم، وذرَّات التراب طبقات ثقيلة لا تنفّذه إلا بصعوبة. انتفضت لما سمعت صوتًا يسألني: «قل لي يا أخي، متى تنتهي العاصفة الترابية؟»، رغم رجفة قلبي، وبغضي لأن أتحدَّث إلى أحد لا أراه؛ ضحكت، وقلت: «هذه ليست عاصفة ترابية! هذه الدفنة الأخيرة للإنسان!»، فتمتم: «الدفنة الأخـ.. يا أخي، أسألك باللّه لمَّا تعدي الريح الخبيثة تلك، تصحّيني من النوم، أنا تحت الصخرة هون!»، ضحكت: «ولماذا تريد أن تستيقظ؟!»، فشهق: «يا أخي أنا جاءٍ من بعيد، وضربت كلَّ هذه المسافة ودفعت كلَّ هذه التكاليف كي أصل إلى هنا، وأرى شروق الشمس الأول، ثم تقول لي لماذا أصحو؟!»، عجيب هذا المصطلح، فسألته: «ماذا تقصد بشروق الشمس الأول؟!»، فتثاءب: «نعم، فوق الجبل (نون) ستشرق الشمس من الغرب! وهل تشرق الشمس كلَّ يوم من هناك حتى نضيع فرصة تأمُّلها وتصويرها بالكاميرات وهكذا؟»، تثاءب، «لا تنسَ أن توقظني! أظنُّها ساعة وتمطر ليهبط هذا الغبار!».

«تمطر!» همست، صحيح، معروف أنَّ بعد أيّ زوبعة ترابية، ينزل المطر لينظّف الهواء، فما الحال في مثل هذه الدَّفْنة؟ لا أظنُّ أن هذا التراب يهبط إلى الأرض مرة أخرى إلا بنوافير مياه تساوي انفجارات أعمدة التراب تلك! ضحكت: «هلكتَ يا فايسرشتاين، هلكت، أنا انتصرت، الماء...»، قاطعني منظر قرص النور؛ لقد صار كبيرًا جدًّا، بيضة عظيمة تكاد تملأ السماء وتقترب، تسقط ذرَّات الرمل على وجهي وفي فمي، وتقترب، طبقات التراب تنزاح وتنهال حولي وعلى وجهي، تقترب مع برودة غريبة، وهزَّة أرضية ضعيفة، التراب بات يذوب، ويُجلى الهواء، وتقترب، أحسست أنَّ قبضتين أمسكتا بقلبي، ولوتاه في اتّجاهين متعاكسين، عصرتاه بمعنى أدقّ، إنه القمر، هذه (الطزة) رقم مئة وواحد. ركضت، والأرض ارتجَّت من تحتي، ومفاصلي تيبَّست من البرد فجأة، لمس الأرض، ارتجَّت، وقرقع الأفق. وقف القمر على الأرض، وهجمت عليَّ ثلوجه، وحبستني فيها عدا وجهي، الوادي تألَّق بلون أزرق خفيف كالفجر، ظلَّ واقفًا دقيقة، وخلايا جسدي كأنها تتكوَّر مثل ذرَّات التراب المنزاحة أمام هبوط القمر، ألم مريع، لكن من أين لي بالصوت الذي يصرخ؟ ظلَّ ساكنًا دقيقة، لكن الأرض لم تزل تهتزّ، وضوضاء خشنة تأتي من كلّ مكان، الثلج، وليس الماء ولا التراب ولا النار ولا الهواء يا فايسر، لا نوبل ولا موت، لا حياة ولا ضوء، الثلج والمثلّجات، الألم الأبدي، خلية بشرية تخرج، لتحلَّ محلَّها ثلجة صغيرة، الدبكة الجرمانية متجمّدة، والبدو الفايكنج، والفلّاحون، والدكتور نيازي، والجثث فوق النهر في مدينتي، ووحش الويويوان الذي أكل نصف الأرض، والأحصنة والألف قدم، هل سترتفع حرارتي بسبب

هذا البرد؟ زلزال في الأرض، والقمر لن يصعد إذن، إنَّ القمر واقف منذ عشر دقائق، وعلميًّا، أنا لست حيًّا، أنا أكاديمي وأعرف، مناظراتي مع فايسرشتاين ستملأ المجلات العلمية، زلزال حول القمر، زلزال من كلّ ناحية، تركض وحوش من كلّ أطراف الأرض كي تشاهد القمر بعد أن ارتكز على أمّه أخيرًا، عودة الابن البارّ، الضواري تركض، تركض تركض، وأنا أموت، نظرت نظرة أخيرة إلى السماء، فوقعت عيني على طرف الجبال في الوادي، لو لم يقرّر رجل فلّاح اسمه زهران أن يتبوَّل لكنَّا نجونا! من فوق طرف أحد الجبال، والأرض تهتزّ، هجمت أمواج رمادية، ثم قفزت فهوت، وانسابت من كلّ تلك القمم الصخرية، ضحكت، الماء! ها هو يا فايسرشتاين، نصر علمي كبير، رئتاي تقلَّصتا، وملأ الماء الوادي بعنف، تلاطم وأشاع رائحة الملح، ضرب وجهي، فكأنما قسمه نصفين مثل جبل من تراب كان قد سقط منذ ساعات طويلة. الماء تؤول إليه الأمور. غرق شطر وجهي المقسوم، وبقي من الآخر عين تطفو، رأت كأنَّما هناك من فوق الجبال تنزلق سفينة عملاقة بهدوء، ففكّرت: «أيُّ بحث أرشدهم إليها؟!»، وظلَّت تنزلق حتى استوت على موج يرتفع كالجبال!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المستنقع

جَدّف جَدّف، وردّد جَدّف كما يرتّلون «ملل» في المعبد. جَدّف، فلا يجني ابن آدم إلا ما نال من الطين والماء بالتجديف، جَدّف لتصعد، فكلُّ النائمين نائمون الآن في بطن المستنقع، وعندما يستيقظون، لن يلحظ أحد وجودك، فأبي كان مقرفصًا في ركن من الصالة ينشج، كدت أقول له: لا تحزن إنّني... فأشاح في عصبية: اذهب عني ألا تراني أتبرّز؟! فاعتذرت إليه وغمغمت بما أعني به: سلام. بحثت عن أمي، لكنها كانت غاضبة منا، وذهبت إلى أخوالي، كنت أكرههم أكثر ممَّا يكرههم أبي، أبي يكرههم لأنه اختلف معهم في سعر براميل البوظة، أما أنا فلسبب غريب قليلًا، فقد كانوا يختطفون الفتيات الصغار، ويبيعونهنَّ خارج المستنقع بأعلى الأسعار، وطالما جادلت أمي: ماذا لو اختطفكِ أحد منافسيهم، وباعكِ؟! فتضحك: لا يحدث؛ إنني عجوز! فأنفخ خياشيمي، وأكرّر: طيّب بنات أخواتك؟ فتنهرني وتبصق عليّ: اخرج يا ديوث يا داعر! لم أفهم ما معنى ديوث في يوم من الأيام! سألت جدّي يومًا، وكان الوحيد الذي يردُّ على أسئلتي، قال: سُبَّة تعلّمناها من فوق، وأشار إلى أعلى، يعني خارج المستنقع، فشعرت أنها سُبَّة أخفُّ وطأةً من سِبَابنا، لكنَّ أمي تستخدمها كنوع من الخيلاء من جانب، ومن جانب آخر أننا نجهل معناها، فنشعر بالإهانة أكثر! ففكّرت: إن لم أذهب إليها لأزورها قبل أن أرحل، فقد تحزن! ولا بدَّ من أن تكون أخلاقي بما يتناسب مع ما أريد أن يكون عليه أهل هذا المستنقع! فخرجت من حفرتنا، وعُمت ناحية مستعمرة أخوالي، لكنّني وجدتهم يشحنون الفتيات في حاويات كروية عظيمة، تسحبها زواحف عملاقة، فقرَّرت أن أُجَدّف إلى أعلى، كاختيار للقرار الأقرب إلى قلبي: الهرب بنفس نظيفة إلى أرض نظيفة!

بينما أصعد، كنت أشعر بطهر داخلي عظيم، يتقلَّص معه أيُّ شعور بذنب اقترفته في حياتي: قرص الفتيات في المعبد، تقبيلهنَّ في الصف الخلفي، سرقة الكهنة، العراك الدائم وسط طرقات المستنقع والذي قتلت فيه الكثير، آخرهم سحق رؤوس آل البربخلي؛ كلُّ هذا يتفتَّت ويسقط مع كلّ تجديفة، إنها توبة نصوح، قال جدّي: إذا قرَّرت أن تفعل، فاصعد يا بنيَّ دون أيّ شيء حرام! فتشتَّتّ؛ أنا أريد أن أصعد لأنني لا أريد أيَّ حرام، فكيف سأستخدم أيَّ شيء حرام وأنا صاعد؟ فقال لي لمَّا استفسرت: يعني أن تترك كلَّ خطأ هنا دون أن تصعد به! فلم أفهم حقًّا ما يريد قوله؛ لأن ما يقوله أنا بالفعل أفعله، أو كنت أريد فعله حينها، وأفعله الآن، فقلت له حتى أثبت أنني أستخدم كلَّ حلال في صعودي، فيكفَّ عن تكرار الكلام، ويقول شيئًا جديدًا معقولًا يفيدني: سأستخدم مجدافين ممَّا تبقَّى من سفينة نوح الغارقة! فضحك: يا ولد، لا تردّد سخافات ما دمت تريد النجاة بنفسك! نوح مَن الذي غرقت سفينته؟!

فتعجَّبت؛ هذه أول مرة أعرف شيئًا ولا يعرفه جدّي، فقال لمَّا أخبرته بهذا: غبي! أنت غبي! نوح لم يغرق! نوح نجا، وغرق أعداؤه! فكيف تصنع مجدافيك من فُلْكه؟ فتساءلت: إذن أيُّ نوح غرق، وأنا استخدمت خشب قاربه؟! فصاح: لم يكن هناك سوى نوح واحد وحيد أبدًا، أيُّ قارب غارق لا يمتُّ له بصلة! ثم دقَّق بي قبل أن يقول أخطر سرّ: إنَّ من يقول إنَّ نوحًا غرق كافر! فقلت: أنت غريب اليوم يا جدّي؛ منذ الصباح وأنت تخبرني بمعلومات مكرَّرة! فبدا أنه لم يفهمني، ثم بدا أنه كان يفكّر، إذ قال: نعم، عندك حقّ، ما من مؤمن في هذا المستنقع! ولولا سنّي لصَعِدت معك، لكنّني لا أقدر على العوم! اصعد وادعُ لي اللّه! فقلت له إنّني سأفعل، لكنّني كنت قد شردت في فكرة جديدة فتحتْ لي الشغف بالمعرفة المطلَقة التي لم يشعر بها إنسان بخيشومين؛ هل نحن من البشر الذين غرقوا في الطوفان، لذا فنحن كفَّار؟ كفَّار إلى درجة أنَّ اللّه تركنا غرقى/ أحياء حتى نعاني؟! إذًا لو فعل بنا هكذا فكيف هي جحيمه؟ لكن جاءتني خاطرة أخرى، لم أحدّث بها نفسي، حتى نفسي، أكبتها كلما أطلَّت بالفضول من قلبي كلَّ حين! لكن بما أنني أصعد وألقي عن نفسي كلَّ خطأ فلا بدَّ أن ألقي فكرتي تلك خلفي في المستنقع مع الموج الأسود الرفيع، الذي لم يتحرَّك من قرون مضت مثلًا! لكن كيف أتخلَّى عنها وهي طبيعتي، ومنشئي؟!

الفكرة بدأت - لمَّا فكَّرت جيّدًا حتى أصل إلى أصولها - عندما سمعت من جدّي عن أصل هذا المستنقع، قال: إنه لما انحسر الطوفان، كانت المياه تهرب إلى كلّ شِقّ من الأرض، حتى لم يبقَ سوى الماء الوسخ الذي لا بدَّ أن يتجمَّع في مكان ما كي تجري عملية تنظيف الأرض من البشرية الكافرة، ومخلّفاتها؛ فكان أمر اللّه أن ترتكز هذه المياه في وادٍ ما من الأرض، أو حفرة، لا أذكر ما قاله جدي، المهم أنه مكانٌ غائط، تجمَّعت فيه الأوساخ السائلة، وركدت إلى الأبد، ليكون هذا هو مستنقعنا! أنارت عقلي قليلًا هذه الحقيقة، فأوصلتها بمعلومة أننا كلّنا في المستنقع كفَّار، لأتساءل في هدوء مخيف عن فكرتي المخيفة: «لماذا نحن بالذات خُلقنا داخل هذا المستنقع؟!»، أو بمعنًى أكثر وضوحًا: «لماذا لم نُخلَق فوق الأرض؟!»، أو «لماذا خُلِق غيرنا فوق الأرض، وخُلقنا نحن في المستنقع؟!».. دارت في رأسي إجابة: «لأننا أبناء الكفار!». فكَّرت في احتمال آخر رهيب: «هل لأننا من الأوساخ التي تجمَّعت في المستنقع بعد الطوفان؟! أي إنّني وسخ متطوّر إلى إنسان لا يذكر أصله من جانب، ومن جانب آخر أنني عنصر أساسي من عناصر المستنقع؟! هذا يعني أنه بصعودي لأعلى سيُدمَّر المستنقع؟!».. داعبتني هذه الفكرة الأخيرة، وشعرت أنها الأفضل بين كلّ هذه الاستنتاجات. وحاولت أن أركّز في صعودي بالتجديف بإخلاص لأعلى، وتحمُّل كلّ تقلُّصات ذراعيَّ ورجليَّ، حتى أصل إلى أعلى، إلى الأرض! بالطبع لن يُدمَّر المستنقع، أنا لست مهمًّا إلى

هذه الدرجة، سيعبّئ أبي فضلاته في علبة بلاستيكية، ويخزّنها في زير قديم، يدفنه في مكان سرّي، وستعود أمي إلى المنزل حالما تشتهي أبي، ثم تنفضه عنها لتعود إلى أخوالي، وسيتاجر أخوالي في البنات والنساء مع البريين، وستنقضي الأيام كأنَّ كلَّ شيء كما هو كلَّ يوم. لكنّني لمَّا لمَّحت لجدّي في حديث ما، بكلّ ذكاء، أنَّ الإنسان أصله وسخ ممَّا استقرَّ في المستنقع بعد الطوفان، ارتجف شارباه، وأضاءت غدده الفوسفورية تحت أذنيه، وأغلق شيئًا يقرؤه في عنف، وقال: أنت غبي مثل أبيك تمامًا، وتدور في رأسك أفكار كافرة شاردة! فتساءلت في حيرة: الغباء مفهوم، لكن ما علاقة ما قلت بالكفر؟! فقال: الإنسان ليس له أيُّ أصل، الإنسان إنسان منذ أن كان إنسانًا! وكلُّ ما ادَّعاه داروِن كفر في كفر! فسألته في فضول: مَن هو داروِن؟ قال وهو يلملم شاربه الأشيب: لم أقابله في الحقيقة، لكن ذكروه لنا قديمًا، قردٌ تعلَّم الكلام، فادَّعى أنَّ القرود هي آباء الإنسان! فضحكت وتغنَّيت: قرد تعلَّم الكلام.. آه.. فادَّعى أنه أبو الإنسان.. آه.. طرقعت أصابعي وهززت وسطي، قرد تعلَّم الكلام.. آه.. فادَّعى أنه أبو الإنسان؛ فغضب جدّي وسبَّني؛ ظنَّ أنّني أسخر منه، فضحكت أعتذر: لا لا يا جدّي، لا أسخر منك، لقد شعرت بجَرْس جميل في الجملة، هيَّا اسمع: قرد تعلَّم الكلام.. آه.. فادَّعى أنه أبو الإنسان.. يا سلام. ففتح ما كان يقرؤه غاضبًا، فمضى قليل من الوقت حتى أكمل حديثه، سألته: لكن هل القرود تكفر إذا قالت إنها آباء للبشر؟! فقال: أكيد! فتعجَّبت: كيف للحيوانات أن تكون كافرة أو مؤمنة؟! ثم إننا بشر بخياشيم ونعيش في مستنقع، فما الفرق بيننا وبين القرود؟! أعني أيُّ شيء يثبت أننا بشر؟! ألا يجوز أن نكون زواحف أو برمائيات تدَّعي أنها بشر كما فعل القرد داروِن؟! عبَّرت له بصعوبة عما جال في صدري، فقال مرتبكًا: لكنَّ داروِن كان قردًا مكتمل القردية، بينما نحن بشر بخياشيم لظروف معيشتنا هذه! لم أقتنع؛ فكيف يعيش البشر في المستنقعات، بينما تلهو القردة على جبال الأشجار التي لم يرها أحد قطّ ممَّن تكوَّن في هذا المستنقع! وذكرت محاضرة الكاهن (شرمون) عندما ذكر شيئًا عن هذا الأمر، كان يقول بعد أن أنهى ترتيلة الملل: «والعالم كلُّه لم يجد مكانًا أفضل من (بئراتستان) كي يأتي ليصطاف فيه، إنَّ الآلهة...»، بئراتستان هو اسم بلدنا، المستنقع أقصد، فسألته بعد أن قبَّل الناس أنامل التماثيل، ورشَّهم الكاهن (شرمون) بالماء المقدَّس: لكن كيف يصطاف أحد هنا؟ أنا لا أرى منهم أحدًا!»، فقال في حزم: إنهم يأتون، ويُدِرّون علينا الكثير من الأموال! فتعجَّبت: لماذا يأتون أصلًا؟! فزفر، ثم ابتسم في صبر: قل لي يا ولدي، من أيّ شيء تكوَّن بئراتستان؟! عددت على أصابعي: ماء، ووسخ، وبراز، ورمم، وبواقي جثث، و... قاطعني غاضبًا: إن لم تذهب بغبائك هذا لعنتك، وأخبرت خالك أنك كافر! فابتسمت وقبَّلت يده وذهبت، وضحكت عندما خرجت، لأنني بدأت أتخيَّل صور اللعنات وأشكالها: تجشُّؤًا عملاقًا من فم تمثال حيزرون الثالثة، أو تقيُّؤًا دمويًّا من فم (شرمون)، أو

أضواء مبهرة من إست مانجوزا الثانية عشرة. كاهن غبي أخرق، لا يعرف أنني تائب ومؤمن، عندما أخبرني جدّي بحقيقة العالم، وأنَّ التماثيل مجرَّد تماثيل، وأننا جميعًا ملك لربّ عظيم في السماء؛ ذهبت فورًا إلى تمثال مناجوزا الثانية عشرة -وكان من شيء غير الحجر، شيء طري لزج، يقول جدي إنه من عرق الضفادع اللزج. ضربت أليتها، فلم تعترض، ولم تلعنّي، فضاجعتها، فلم تصرخ؛ فعرفت أن جدّي صادق، وذهبت لأُضحِكه، فضربني، فشعرت أنه ما زال يؤمن بها، أو يغار عليها! فقال لي لا عندما بحت له بما دار في رأسي: لا يا غبي يا بن الغبي، لكن الفعل ذاته قذر ومَشين! ففهمت، لكن ظللت أسخر من الكهنة جميعًا، ولو في سرّي. حتى في الصلاة، التي أذهب إليها فقط كيلا يكشفوا أمري، كنت أردّد الخطأ حتى أفسدها؛ ينغّمون مثلًا في صلاة الملل: «ملل.. ملل.. ملل ملل ملل.. ملل.. آآآآه ملل ملل ملل إيه إيييييه ملل ملل مللللل.. ملل...» وهكذا، فكنت أقول: بلل بلل بلل، أو شلل شلل شلل، أو خلل خلل خلل، وهكذا، من دون أن يشعر أحد، فتفسد صلاتهم؛ لأنهم يقولون إنَّ الواحد لو أخطأ شمل الخطأ كلَّ الناس، ولو أحسن الواحد، فحسنه لنفسه! شيء كهذا تقريبًا. يؤمن جدّي أنهم حمقى، ويؤمن أنَّ الحاكم يضاجع الكهنة يوميًّا، وأنهم يحفظون منيَّه لاستخدامه في السحر والأشياء المريبة تلك، يقول إنهم يسيطرون على المستنقع بالسحر والمال والسيوف، يقول: هل رأيت أحدًا من الناس لديه تعويذة أو مال أو سيف؟! طبعًا رأيت، قلت له: أخوالي! فنخر: أخوالك تجَّار، والتجَّار مثلهم مثل الكهنة! انقبض قلبي: أتعني أنَّ الحاكم يضاجع أخوالي؟! فعبس: ما أعرفه أنه يضاجع الكُهَّان! أمَّا التجار؟ ابتسم، اسأل أخوالك! فارتبت؛ كيف أسأل أحدهم مثل هذا السؤال؟! وذهبت إلى دارهم الكبيرة، فوجدت ابنة خالي (سرحون) تبكي جوار الباب وهي تتبرّز! تعجَّبت وعيني على ردفيها: أتبكين على برازك؟! ماذا تركتِ إذًا للفقراء! فأشاحت بيدها: أبوك فاحش الثراء، ويبكي أيضًا! فقلت إنَّ أبي بخيل تعزّ عليه أصغر قطعة متماسكة! أما أنتِ فابنة شاه التجَّار! فقالت: كلُّ شيء له ثمن يا بن عمتي، وكلُّ فقد لا بدَّ أن نبكي عليه، واذهب الآن إني معسورة! فتنهَّدت! وقلت لنفسي كلمة حكيمة جدًّا: «هكذا يصبح الأغنياء أغنياء!». في الداخل، وجدت أمي تُضاحك شابًّا أخضر الشارب، تضع يدها على فخذه، وهو خجول، فصحت من مكاني: «أمي، ابنة أخيك تتبرّز في الخارج، أرسلي إليها أحدًا يجرُّها إلى المرحاض حتى لا تُخطَف! فعبست: «اخرس يا ديوث، قُطع لسانك القذر، لا أحد يستطيع!»، فقلت: إذن دعيها تدخل إلى المرحاض! فأشاحت بذراعها: «أحمق كأبيك! البنت تدَّخر برازها بدلًا من أن تهدره في البالوعات!»، وربَّتت على فخذ الشاب، فأسرعت إلى حجرة خالي، بدلاً من أن أسبَّها أمام صديقها الشاب! وصَعِدت إلى خالي في غرفة مكتبه الثرية، طرقت باب الغرفة، فسمح لي بالدخول، فتحت الباب فوجدته يأتي الوزير الأول! فابتسمت، وقلت له: «عاش خالي العزيز!»، فقال لي أن أمر عليه بعد

أن ينتهي من الاجتماع المهم. فأسررت لجدّي بالأمر، فقال: تعرف يا ولد؟ هذا المستنقع أحسن من غيره! وقبل أن أتعجَّب، قال: فكما تعرف، المال يشتري السحر والسيف والناس!

لكنّني شعرت أنّني إنسان، وأنَّ دارون هذا إنسان يعيش على الأشجار، لكنه هبط إلى الأرض كي يسير فوقها كما سار دائمًا آدم؛ فيجب عليَّ أن أخرج من المستنقع وأسير على الأرض كما سار آدم، ولو قابلته يومًا، سأفنّد نظريته لو وجدته بشريًّا، سأقول له: لو كنت تظنُّ أنَّ البشر هبطوا من الأشجار لأنك كنت تعيش فوقها، فما قولك في أنَّ البشر قد صعدوا من المستنقعات، لأنني أعيش في المستنقع؟! وسأداوله المناظرة في أصل الإنسان: قرد أم ضفدع! وسأدع الجدال يدور حتى أحكم بكلّ حكمة تعلّمتها: «أنَّ الإنسان أصله الأرض، لكننا نظنُّ أننا أصل كلّ بشر ما دمنا آتينا من أيّ شيء غير الأرض»، أو «أننا ندَّعي أننا أصل البشر؛ لأننا جئنا من أرض غير أرضهم!»، بمعنى «أنَّ البشر الأصليين هم من سكنوا الأرض، لكننا ندَّعي أننا الأصل، لأننا نظنُّ أنَّ ما أتينا منه أفضل من الأرض!». سأشرح النظرية بكلّ المعاني التي يجب أن يفهمها الناس كلُّهم. المهمُّ أن يفهموا في النهاية أنهم ناس خُلِقوا على الأرض التي خلقها الربُّ العظيم الذي في السماء.

يتراقص النور أمامي بين شباك الطحالب، وصغار الضفادع تعوم بالقرب منه كي تستدفئ وتنمو عظامها، تَزِيغ عيني كلَّما صعدت، والدفء يُرجف قلبي وأنا أصعد، صار المجدافان أسرع، والنفس أسهل، لكنّني شعرت بقليل من الصداع. تخيَّرت بقعة خالية من الطحالب، وأسرعت للخروج من الماء كما تفعل القراميط التي تسكن جوارنا. اكتسح صدري برد حارق، وشهقت بلا توقُّف، ثم عطست من أنفي، وخياشيمي تنفث الماء، حضنت أنفي بأصابعي، مسَّدتها برفق حتى تتقبَّل العمل لأول مرة! ثم أردت أن ألقي النظرة الأولى على الأرض، فوجدت في مواجهتي قاربًا صغيرًا يجلس عليه إنسان برأس غراب أسود. انتفض لمَّا رآني، ثم سأل بشغف: «هل أنت رجل المستنقع؟!»، فلم أعرف هل أقول نعم أم لا؛ فأنا لست الرجل الوحيد الذي هو في المستنقع، هناك رجال كثيرون! فقرَّرت أن أجيب بسؤال: «أين هي الأرض؟!»، فنظر إليَّ في عجب: «الأرض؟ أيّ أرض؟!»، فكّرت: لقد أخبرني جدّي أنَّ هناك أرضًا جديدة، وأخرى قديمة، لكن أفضل الأرض شيء يُدعى هيرمستا! فقلت: «هيرمستا!»، فضحك، فارتجفت من شكل منقاره، قال: «هيرمستا! أنت قديم جدًّا! هيرمستا ابتلعها الرؤيوان!»، فكّرت، أيُّ إنسان في العالم يستطيع أن يبتلع الأرض؟! قلت له: «إذن أيَّ أرض أخرى، لا تضايقني!»، فمال ناحيتي، وربَّت على كتفي: «ليس هناك أرض، انتهى كل شيء! ليس هنا سوى بعض القوارب، وأنا أحد ملوك القوارب»، ضحك: «أي ملك من ملوك الأرض!»، وضحك مرة أخرى! ففهمت؛ لقد جاء نوح آخر، وقرَّرت أن أخبر

جدّي أنه لا يفهم شيئًا، ومؤكّد أنَّ السفينة الغارقة لنوح من النوحيين، لكنه غرق هذه المرة، وهذا يعني أنَّ من يؤمن بغرق هذا النوح الأخير ليس كافرًا! سألته: «إذًا فهذا طوفان؟!»، وأشرت إلى متَّسع الماء المقطَّع بالطحالب، فأومأ غير متأكد: «تقريبًا!»، فلم أُضِع فرصة: «إذًا أين نوح؟!»، عبس، ونظر ناحية الغرب، حيث صعدت الشمس الحمراء قليلًا لأعلى: «نوح؟! من أين يأتي نوح الآن؟! ليس هناك غير نوح واحد، وكان في طوفان قديم، ومات بعد هذا الطوفان، مَن قال إنَّ هناك نوحًا آخر؟!»، فشعرت بالحرج لأن جدّي دائمًا يأتي بالصدق، فنظرت إلى السماء، وسألته: إذًا هل هناك ربٌّ في السماء؟! نظر إلى أعلى، قال: «وهل أحد يستطيع أن يُخرِج كلَّ هذا الماء غيره من كلّ شيء؟!»، وتنهَّد ثم قال في هدوء: «ما الذي أخرجك يا إنسان المستنقع؟! ما الذي أخرجك؟! انزل انزل!»، أنزل؟! يا للحسرة! وكلُّ هذا العوم إلى أعلى؟! كلُّ هذه الخطط والمناظرات والأفكار التي يجب أن تُنشَر؟! أين هم البشر الأصليون؟! أريد أن أتحدَّث مع أحد منهم، بدلًا من هذا المَسْخ! فسألته كي أختصر الوقت: «إذًا قل لي قولًا واحدًا، أين هي منازل البشر الآن؟!»، ضحك، ضحك بشدة، وجدَّف في هدوء مبتعدًا عني بقاربه، جدَّف ناحية الغرب والشمس تشتعل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المُلّك

أخيرًا انتهيت! أرهقتني المجاديف أكثر من القارب! آه يا ظهري يا خشبات مفلوقة، لا بدَّ أن تراعي حجم المجداف وخفَّته، وتَناسُبَه مع حجم القارب، وتناسُب أطوال المجاديف، والمجاديف الاحتياطية! إنها الرحلة الأخيرة، لا أظنُّ أنّني عائد! وإن عدتُ، فلن أجد الأرض كما تركتُها؛ فقد خرجتُ منذ أعوام بعيدة، ووجوه المدن كالناس، تشيخ وتتجعَّد إذا مرَّ عليها الزمن. وكنت طفلًا صغيرًا حينما لم تكن المدينة بعد، وقد وقف على بابنا رجل طويل ينقر الباب بالعصا، جريت نحوه قبل أن يفتحه أحد: من أنت؟ ودرسته بفضول؛ هَرِم، شاحب، متجعّد، طويل، يرتدي جلباباً من الصوف الأسود، انتظرت أن يردَّ، لكنه تبسَّم، ونادى على أبي: «يا حاجّ مجاهد، ائوِ إلى الفلك المشحون، أنت ومن اشتدَّ من ولدك؛ فقد أنزل اللّه على أرضه الرؤيوان، ولم يعد أيُّ معنًى لنظم الكلام، الصفوف اصطفَّت، العلج جلس على العرش، فأنت أحد الرجلين؛ إما مستدفئ في الفرش، أو مُصارع في المَصارع!». لم أحفظها بين يوم وليلة، فقد عبس أبي، وكتب هذه الكلمات بعد أن ذهب الرجل على الحائط، ثم ذهب ومعه عمّي وأخواي وبعض أبناء أعمامي، راقبتهم ونفسي يضيق، يسيرون صفًّا قصيرًا على ما خلَّفوا من مروج. كنت أريد أن أذهب، لكن أمي قبضت على ترقوتي، وتأمَّلتهم شاردة ثم قالت فقط: «لا تتعجَّل!»، فعدنا إلى البيت من دون كلام، وجلست أمام الحائط أحفظ ما كتبه أبي، ثم سألت أمي عندما حفظته: مَن كان الرجل؟! فقالت فقط: «الخروج!».

والآن، أنهيت القارب، وفي الماء سكون مخيف، يضرب مقدّمته يستفزُّه كي يجري فوقه، لكنّني أقوّضه من مؤخرته؛ فكلُّ القوارب عجولة جهولة، ما إن ترى الماء حتى تكاد تُجَنّ. أفكّر هل حقًّا تكون نهاية المعركة هنا؟ فوق الماء؟ أضاقت الأرض بالحروب بعد كلّ هذا الدهر حتى ينتهي كلُّ شيء فوق الماء؟! قال لي الخروج عندما جاء دوري: «لو انعدم في يدك السلاح، وكان موتك هو سلاحك الوحيد فلتمُتْ! فالانتصار أكبر من الحياة!»، ابتسمت، ولم أكتب شيئًا على الحائط؛ فقد حفظت كلَّ ما كتبه أبي وأعمامي وأبناؤهم وأشقَّائي، وأسلحتي لم تُستنفَد بعد؛ فلديَّ ساعداي وقاربي وبندقيتي وسيفي، ومجاديفي! عندما جاء دوري، لم يكن في قبيلتي رجل سواي، قال الخروج: «لقد وفَّى آباؤك وإخوانك، وسقط عن العروش قوَّادون وسدوميون ومسوخ وعلوج، ولا يزال الطغيان في الأرض»، ثم أخرج من جعبته هَرَمًا أسود قمَّته من الذهب، وقال: «أنت آخر رجل من قومك، هذا هو العالم، هذه هي الخريطة الحديثة، اتبع كلَّ أبناء الزنا الذين مسخوا الكرة هرمًا، وجعلوا الناس غِنًى وفقراً، فلا تمسح على الرؤوس، دونك الفؤوس!»، وذهب قبل أن يشرح

لي كيف أسير في الشوارع أبحث عن الأعداء باستخدام هذا الهرم! فوضعته في الحقيبة، وخرجت.

حملت زادي في القارب، وألقيت نظرة أخيرة على البرّ، الشمس وحش ذهبي وسط عتمة لا تليق بأيّ صباح. أيها العالم، هذا وداع لا يليق بمحارب، وداع لا يرضيني، فلو أدبرت عني بوجه كهذا في مثل هذا اليوم، فكيف يستقبلني هذا المحيط الهادئ المرعب؟! تنهَّد الشجر وقال: «حسنًا حسنًا، اذهب وانتهِ، لم نعد نتحمَّل أصواتكم يا أخي! اذهب!»، فضحكت وقلت لقطيع ثعالب يركض: لا تقلقوا أبدًا؛ سينتهي الأمر كلّيًّا اليوم! فكرت: «ينتهي كلّيًّا اليوم؟!» حقًّا؟! أذكر كأنه أمس، عندما وصلت إلى أول مدينة بعد مدينتي، رأيت جنديًّا، وكان هذا أوَّلهم، شاب أسمر، بشاربين أسودين، يدخّن، ينزوي في ركن يتبوَّل، يحرّك ذراعه مستنجيًا على ما يبدو.. أخرجت البندقية، وكانت باردة، انتظرته كي ينهي وقفته تلك، لكنه أطال، مثانة تحوي طوفانًا؟ البول سال بين رجليه كثعبان، ولم أفهم؛ أيُّ متعة في كلّ هذا الإفراغ؟! يسقونهم حليب إبل في وحداتهم؟! ما هذا السأم؟! قتلته، فسقط على البول، وانطلق من قميصه الغامق إنذار إلكتروني من بقايا القرن الصناعي الأغبر، فاختفيت خلف جدار ظليل. وصلت دورية، وأحاطت به، فقتلتهم، وقرعت إنذاراتهم، فجاءت دورية أخرى، فقتلتها، فزادت الإنذارات، وجاءت ثالثة، فأحاطت بالجميع، فقتلتهم، ولم يحرّك أحد منهم يده كي يخرج سلاحه، فشعرت بالملل؛ إنَّ هؤلاء لا يقاومون، كأنهم في انتظار أوامر تشغيل أسلحتهم! انقضت ساعة، وتراكمت فوق بركة البول عشر دوريات! فقصدت المخفر الأكبر، وترصَّدت لكبير الشرطيين، وكان علجًا أصلع طويلًا، خرج تقريبًا عند منتصف الليل، فقتلته، وانتشرت الضوضاء في كلّ مكان، وخرج الحرس كالنمل فرادى وجماعات يُهْرَعون في كل اتّجاه، حتى غضب القمر ليلتئذ وأمطر أَلَقًا أبيض حارقًا كلهب الشموع، فانكمشوا حول المخفر يحرسونه بعد أن أخلَوْه! فذهبت إلى قصر الحاكم، وكان ساهرًا يحتفل بشيء ما، فتمدَّدت في حديقته واللهب الأبيض يحرق من أطرافها، أتابع النجوم، ولحديثها قرقعة غريبة، لم تهدأ حتى مضى أكثر الليل، وانصرف أصدقاء الحاكم، فتثاءب وهو يغلق القاعة، ومرَّ فوقي فوقع، فتيقَّظت مفزوعًا، صرخ: «من هناك؟!» سألته: «ياه! هل نمت؟!»، فقال: «يبدو ذلك! أنا آسف؛ أيقظتك، لكن اعذرني؛ من أنت؟!»، فكنت لطيفًا معه: «لا لا لا، لا عليك، لم يكن لي أن أنام وهو أوَّل يوم!»، وشددت الأجزاء وقتلته! ثم خرجت وأنفاسه الأخيرة تخرج في أنين! دخلت منزله، كان أهله والموظَّفون نائمين. دخلت المطبخ، فتحت الثلَّاجة، فسقط منها طعام وبعض الزجاجات، بينما سقط نورها على رجل يلهث، رفعت الزجاجة إلى فمي وصوَّبت البندقية ناحيته، كان حارسًا نائمًا فوق امرأة، بدا من بنطلونه الكاخي وسترته أنه حارس أو جندي، كان يقبّلها في

جوع. فححت مستمتعًا بعد الماء البارد، فأجفلا، وصرخت المرأة بينما ضمَّ سترته بيديه، ضحكت: «طيب لو أخفت هي صدرها لما عجبت، أما أن تخفيه أنت فهذا يثير فضولي!»، فارتجف والتصق بين الحائط وبينها وهو يضمُّ صدره بقوَّة، قلت: «هل تهرب مني خلف ولية؟! تعالَ هنا!»، فصرخ وبكى، وانبجس من سترته نهدان! فدفعته فسقط في حجر المرأة فحضنته، وقالت: «حرام عليك، اتركه لحاله!»، ثم بكيا! لم أردَّ عليها؛ هل أردُّ على امرأة تقضي ليلتها على الأرض مع رجل بثديين؟! كلَّا لا يحدث هذا أبدًا! رفعت الزجاجة مرة أخرى، وأفكِّر ماذا سأفعل بعد الآن بعد أن باتت المدينة بلا حاكم، ثم سألتهما: «من أيّ نهر هذا الماء؟»، فأشارت إليَّ بإصبع فوق شفتيها لأصمت، كانت تهدهده، فنام، سألتها: «ما باله له ثديان؟»، فتعجَّبتْ: «إنه جندي! هل هذا جديد عليك؟»، لم أفهمها! لكنّني سألتها: «وأنتِ؟! جندي أيضًا؟»، وددت أن أضايقها فحسب، فقالت: «لا، أنا مجرَّد بغي، أتاجر بهما!»، وضحكت في خلاعة قبل أن تستدرك أنها تهدهد الجندي! بدأت الشمس تتجمَّر، ولهب القمر قد خَفُت، صارت الساعة السادسة، فذهبت إلى محطَّة الحافلات لأذهب إلى مدينة أخرى!

الحقيقة أنَّ القارب أفضل من الحافلة! لا يوجد أيُّ زحام، النهر هادئ، يشقُّه القارب بلا مشقَّة، والمجاديف ممتازة، الحمد للّه، لولاه لهلكنا. هذا الخشب نادر جدًّا، يدَّعي البعض أنه بقايا من سفينة نوح، لكنّني لا أصدّق، أخبرني بهذا تاجر الخشب، لكنه تاجر، وشهادته مجروحة عندي. كان هذا في مدينة من مدن الكرج، كنت قد هربت من أرض الكيمت، قتلت العلج وقائد الجيوش، وأخطّط لقتل وزير الحربية الكرجي، سألني الرجل: «هل تريده لتفصيل سرير، أم أريكة؟ لا تخشَ شيئًا، في الحالتين لن ينكسر حتى لو كنت تضاجع فيلًا!»، وضحك من دون أن أضحك، قلت له لا، أنا فقط أصنع به أسلحة كي أقتل الجنود والوزراء والملوك! فضحك حتى كاد يموت! لم أخبره طبعًا بأمر القارب حتى لا يظنَّني مجنونًا! فقال: «وهل يموت جندي أو وزير أو ملك؟»، قلت: «نعم بكلّ تأكيد، لقد قتلت جنودًا فرسًا ورومًا وجبنًا وزنجًا وحبشًا وغالًا وعدادنة، وأسقطت وزارات شتَّى بكلّ الأشكال، لم أُبقِ على ملك إلا وأهلكت حاشيته، إنني في ذلك الأمر منذ خمس سنين، وقد قتلت عشرة ملوك تقريبًا، وسأقتل ملككم إن شئت!» فضحك! وقال: «أنت ظريف! وهل يموت أحد من هؤلاء؟! إنَّ الموت لنا فقط، كي نرتاح من عناء الحياة، كما يرتاح الأجير آخر يومه!»، فمرَّ جوارنا رجل طويل في حُلَّة حمراء، وله نهدان، سألت التاجر: «هذا جندي؟!»، فأومأ متحاشيًا أن ينظر إليه، فابتسمت: «هل تعلم أنَّ أثداء جنود الفرس فيها شعر؟! أمر مقرف، لا يستحمُّون، ويعبدون النار! والجبتيون أثداء جنودهم كالليمون، والغراقدة كالبقر، لهم ضروع!»، فعبس وعبث في بضاعته دون أن ينظر إليّ! استرق النظر إلى الجندي، كان واقفًا عند العمود

المقابل، يضرب الأرض بحوافره، وذيله يلعب خلفه، همست لنفسي، أسمع التاجر: «صاحبك كبغيّ تراودنا!»، فصاح التاجر مذعورًا: «يا بوليس يا بوليس!»، فهُرِع الجندي نحونا وثدياه يتقافزان تحت بِزَّته الحمراء! قال في عنف رافعًا عصًا سوداء: «ما الأمر؟!»، فقال التاجر: «ها؟! الغريب يذكركم بالسوء، ويريد سرقتنا أيضًا!»، فقبض الجندي على كتفيَّ! فصحت: «لا! أرجوكم! لا! أنا بريء!»، فصاح الجندي: «وما يثبت؟!»، همست له محرّكًا حاجبيَّ: «معي هدية لك»، قال: «وما تكون؟»، فأخرجت له مشدَّ صدر أبيض! فاحمرَّ وجهه قليلًا، ثم ابتسم، شجَّعته برأسي كي يرتديه! فخلع سترته، والناس يتحاشون النظر إليه، اندلق ثدياه كأنهما توأمان مضبوطان بالرجَّة والارتعاشة ذاتها! وقبل أن يرتدي المشدَّ، دككت خنجرًا بينهما، ففحَّ وأنا أقسم صدره وهو يَزْفِر في وجهي والدم يجري على يدي. صرخ الناس، ولمُّوا بضائعهم وهربوا! بينما سقط الجندي فوق ذيله لمَّا أخرجت قلبه، ثم قذفته على قفا بائع الخشب فسقط مغشيًّا عليه! كادوا يقتلونني هذا اليوم؛ فالكرج منظّمون، كلُّ شيء في مكانه، متعاونون كيد واحدة، لكنَّ جنديًّا تتريًّا منهم تستَّر عليَّ لما أعطيته بعض الحلوى، وتركته يسرق مني بعض المال، فشعر ناحيتي بالصداقة ولم يخجل من أن يفتح قميصه أمامي، قال لي: «حكايتك غريبة، لكن لو كنت تبغي قتل الوزير فأنا سأساعدك، إنه شيطان مارد قتل الكثير من قبيلتي!»، واقترح عليَّ أن أذهب إلى استراحته في جبل الكرجولا، وذهبت كما قال في الساعة الثالثة من الليل، كان عملاقًا ممدَّدًا على سرير يناسب جسده، يده تتدلّى في استرخاء على الأرض، يرتدي خاتمًا ذهبيًّا يشبه حافر الجندي الذي قتلته في السوق، كان ينظر إلى القمر ويحتسي شيئًا، وعلى صدره ورقة صفراء، قلت هذا لن يقتله سيف، حقنته بالسُّمّ، فتشنَّج لنصف ساعة ومات. سقطت الورقة أمامي، قرأتها:

السيد وزير الحربية الكرجي،

تحيةً وبعد،

مرفق طيّه الخطة الناموسية الرابعة للتقسيمات العسكرية ومواقع نشرها على الخرائط العالمية الجديدة، الرجاء ضبط الجندية الكرجية حسبما هو مطلوب.

الشكر،

بعلـشمين

القيادة العليا - فيرموزا

أخرجت الخرائط، لم أجد فيرموزا تلك إلا ماء المحيط! ومن يكون بعلشمين هذا؟! قرأت الرسالة مرة أخرى ولم أفهم شيئًا. سرت ساعات في حدائق كُرْجِيَّة، حتى هدَّني التعب، فتمدَّدت تحت شجرة ظليلة، وزَفْزَف النسيم، فاستغرقت في نوم قصير ثقيل. رأيت أنَّ العالم كرة من نار تركض فوقها آلاف الخيول، يطلقون السهام والنبال على رجال من حديد، ويصهلون كأنهم يزأرون، والأرض ترابها من نار، ووقف رجل عملاق برأس كبش يضحك، وعيونه تلمع مثل الشمس، يقول: انتصرت وقضيت على الطين، لقد قضيت على الطين! إنّنا نحن الملوك، إنّنا نحن الملوك! وخرج للأرض قرنان أسودان، والخيول تصهل، وارتدى رأس الكبش تاجًا أسود، يعلوه هرم له رأس من ذهب! فزعت من النوم، وأخرجت الهرم الأسود الذي أعطانيه (الخروج) الهَرِم، سألته: «كيف نسيتك كلَّ هذا الوقت؟! لقد أغوتني دماء الملوك تمامًا!»، فحصته، كان من أحجار سود ملساء منظَّمة بالمسطرة، كلُّ حجر لبنة مربَّعة موسومة باسم واحد، في القاعدة مثلًا: «هرقليزوس، إردوجنزول، سيخارس، آرزين، ليان شووانج...»، أسماء الملوك؛ ثم في الطبقة التالية أسماء غامضة، لكنّني عرفت أحدها: (رفاعة أبو الدهب)، تاجر كبير من أرض الجبت؛ تلتها طبقة أخرى أضيق منها؛ حتى كانت هناك آخر طبقة من ستَّة أحجار كريمة تكوّن القاعدة للرأس الذهبية، كُتِب على الأحجار الستَّة: «بعل، باكخوس، اللات، تير، شيفا، بروميث». دقَّقت في بعض الأحجار تحت اسم (بعل)، فوجدته بوضوح في طبقة أدنى: «بعلشمين».. مسحت على اسمه، فتوهَّج الرأس الذهبي وقال: «بعلشمين: مكتب التنظيم الناموسي للكتل العسكرية الطينية!»، ضحكت قليلًا، ومسحت على اسم (سيخارس)، فقال الرأس: «سيخارس: العبد الطيني السائس لكتل الجبت!»، مسحت على ملك الروم، «هرقليزوس: العبد الطيني السائس لكتل الروم!»، كان الأمر مسلّيًا! مسحت على اسم جوار بعلشمين: «بعلزبول: مكتب التنظيم المعلوماتي!»، مسحت على طبقة أعلى، «باكخوس: السكرتير الخاصُّ بالسيد العظيم لشؤون التمويه العامّ!»، مسحت على بعل: «بعل: النائب الأوَّل للعرش المقدَّس لآل إبليس!»، نظرت إلى الهرم قليلًا، مسحت على بعل مرة أخرى: «بعل: النائب الأول للعرش المقدَّس لآل إبليس!»، رججت الهرم بقوَّة؛ عساه تلف من عدم الاستخدام! مسحت مرة أخرى: «بعل: النائب الأول للعرش المقدَّس لآل إبليس!»، وضعته أمامي تحت الشجرة، وتأمَّلت الطبقة السفلى، ملوك الأرض الذين قُتِل ثلاثة أرباعهم، ثم الطبقات التي تعلوها من أسماء مريبة، ورأسًا ذهبيًّا مخيفاً، وتذكَّرت قول الهَرِم: «هذا هو العالم، هذه الخريطة الحديثة، اتبع كل أبناء الزنا الذين مسخوا الكرة هرمًا!»، هل كان يعني أن أتبع كلَّ هذه الأحجار، أم كان يقصد أن أتبع الرأس الذهبيّ؟! شردت فيه قليلًا، كان ذهبيًّا مصمتًا يلمع كأنه الشمس. مسحت عليه، قال: «الملك الطاووس: سيّد العالم، العارف صاحب الحقيقة الوحيدة!»، وتشكّل فوقه كرسي من لهب

أزرق، منقوش على ظهره رأس ماعز، دار حول نفسه في هدوء! سقطتْ من الشجرة تفاحة، لكنها ظلَّت عائمة أمامي، ولم تقع على الأرض، فقذفتها إلى الشجرة مرة أخرى، فتنهَّدت وشكرتني!

الماء هادئ تمامًا، والأفق لا يحمل أيَّ شطوط، ولا صوتَ يؤنس خرير مجاديفي سوى صفير الريح الذي يذكّرني بالليلة التي نحرت فيها كاردينال الروم. أثق تمامًا بالقارب، لكنّني لا أزال مرتابًا في الهرم الأسود، كنت أضعه أمامي، والرأس الذهبي يتوهّج بسراج أزرق كلّما جدَّفت إلى الأمام، ولو حرفني الماء، كان يتوهّج بالأحمر حتى أضبط وجهتي مرة أخرى. كنت أرتاب لأنّني أسير في الماء لساعات، ولا تظهر لي أيُّ أرض، أبدًا أبدًا أبدًا، وكلّما ضغطت على الرأس الذهبي يقول الصوت: «الملك الطاووس: سيّد العالم، العارف صاحب الحقيقة الوحيدة!». أقلب الهرم على جوانبه، الخروج شيخ مسنّ، والهرم قديم كقدمه، أكيد، إنه تالف، هل أعود؟! لا أعرف هل تساعدني ذراعاي على التجديف مرة أخرى أم لا! لكن ما الحلُّ إذا عدت؟ كلُّ ملوك الأرض، كما يبدو، ليس لهم قيمة في العالم الحقيقي، إنهم مجرَّد أدوات تخيفنا! مئة وثلاثة وتسعون رجلًا يخيفون البشرية كلَّها! وعشرون رجلًا منهم يخيفون باقي المئة والثلاثة والتسعين! وبعض التجَّار يلعبون بكلّ شيء! إنَّ البشر مخلوقات حمقاء لامبالية! يريدون الطعام والمال والجماع ليس إلَّا! فهل أعود كي أعيش معهم، أم أسير كي أتخلَّص منهم؟ لكن إلى أين؟ أين الأرض؟! أين الأرض؟! ضربت الرأس الذهبي بقبضتي، فانفجر الهواء، وتشكَّل من اللاشيء -حرفيًّا- جسد نحيف! انكفأت على وجهي وأنا أصيح: «أعوذ باللّه! أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم!»، فانفجر الهواء مرة أخرى! وصرخ صوت من العدم: «آه! طين غبي أحمق! لماذا تناديني ما دمت تخاف؟! يا غبي يا قبيح!»، أصخت السمع: «من أنت؟ أنا لم أنادِ أحدًا!» فصرخ متألّمًا: «أنت ضغطت على الزرّ الذهبي! أنت تضغط على الزرّ الذهبي من ساعات! طين أحمق!»، حملقت في العدم حولي، ثم تمتمت: «أعوذ باللّه!»، فصرخ الصوت: «آه آه آه! غبي غبي!»، وابتعد، فضغطت على الزرّ وأنا أناديه: «كلَّا كلَّا! تعالَ تعالَ! لن أتعوَّذ باللّه منك، تعالَ أنا أريدك حقًّا!»، فسمعت الصوت يعود ويئنّ! ثم انفجر الهواء، وظهر الجسد النحيل مرة أخرى، ملفوف كالمومياوات بقماش أسود فاحم، ووجه محروق، متفحّم، وقرنين كقرني كبش هبط على القارب بحافر كحوافر الجنود، تمامًا كحوافرهم، وحدَّق إليّ بأشدّ كراهية رأيتها في حياتي! ضمَّ ذراعيه إلى صدره، وعينه تلمع كشعلات حمراء، سأل: «ماذا تريد؟».

تأمَّلته: «أنت مسنّ، مسنٌّ جدًّا!».

نخر: «أذكر أنني أكبر من أبيكم، ها؟ أبيكم الكريم!».

اقشعرَّ قلبي، ولا أعرف، ترقرقت عيناي: «هل رأيته؟!».

فَحَّ: «مَن؟».

«أبي، آدم! أوحشني!».

«طين أحمق، طين لازب غبي!».

مسحت عيني: «لا، لا أقصد، لكننا نحبُّه كما تعرف!»، وسعلت..

فضحك، ضحك كثيرًا: «تحبُّونه؟! أنتم؟ أنتم؟! لا أدري ما أقول! لقد رأيت كلَّ شيء في هذا العالم قبل أن تأتوا، وما رأيت أكذب منكم! لو تحبُّونه حقًّا يا طين، لكنتم تعيشون مثل إخوة الآن، مثل أبنائي مثلًا! لكن ماذا أقول؟ لقد ورثتم حقيقة آبائكم! الكذب، القتل، الدم!».

تنهَّدت: «لكن بما أننا نعيش اليوم كأعداء، فلماذا تحكم العالم القبيح هذا، الممتلىء بالألم والدم والكذب؟ دعْه لنا إذن لنقضي عليه! دع أعداءك يقتلوا أنفسهم بأنفسهم!».

ضحك: «بل أرعاه يا طين، إنه عالمي أنا، وغير ذلك، لي منكم أصدقاء أودُّ بقاءهم!».

ابتسمت: «أصدقاء كالذين قتلتهم بيدي، هرقليزوس، وسيخارس، وإردوجنزول؟».

«يأتي غيرهم يا طين، يأتي غيرهم، بل أبطش وأقوى، إنَّ أصدقائي منكم لا يَنْفَدون، إنهم أصحابي حتى النهاية»، ونظر عن يساره..

«لذا وجب القضاء عليك!».

ضحك: «تقتلني؟! أنا تقتلني؟! سليمان لم يفعل! موسى أيضًا لم يفعل! والنبي العدناني لم يفعل! أنت تفعل؟! لا أظنُّك أفضل عنده منهم! سأقدّر لك كلَّ هذا الإرهاق، والغايات النبيلة، سأنصحك، نعم، سأنصحك كما لم أنصح طينًا من قبل: عد إلى الأرض، اهبط مرةً أخرى، ومارس عادة القتل، اقتل العروش كلها إن استطعت، المئة والثلاثة والتسعين، إن استطعت، واقتل حواشيهم، ووزراءهم، وجنودهم، وسجونهم، وأبواقهم، مزّق سلاسلهم، ساعتئذٍ، ستجد كلَّ الطين الراكض في الأرض لا يحجبهم شيء عمَّن في السماء! افعلها، وسيعود ليدلّلكم! نعم، حتى إنه شرع هذا القتل بسببكم! لم يرد يومًا أن يكون هناك دم في الأرض! وأنتم! آه، خذلتموه!».

نظرت حولي، الماء فقط، ماء فقط. والسماء تغطّي كلَّ شيء بسحاب كئيب: «أرأيت يا طاووس؟ أرأيت إلامَ وصل حالك اليوم؟! قَفْر، قَفْر بلا أرض حتى!

إذا أردت أن تحكم اليابسة، تحكمها بالطين اللازب؛ فالنار لا تنفعك على الأرض، الطين فقط هو ما ينفعك! أنت تعلم أنَّ الأرض لا تسير إلا بهم، وهم لا يسيرون إلا بالهدأة والوقت، كما خُلِقوا، بالهدأة والوقت، كالفخَّار، رغم قدرته على أن يخلقنا مثل أيّ شيء، بالأمر، بكن فيكون! إلا أنه يرسل إلينا رسالة داخلنا، الوقت، الوقت هو مفتاح المُلْك، السعي، الانتظار بعد العمل! لقد صدقت وأنت الكذَّاب! اشكر لي بعلشمين، وقل له إنَّ الطين سيلوّث وجهه يومًا ما!».

جدَّفت للخلف، وظلَّ واقفًا، عينه تتجمَّر، وكأنّني أشعر بحرارتها. سألته: «ها يا طاووس؟ هل قرَّرت أن تعود معي؟ للعلم، هذا القارب من خشب الفلك! فلك نوح! اسعد يا رأس الكبش!»، وضحكت، زأر واشتعل، جسد ناري! رفع عصًا أو سيفًا، لم أتبيَّن، فانكفأت للخلف وصحت: «أعوذ باللّه!»، فانفجر الهواء، وصراخه يبتعد في الأفق. وقفت، وأمسكت الهرم الأسود، وألقيته خلف صراخه، ثم درت أواجه الأرض، أواجه كلَّ الطريق الذي جئت منه، سأعود إذن. رفعت المجدافين وتعكَّزت عليهما، إنهم فقط حفنة قليلة من البشر مَن يمنعون عنَّا السماء والشمس، ويحجبون معارج الملائكة ومهابط النجوم، إنهم قليلون جدًّا! ضربت القارب بكفّي، فتحرَّك وحده. ضربته ثانية فجرى بي. إننا نعود، الطين يعود أيها الخروج كي يمحو أيَّ سقيفة تمنع السماء عن الأرض!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النواصي

أشمُّ رائحة الحرب من تحت أعقاب أبواب الصاج للمرائب والورش الميكانيكية! الأوتوموبيلات تزمجر داخلها بخُفُوت، تُحمّل أسطحها كالعادة بالبندقيات والرشَّاشات، وصناديق البيدفورد بالكاتيوشا. تضيف خزَّانات وقود مزوّدة بمكابس جرمانية كي تقذف اللهب عندما تحين الساعة. تتجمَّع في الساحات الواسعة لأسواق السيارات والميادين، وأحيانًا في ساحات الركن الكبيرة أو مواقف الحافلات الإقليمية. وتعقد اجتماعاتها السرّية في مواقف السوق العربانية الكبيرة تحت الأرض، حيث تُباع فوقها بالضبط لحومنا ولحوم أبنائنا وألسنتنا وأمخاخنا في ثلَّاجات العرض الباردة. الأسوأ في الأمر أنَّ لديها أقارب أغنياء وذوي بأس، مجنزرات وعربات مصفَّحة وقاذفات حمم، كائنات ميكانيكية متوحّشة تطوف الأرض فلا يستطيع حافر فرس أن يخطو الخطوة حتى تنصرف. في الليل، تتراصُّ فوق الشاحنات العملاقة، تنتقل من مدينة إلى أخرى في ساعات معدودات. إنها تسيطر حتى حين، حتى الآن، وسائر العالم بين مضطرب ومفزوع أو منتظر. الساعة الآن الواحدة من الصباح، وأهلوب اليزج أضاف طبقة مطاطية قاسية إلى الحدوات، فلا يفضحني صمت الليل والشوارع الخالية. كلما أسير في أيّ شارع أنظر إلى ناصيته، وأتخيَّل صدور الخيول تدلف هاجمة في انتظام منضبط، تطقطق حوافرها في كلّ مدًى للسمع، ويَسُوق زفيرها الغبار أمامها، يعصر الإسمنت الصلد الذي ابتدعه الإنسان ترفيهًا للعدوّ الأوتوموبيلي، ليجعله عجينة من الطين الأول، ويرقص الشجر مع الهواء، الذي قال الأبجر الحصان يومًا عنه: «إننا خُلِقنا من الهواء، وهو يتحرَّك خلال العالم ما دمنا نركض»، يصهل ثم يتابع: «ولو توقَّفنا، ماتت الكائنات». مجنون قليلًا الأبجر، لكنَّ تعبيراته كلاسيكية محبَّبة إليّ، مجنون قليلًا لأنه مسنّ، يقول، وقد يكون يتخيَّل، إنه كان جواد الأمير الجبتي، كان حينها البشر للملوك، لا للأوتوموبيلات، يعيشون في القرى الخضراء، ويقضون أوقاتهم في الكلام والركض مع الجياد، وفي الليل تغفو الجياد، ويتسامر الناس: «الأرض النوبة دي مزهزهة وحِلوِة اللهم صلّي ع النبي»، «الحكومة ناوية تشتري قيراط الرزّ بريال»، «الواد سميح القهوجي بيخدّم على شاي هندي، إنما إيه!»، «ما هو السبخة السنة دي كانت حِلوِة روخرة، تلاجي المحصول محترم»، «الواد يوسف ابني عاوز يروح يتعلّم في الجبت»، «وما له التعليم؟ ينفعه برضك يا حاجّ نسيم»، ويصهل، ثم يراقب الغروب الغامق، ويبكي، يقول: «حتى الغروب لم يعد وردِيًّا! قتلوا الملك والأمير، وجاء رجال على الأوتوموبيلات، وفرَّ أجدادنا إلى أطراف المدن والبلدان».

يقول سامران الأرن: «الهزيمة يا آل صهيل بدأت عند أول حافر تراجع أمام أول عجلة مطاطية! العيب الأكبر على الجواد الأول الذي ركض ولم يرفس

حتى أو يركل». سامران فيلسوف، كان يستمع إلى أستاذ مسنّ يعطف عليه عندما بدأ الشتات الكبير، يصهل، صهيله غريب، يطأطئ رأسه حتى يكاد خطمه يلمس الأرض ويحمحم، يقول: «تخيَّلوا يا آل صهيل أنَّ هناك من الخيول من جرَّ الأوتوموبيلات أولَ الأمر! أيُّ خيانة هذه؟! أيُّ خيانة؟!». أهزُّ رأسي كلما أذكر كلماته تلك، وأطأطئ رأسي كي أتابع الظلال من تحت أعقاب بوابات المرائب، ويتهيَّأ إليَّ أنَّ عرق تلك الخيول الخائنة مثل رائحة الجاز وزيوت الأوتوموبيلات الزنخة. قيل إنَّ جلاز الترياق قالت إن تلك الخيول كانت لا تتكلَّم، تُضرَب بالسياط فتُجَرّ، تُربَط أعينها، تأكل في إسطبلات. الحياة تباع لأجل ربع حياة، هكذا قال جدّي يومًا. عندما عاد جارنا سهلب الصاعد بحزم البرسيم الحكومية، وقت أن كنا لاجئين في البراري مع كثير من الجياد. سهلب كان في سنّ أبي، وسمعنا بعد حين أنه قُتِل برصاصة المعاش، في الوقت الذي كان أبي يركض معنا كلَّ يوم في البرية، وابتسم جدّي: «ألم أقل إنهم أعطوه ربع حياة فقط؟!».

أبراج الساعات تدقُّ في الميادين البعيدة، تفصل الليل عن النهار، تخبر الأوتوموبيلات عن مسار الوقت وكيف يتقلَّب، قال سامران إنَّ هذه الساعات العملاقة أصنام، يجب أن تُحطَّم، فسَّر هذا بأنَّ «اليوم اثنتا عشرة ساعة بوجهين، وجه في النهار والآخر ليلي، ورغم ذلك، ليس هناك إثبات دامغ أنَّ النهار كالليل مُقسَّم لاثني عشر عقربًا، فلا يدري أحد مَن قسم تلك القسمة، وما كان غرضه، فالحياة لمَّا كانت، كانت من دون عقارب، كان الوقت ككلّ شيء؛ حرًّا! مَن وزَّع الساعات على العقارب؟ لم يكُ تَرِكة مثلًا تُوَزَّع على البروج الاثني عشر، أو الأشهر الاثني عشر، أو الأولمبيكين! فليس، كما يبدو، أيُّ علاقة بين العقارب وأيّ اثني عشر على وجه البسيطة. قد يكون رقمًا مباركًا كالسبعة، وحدة قياس الأسبوع، والسموات، والأَرَضين! لكنّني رغم كلّ ما مرَّ عليَّ لم أجد أيَّ معلومة تعطي أيَّ علاقة بين الاثني عشر والسبعة سوى الخمسة والتسعة عشر! أستطيع إذن أن أجزم أن الاثني عشر زوجًا من الساعات مجرَّد أسطورة اعتيادية، ليس لها أصل واضح أو سند تاريخي، بل سندها ممَّا أسموه بالعادة!». قالت جلاز الترياق إنَّ سامران يحتاج إلى أن يأكل بعض العرعر حتى يُشفَى دماغه، لكنَّ سامران أصرَّ على أنَّ الزمن لا يجوز أن تحتويه آلات، آلات ذات قرابة لأعدائنا الأزليين، الأوتوموبيلات. قال جدّي إنَّ كلام سامران يحمل بعض المعاني التي تشبه ما حدث أيام الشتات: «عندما دخلت السيارات بكلّ صورها المدن وطردتنا، وقتلت كلَّ من قاوم أو شاخ، وساقت الصغار للعمل في الجبال أو للمذابح. كان الأمر كانقلاب الليل والنهار. كنا في عيش بسيط هانئ، نستنشق النسيم فنشمُّ عبيرًا لم يوجد، ونُصِيخ السمع في الصمت، فنسمع نغمًا بعيدًا من هدوء الوديان المحيطة بالأرض، نحرث الأرض ونأكل، ننام ليلًا وأجسادنا دافئة من العمل، ومن يسهر

يستمع إلى سمر البشر. بعدها، أصبحنا كما تعيشون؛ ليل، ليل كساعة باردة طويلة من الليل، ليل كسياط سود تسلخ الظهر، ليل كمآقٍ أفسدها طول الدمع، ليل كغابة محبوسة عن الشمس تحت شجرها نفسه!». حمحم سامران وخطمه يحكّ الطين، قالت جلاز الترياق وهي تنظر ناحية الشرق: «لكن سامران قال إنَّ الساعة تنقلب أيضًا إلى النهار»، فضحك جدّي: «لكن السامران أيضًا يحتاج إلى نبات العرعر كي يبرأ من البَلَه، كما قلتِ».

جلاز فرس قوية، قد تكون مسنَّة، لكن قوية. كان لها مهر صغير أسود، كان أسود تمامًا، وأبوه لم يكن موجودًا، قيل إنه خائن، فأسمته جلاز (جواد الرؤيوان)، لكن لما شبَّ قليلًا سمّيناه نجمًا. كان قويًّا، يركض طَوال النهار بلا صهيل واحد، ويلمع العرق على جسده الأسود فيبدو فضيًّا. سألت أبي: وما معنى الرؤيوان؟ ابتسم: جواد الزمن! لكنّني سألت سامران، فقال إنه عندما تتحوَّل الساعة من الليل إلى النهار، أو من النهار إلى الليل. ويومًا ما حاصرَت البراري ألف أوتوموبيل سوداء لامعة، تصوّب أنوار عيونها الواسعة البشعة ناحيتنا، فلم يستطع أحد النظر إليها، وطافت فوقنا أوتوموبيلات تشبه اليعاسيب، تطنُّ بالموت. ركض كلٌّ جواد إلى نجاته، ومات الكثير تحت العجلات السود المطّاطية، أو بطلقات النار المؤلمة. وفي عربة كبيرة مفتوحة، وقف أعلاها رجل شاحب، شعره أسود، ملتصق برأسه، ووطواط كبير، يبتسم في خبث أوتوموبيلي، صاح: لا تقتلوها، أريدها حية، أريد عضلاتها، أريد لحومها، أمشاجها، دماؤها لا بدَّ أن تبقى في عروقها! وحكَّ ذقنه، لمعت عيناه: «بديع!». وقعنا يومها في الأسر، وساقونا إلى المدن خلفهم، وفقدت جلاز ابنها نجمًا، جواد الرؤيوان. لم يقتلوه، لكن لم يرَه أحد بعد ذلك اليوم.

دخلنا المدن، وارتدينا الحدوات، وسرنا جوار الأوتوموبيلات تتحرَّش بنا، بأطُرها المعدنية الوسخة، وبأبواقها المزعجة. جلس البشر على المقاهي، وفي الحدائق، يأكلون ويلعبون ويسمنون، وتحرَّك كلٌّ شيء على عجل، بات كلُّ شيء يقرقر بماكينة وهو يسير. كنا نجرُّ ما يستطيع أوتوموبيل عاطل أن يجرَّه، لكن كما قال سامران: «الغالب يُقَرّب المغلوب كي يراقبه، ويُذِلَّه!». بات من يشيخ يُذبَح ويوضع في الثلاجات. ومن يَنْفَق من التعب يُلقَى إلى الأسود الجوعى في السجون. قال مزاحم الترك: «لقد أذلّت الطبيعة كلّها، لا الغابة فقط!»، ضحك جدّي وهو يحمحم تجاه حدائق البشر: «أذلّت البشر أيضًا!». كنا رغم ذلك نجتمع في زرائبنا نتسامر مثل البشر قديمًا، ونحكي عن الجوع والعمل والأرض، نسخر من قوانين الأوتوموبيلات التي تذاع في مكبّرات الصوت وسط الميادين: «تُوزَّع حصص الطعام على المواطنين الساعة الثالثة صباحًا، والساعة السابعة صباحًا، والساعة الحادية عشرة صباحًا، والساعة...»، «على الخيول أن تتوجَّه إلى أحواض الاستحمام الساعة السادسة...»، «على البقر التوجُّه إلى المضارع الساعة...»، ثم ننام

ونستيقظ لنحمل أشياء لم نعد نهتمُّ بماهيتها. قال لي جواد صبي اسمه هذلول الأقرن وهو يحمحم ويكاد يبكي: «هل حقًّا يا عمُّ أجدل الفينان أننا كنا نركض في البراري والغابات من دون أن نعمل؟!»، مسحت بخطمي على وجهه: «لا تحزن، سنلعب كثيرًا قريبًا يا مهر!»، فطأطأ رأسه، وسالت دموعه: «أودُّ ذلك كثيرًا قبل أن تضعني الأوتوموبيلات في الثلَّاجات الباردة! أمس، علّقوا لحم أبهر العفير، كنت أنا من حمل لحمه إلى السوق! هل أنا خائن يا عمّ؟ هل أنا...؟»، وبكى كثيرًا، فبكيت.

أشمُّ رائحة البارود مع وقع الساعات في الليل، والأرض مبتلَّة من الندى، الأوتوموبيلات تتحضّر لهجوم جديد، تعمل ليل نهار في المرائب والورش.. أيُّ ضحية جديدة؟! إنها ساعتها كما قال سامران وهو يقضم ورق العرعر؛ «إنها ساعة الماكينة والعجل والأبواق وأبراج الساعات! لا بدَّ يا أجدل الفينان أن نفعل شيئًا، إنَّ لنا أرواحًا، أمَّا هي فلا، وليس علينا أن ننتظر مهر جلاز كي نحاربهم!»: «مهر جلاز؟ من تقصد؟ نجم؟ ما له نجم؟!»، قال: «أبوك الأحمق وجلاز والأبجر واليزج وكلُّ كبراء الخيول تنبَّؤوا أنَّ ساعة الليل ستتبدَّل إلى ساعة النهار عندما يظهر جواد الرؤيوان مرة أخرى!»، لم أفهم: «سامران، يبدو أنَّ العرعر لا يشفيك!»، صهل غاضبًا: «بغل غبي! ابن حديد الفينان، أبله ابن أبله ابن أبله!»، نقرت رأسه بخطمي: «اهدأ اهدأ يا سامران!»، بصق العرعر وقال: «أنا آكل العرعر لأنَّ طعمه جميل، أحلى من البرسيم، غبي!»، سألته: «لكنّني لم أسمعهم يقولون هذا الكلام قطّ!»، حمحم: «يظنُّونك صغيرًا، وأنَّ نبوءتهم سرُّ معركتهم!»، فضربت الأرض بحافري الأيمن الخلفي: «لكنك سمعت!»، قضم ساق عرعر: «أنا مجنون! يروونني أبله ولن أفهم ما يقولون! هأ! الفينان الأبله! حديد الأبله!»، ونظر إليّ: «والأجدل الأبله!» سألته: «لكن يا سامران كلامهم هذا بلاهة حقًّا!»، صهل: «نعم، نعم، مجانين، لا بدَّ أن يأكلوا عرعر! كلوا عرعر!»، وضحك! «ننتظر نجم الرؤيوان حتى نفنى، فلمَّا يجيء، لن يجد جوادًا! يجد لحومًا في الثلاجات، وعظامًا في حبس الأسود»، سألته: «وما ترى؟». استقام في وقفته فجأة، وانسدل شعره الأحمر على عينه اليسرى، جميل السامران: «أن نرفس، نرفس يا أجدل الفينان! نرفس وكأنَّ جواد الرؤيوان ابن جلاز قد قُتِل! فإنَّ الساعات تدور على التروس، والتروس لا تسير في الاتّجاه العكسي لأصحابها! ساعات الأوتوموبيلات تسير كما تشاء الأوتوموبيلات، وساعات البشر كانت تسير كما شاؤوا، ونحن لن تعود ساعتنا، وينقلب الليل نهارًا، ونقلب هذه الصفحة المذلَّة من حياتنا، إلا عندما نرفس تروس الأوتوموبيلات، نرفسها ونحطّمها! الساعات أوثان! الزمن لا تستوعبه آلة، الزمن لا تستوعبه آلة يا أجدل!».

تركت سامران، وذهبت إلى هذلول الأقرن، قلت له أيقظ أصحابك وتعالوا معي. انتظرته خلف الزريبة، وجاء معه عشرة جياد. ركضنا خارج المدينة،

وأكلنا من مروج، وضحكنا، وسخنت أجساد الخيول، ركضنا حتى الربوة الشرقية، صهلْت: «كنا نجري هنا قبل أن نذهب إلى المدينة»، تقافزوا حولي، وضربنا رؤوس بعضنا ببعض، وكان الأفق أزرق باهتًا، يتسحَّب فيه صفار، فصمتْنا، حتى بدأ النهار. سألني هذلول: «إذن هكذا يتبدَّل اليوم؟»، أومأت: «نعم، بكلّ هذه البساطة!».

دخلنا المدينة راكضين وسط استنكار أبواق الأوتوموبيلات، وصيحات العربات المصفَّحة خلفنا! قلت لأصحابي: لا تتكلموا، ارفسوا فقط! ركضنا وسط الشوارع المزدحمة، ونظرت كلُّ الأحصنة إلينا بفضول، وارتفعت أخطام باقي الحيوانات تراقب: بقر، بغال، حمير، كلاب؛ كنا نركض بلا توقُّف، نصعد بحوافرنا فوق الأوتوموبيلات ندقُّ معادنها، تصرخ، وتشتم، تطلق النار، وصاح صوت من بعيد، صوت جواد: «هل عاد نجم؟!»، فنثرت شعري إلى الخلف، والشمس تقتحم وجهي: «كلَّا، لم يعد أحد يا جلاز، إنَّ ولدك ليس الرؤيوان! إنَّ الرؤيوان هي حوافرنا، إنها تركض بلا توقُّف، وتقرقع مثل الرعود في الوديان، وتردّد بسلاسة: الرؤيوان الرؤيوان الرؤيوان.. هكذا يتبدَّل الليل والنهار يا جلاز!». سخنت الشمس وامتدَّت أطرافها تتشعَّب، والميادين تزدحم، الأخطام ترتفع، وتصهل الجياد، والمعادن تنثني، العرق يسيل من كلّ المسام، رائحة الخيول، اصهلي، اصهلي، وكلي عرعر، واركضي، اسمعي! حوافرك تردّد: «الرؤ-يوان الرؤ-يوان الرؤ-يوان»!

نعم، أنت السلاح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت المجموعة القصصية بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

محتويات

عن الكتاب..

الرؤيـوان

المدخل

المقدمة

الباب

السعفور

الخرائط

الثَّابُت

الشتات

المساقط

الهجرة

الإنس

الحرب

السلام

الأصنام

المنصور

الأخدود

الدجَّال

الدم

الدشتورخا

الطوفان

المستنقع

المُلْك

النواصي